



تحت سماء الشيطان

مفكرة شخصية لأربعة عقود عراقية

قيس حسن



تحت سماء الشيطان

مفكرة شخصية لأربعة عقود عراقية

قيس حسن



الغلاف

الصورة: مهند البغدادي

التنفيذ: ابراهيم أحمد

الطبعة الاولى 2014



المقدمة

عمر أكلته الحروب

هذا كتاب بريء، أمين، ونافع الى حدّ بعيد. وهذا ما أحسب أنه سيجعله كتاباً مهماً ومحبتاً وقريباً الى النفس.

أما وجوه براءته فتمثل بخلوّه من أيّ ادّعاء. فلا هو برواية يتبختر فيها الخيال، ولا وجهة نظر في السياسة يتنافس فيها التحليل والتفكير، ولا محاولة لإضفاء معنى على تجربة، ولا جهد فوق العادة من أجل الإبهار في الاسلوب، ولا توكيد من أي نوع لذات المؤلف بوصفه صحفياً أو كاتباً، ولا «رسالة» عُني بإيصالها الى أحد.

ومع ذلك فإن أشياء من كلّ هذه الوجوه الغائبة حاضرة حضوراً خاصاً ومسلتياً ومؤملاً في ثنايا العمل، من دون تعمل ولا تقصّد. تماماً مثلما يحدث بصورة طبيعية لكلّ إنسان أن يمتلك بعضاً من هذه الوجوه، في مناسبات وأيام ومراحل العمر المختلفة. والحقيقة هي أن «الإنسان»، الذي يتعيّن في هذه الحالة بشخص قيس حسن نفسه، هو موضوع هذا الكتاب. إنه حكاية عمر أكلته حروب متواصلة، تهدأ ولكنها لا تنتهي، تبرد ولكن شراراتها لا تنطفئ، وتتخفّى لكن لا ترحل. كما أنّه شهادة فريدة من نوعها عن حياة الشدّة والعسر التي دخلتها البلاد منذ الحرب العراقية – الإيرانية ولم تخرج بعدها من سيرة الحروب.

والبراءة في هذا الكتاب تعود، أيضاً، الى «الأمانة» في تصوير الأحداث والأشخاص، بمن فيهم المؤلف، والمشاعر والأمال والخيبات التي تشكّل منها عالم الضغط العالي الواقع «تحت سماء الشيطان». وهو عالم عام جداً بقدر ما هو شخصي جداً. فكلّ تعبير أصيل للفرد ينطوي على تجاوز أو عبور الى ما يدور في أذهان أو نفوس الجماعة. ذلك أن الإنسان الذي يحسن تمثيل نفسه لا يعود يمثل نفسه فقط.

إنه كتاب أمين بدرجة فوق العادة على الواقع، على سيرة المؤلف، وحياة أهله وأصدقائه

ومحلته، ثم غربته القصيرة في إيران. كتاب فيه أشياء من أمانة الأب المسؤول الحادب على أولاده، ومن شفقة الطبيب على مرضاه، ومن دقة العالم المدفوع الى المعرفة المجردة من الأهواء. وقد تناوبت المسؤولية والشفقة والمعرفة على نسج وثيقة ضارية في مواجهتها للواقع، وصياغة سيرة خالية من الحقد لعالم مقاد بقاطرة هائلة من الكراهية. وثيقة خطتها يد إنسان طبيعي عن حياة غير طبيعية، أو إنسان سليم عن بلاد فقدت كل أسباب السلامة.

ويصادف أن يتزامن انطلاق أولى حروب البلد الكبرى مع اليوم الأول الذي كان من المفترض أن تبدأ فيه دراسة قيس في الصف الأول المتوسط. مصادفة غير عادية ستترتب عليها، مرّة وإلى الأبد، حياة غير عادية. فقد كانت تلك «المصادفة» بداية ملحمة انخفضت فيها قيمة كل شيء إلى الصفر، من التعليم إلى الكرامة إلى الحياة نفسها. والتعليم خاصّة هو عقل البلد. فإذا ضاع العقل اضطرب كل شيء، وفُقدت قيمة كل شيء. وهكذا اندفعت البلاد بحميّة غير معهودة إلى الهاوية. انفتحت شهية غريزة الموت على أقصاها، وتحوّلت إلى عقيدة شاملة متحكّمة ضدّ الحياة، عقيدة، أو عقائد، تسري في عروق الجلاذ بقدر ما تسري في روح الضحية. لقد حل موسم الهجرة إلى الهلع والضياع والموت، وادلهمت سماء الشيطان فوق البلاد.

وهناك، في بعض وقائع «المفكرة» التي حدثت في الأمس، تستطيع الوقوع على جذور أحداث اليوم، وترى اللحمة المتماسكة بين الماضي والحاضر. لكنّ أبطال أو جمهور بعض تلك الوقائع كان أشبه بسجين فائز مهتاج، ينتظر أول فرصة تحرر، من أجل الدخول في حلبة الصراع القاتل، ومراكمة المزيد من العنف والدمار. ففي حادثين، على سبيل المثال، وقعا للشخصيّة المعروفة السيد عبد المجيد الخوئي، تعرّض خلالهما للإهانة والاعتداء على أيدي عراقيين في إيران قبل 2003، تستطيع أن ترى كيف إنهما كانا بمثابة التمهيد والإعداد للمصير الرهيب الذي سينتهي إليه بعد 2003.

لقد بدا الرجل في الوقائع الغربية والمأساوية الثلاث نوعاً من اليوتوبيا، شيئاً من حلم «المكان الأفضل»، أمام عالم قد اختلف وتغيّر وانحدر إلى «المكان الأتس»، حيث

يعمّ التوجس والخوف من كل علامة من علامات الصحة أو العافية. كانت البلاد قد تجمّدت وغرقت واستنزفت في عالم منيع على الأحلام، في كابوس ثقيل مديد، في مقبرة. وقد ظهر الخوئي أمام العيون المستوحشة لامعا ومترفا وغريبا ومستفزا. جاء مسكونا بالأمل الى بلاد كانت تتقلّى لعقود عديدة بالنيران تحت سماء الشيطان. ماذا يفعل الحلم في منزل الكابوس؟ لم يكد يبدأ الكلام، لم يكد يبدأ الجلوس، لم يمش، لم يُطرد. حوصر قبل أن يبدأ أي شيء وقتل ومُتل بجثته.

هذه النهاية الفظيعة كانت لها بداية شنيعة نقع عليها في «مفكرة» قيس. وهذا المثل ليس فريدا في الكتاب. ففيه وفرة من أعشاب برية الأمس التي تناولت وصنعت غابات اليوم.

والجدير بالذكر ان تقليد «المفكرة» ليس شائعا في بلادنا. فليس من المعتاد لدى الناس في هذه البلاد تدوين يومياتهم. هذه الممارسة لم يحن أوانها بعد. ولعلّه سيتأخر «بعض الوقت». فذلك منوط بحياة طبيعيّة أولا، وحياة غنيّة لها قيمة ثانيا، وما يترتب على كلّ ذلك من تنمية في فرص المتعة والحرية والإحساس والتأمل والمعرفة. ولكن قيس حسن، بما يتمتع به من «حساسية حديثة»، وحماسة لا تفتقر، أراد من وضع كلمة «مفكرة» في عنوان الكتاب الفرعي، توجيه رسالة الى قرائه حول أهمية تقليد المفكرة، النابع من أهمية الحياة نفسها. وهذا الكتاب، بالجملة، يحفل بالدعوة الى تكريم الحياة، وأهم من ذلك أنه يمثل ممارسة فعلية، وحرارة، لهذه الدعوة. إن وراء اندفاع المؤلف للإحاطة بالعالم من حوله، والحفر في دقائقه وعظائمه، حماسة للحياة ملفتة، غير معهودة، ومقاومة. فالقاعدة في عوالم فقدان الثقة والأمان هي جمود الناس عند اليأس والسكون والعدمية. ولكنّ الكتاب، أو صاحبه، يقاوم، يدعم ويبتسم ويرتعب، يحترق ويخمد ويلعب، وفوق ذلك يتأمل.. تصوّروا! وهو خلال ذلك كلّه مندفع على الدوام ضد التيار في حركات حبّ وتوقير للحياة.

وقيس لا يستطيع التعامل ببرود مع أفعال أو كلمات حبّ الحياة، خاصّة اذا كانت أصيلة وقوية. فهي تلهمه وتلهبه، وهو يحمى ويشتعل بحبّها من أوّل نظرة.

وأذكر أنه في وقت متأخر للغاية من إحدى الليالي قرأ نصًا عميقًا جدًا في هذا الاتجاه لدستويفسكي، فلم يستطع الانتظار عليه حتى الصباح. كان يريد تعميمه على الأصدقاء في الحال واللحظة. فبعثه عاجلاً قرب الهزيع الأخير من الليل في رسالة على موبايلااتهم. وكان النصّ على درجة من القوّة، وفي نفس الوقت من القدرة على التعبير عن نفسية قيس، بحيث صرت أربطه به بالمقدار نفسه الذي يرتبط فيه بمنشئه العظيم.

ولكن مَنْ بإمكانه الإفلات من ذلك النص إذا مسّه وشعر بلذعته الحارقة، المحتفلة بالحياة، والجافلة المذعورة من العدم: «لو استطاع المرء أن يعيش على صخرة عالية لا يوجد فيها متسع إلا لموضع قدم، ومن حوله المحيط، والظلمة الأبدية، والوحدة الأبدية، والعواصف الأبدية، لو تمكّن لاستمر واقفاً على متر مربع من الفضاء بقيّة حياته، ألف سنة، الى الأبد، إذ لا شك أنه من الأفضل أن نحيا على أن نموت، فقط أن نحيا، ونحيا، ونحيا، كائنة ما كانت هي الحياة».

ومن المؤكد أن هذا الكتاب هو ثمرة من ثمرات التعلّق بالحياة في عالم احتكر الجذب أرضه والموت سماءه. ثمرة شقية وممتعة بما تضمّه من صور وأحداث وحفريات، وشخصيات مختلفة عاشت جحيم المتر المربع المظلم العاصف. كما أنه ثمرة معرفة أكيدة، لأنها تلقي أضواء على فترة مهمة من تاريخ العراق الحديث والمعاصر.

وهذا التاريخ، في اعتقادي، نتاج مرحلتين تولّتا التأثير فيه وتشكيله الى حدّ كبير. الأولى هي المرحلة العثمانية التي دامت نحو أربعة قرون. والثانية هي مرحلة الحصار الدولي التي استمرّت 13 عاماً، وكان لها من الأثر في ما يساوي تأثير القرون «العصلمية» أو يزيد. لكن على الرغم من هذه الأهمية التي احتلّتها مرحلة الحصار في تشكيل البنية الاجتماعية لعراق اليوم، فإن المؤلفات والدراسات والشهادات و«المفكرات» الخاصّة بها لا زالت محدودة أو قليلة. وهذا مفهوم. فالشعوب لا تضرب مواعيد مع التاريخ، وتصل إليها، إلا بعد أن تخرج من محارق التاريخ أو قبوره.

ومن هنا يأتي نفع هذا الكتاب. فهو شهادة شجاعة عن جوانب عديدة ومختلفة

من حياة الشعب العراقي، أو شرائح كبيرة وأخرى هامشيّة منه، في ظلّ الحصار، بالإضافة الى مقدمات الحصار التي كانت قد بنيت من أحجارها جمهورية الخوف. ولا شكّ في أن معرفة هذا التاريخ، وهضمه واستيعابه، تمثّل خطوة كبيرة على طريق مستقبل العراق الذي لم يتعبد منه شيء، حيث لا بوصلة ولا خارطة حدّدت له الاتجاه، ولا «حركة» أشارت الى إمكانية إنقاذ البلاد من الاستمرار في ملحمة العيش «تحت سماء الشيطان».

شخصياً أشعر بالامتنان لهذا الكتاب، لأنه يقربني أكثر من نفسي وأهلي وشعبي، ويزيدني قدرةً على التّفهم والتسامح، مع أنه لا يمنحني الأمان. ولكن هل سبق لكتاب جادّ أن منح الأمان لأحد؟

أحمد المهنا

مساقط الرؤوس

هل يمكن لأي إنسان سليم العقل عاش من أحواله
ما يكفي ليفهم ويتأمل في قيمة الحياة البشرية، هل
يمكن لمثل هذا الإنسان أن يرضى بأن تعاد عليه فصول
الحياة في روايتها الهزيلة، لا أقول بنفس ظروفها التي
شهدها هو في حياته بل بأي ظروف يشاء؟

كانت

ولدي يمان

أبدأ قصتي معك من يوم ولادتك في بغداد، وكان ذلك في السادس عشر من آذار عام
2008، يومها كنت في الأربعين من عمري، لم تكن رحلة هانئة أو هادئة، فثلاثة
أرباعها دارت بين حروب وجوع وخوف. عن رحلة الشقاء هذه سأكتب لك مستعينا
بذاكرتي ومن يبلغ الأربعين في بلد مزقته الحروب لا تكون ذاكرته في أحسن الأحوال

ولكن لعلها من أجلك لا تكون في أسوأ الأحوال.

ولادتك كانت في مستشفى يقع بجانب الكرخ ونحن نسكن الرصافة، مياه دجلة التي تفصل بين الصوبين حملت معها نذر الفناء، كانت الجثث تطفو على سطح المياه، أناس أنهت حياتهم سورة كراهية طائفية، وحملتهم الأمواج بعيدا عن أهاليهم وأحلامهم. في العام الذي ولدت فيه كانت بغداد مسرحا لصراع حول السلطة يخلو من الرحمة والضمير، يدور بين أحزاب الشيعة والسنة. كانت أرواح الناس وممتلكاتهم وأعمالهم أهدافا للفریقین، ومن يقتل أكثر تتوسّع سلطته أكثر، اللعبة هي هكذا. في تلك الحرب تراجع الوطن وأخذت الطائفة مكانه، وسأقت الكراهية المجتمع الى وضع مظلم، لم يعد الجار يأمن جاره، ولا الصديق يثق بصديقه. أعادت الناس اكتشاف نفسها وفق خرائط الطائفية، الآلاف قتلوا على الهوية، دون ذنب، في دورة عنف وكرة نار تكبر كل يوم. في مدينة على هذه الدرجة من القبح سقط رأسك؛ فأبي مصير سيكون بانتظارك؟

حملتك بين كفي الأمل والخوف، وأنا أعرف أن مساحة الأمل لا تتيح لي أن اتوهم كثيرا، كنت أداري ندمي على ما فعلت معك بالكثير من الأسئلة الحانية والواعدة: هل يمكن أن أمنحك فسحة من حياة تحفظ كرامتك؟ كيف لي أن أبعدك عن العنف المتفشى في روح الناس، في لغتهم، وأدبهم، وتربيتهم، وفنونهم، وسياساتهم؟ أريد أن أضعك بعيدا عن فضائك فأبي مُحال أسعى اليه؟ أتدري كم من الأبناء شكروا آباءهم لأنهم هربوا من هذا البلد قبل طوفان الحروب، وقبل أن تبدأ سنوات الهوان؟

عندما غادرنا المستشفى الذي ولدت فيه بدا المنزل بعيدا، لا بسبب لهفتي للتمعّن في وجهك، برغم حاجتي للنظر الى وجه بريء، بل خوفا من أن تطولك نيران الشوارع وتحرق فرحتي، كان خوف فقدان لا وجل النوال. وكنت كمن تورط بفضيحة أو جريمة، لقد جئت بك في اللحظة الخطأ، في المدينة الخطأ، في البلد الخطأ. قرأت مع نفسي وأنا أحملك بلفافة تقيك شرّ هذا الوجود، شعرا عن سرّ هذا الوجود:

«ولدت كآلاف من يولدون، بآلاف أيام هذا الوجود
لأن فقيرا - بذات مساء - سعى نحو حضن فقيرة
وأطفأ فيه مرارة أيامه القاسية
نموت كآلاف من يكبرون
حين يقتاتون خبز الشموس
ويسقون ماء المطر
وتلقاهم صبية يافعين
حزاني، على الطرقات الحزينة
فتعجب كيف نموا واستطالوا، وشبت خطاهم
وهذي الحياة ضنينة»¹

وصلنا البيت ظهرا، كان مجاورا لحسينية شيدت في ستينيات القرن الماضي، وكان روادها من كبار السن الذين يأتونها تعبداً وتمتعاً بتزجية الوقت، قبل أن تتحول الى أحد أكبر مراكز التطرف والعنف في بغداد بعد العام 2003، حين استحوذت عليها عناصر ميليشيا شيعية، تخونني الشجاعة لتسميتها بالاسم، بسبب خوفي من جندها. فهم لا يترددون أبداً في تمزيق جسدي لأي سبب يرونه «وجيها». على يد تلك الميليشيا تحولت الحسينية البائسة من مكان للعبادة والأمان الى مركز للسلطة والذعر، تستجوب فيه الناس وتهان وتذل. صارت أشبه بكنة عسكرية تسيطر على الحي ويتحكم جنودها بمصير أهله، يراقبون الناس ويتابعون تحركاتهم وأعمالهم، وبسبب تراخي قبضة الحكومة وانحلال قدرتها على أداء دورها كانت السلطة الفعلية بيدهم. في ذلك البيت القريب من تلك الحسينية، كان عليك أن تمضي أيامك الاولى. في آخر الليل عدت لكتاب كنت قد بدأت بقراءته قبل أيام، هو مذكرات لشاعر عراقي، كانت عبقريته ضحية أفكار حزبية تورط بها، هرب يوسف الصائغ في «اعترافات مالك ابن الربيع» عبر منافذ اللغة الشعرية من مخاوف الكلام في السياسة والأحزاب،

١ . صلاح عبد الصبور ، مأساة الحلاج ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، سنة النشر ٢٠٠٠ ، ص ١٠٢ .

وقد دخلها وخرج منها خسارة وخرابة ولكنّه ظلّ حيّ اللغة بارع الحيلة. فشغفت بالاعترافات البليغة والرقيقة برغم ابتعادها عن الصراحة عند الحديث في السياسة، لا لومٍ عليه، لأنني أعرف تحت أي خوف وريبة سَطُر حروفه، كان ضحيّة السياسة والأحزاب والأفكار المتطرّفة، فهرب بمذكراته الى الطفولة والشعر والمسرح. ليس غريبا أن يغفل الصائغ، وهو الماهر في صنّعه، جزءاً من صورته «الحقيقية» كشاعر انتمى في شبابه للحزب الشيوعيّ، وتحول بفعل إرهاب سلطة البعث الى شاعر «مدجّن» ومدّاح. اكتفى بطفولته وشبابه قبل أن يدخل عالم السياسة ويتقرّب من السلطان. هو في كتابه «محايد» و«بريء» و«دارس لاهوت»، فقد كتب كلماته في عصر صدام حسين.

ولم يكن هناك عصر أفضل من عصر في حياتنا. ففي أول صباحاتك في البيت خطف جارنا الكرديّ مع سيارته الأجرة التي يعيل بها حشداً من الأرواح، أنزله منه خاطفوه وسط شارع قريب من بيته، عمره يتجاوز الستين عاماً، كنا نعرف الفاعلين، ولكن لا أحد يقوى على مجرد التلميح اليهم، قلنا: ما دخلنا نحن؟ ولم نقل: ما ذنب الكرديّ المسكين في صراع على السلطة بين السنّة والشّيعة؟ الجميع يعرف الخاطفين لكنّ الجميع خائفون.

من هم هؤلاء الذين أذاقوا الناس مرّ الفجيعة؟ هم من جيل ولد في الحرب وكبر على أصواتها، وأدبها، ورعبها، عاشوا فيها ورضعوا حليبها، وهم، في النهاية، خلاصة روحها. شكّلت الدكتاتورية رؤيتهم للعالم فكانوا ضحيتها مثلما كانوا مخلوقاتنا، وبفعل ما مرّ بهم أضاعوا بوصلة الإنسانية، لا يعرفون معنى للحياة الآمنة الهادئة، ومعهم أو بحضورهم لا يمكن أن يشعر الإنسان بالأمن والسكينة. كنّا نعرف أنّ الخاطف يقف مع الحشد المحيط بمنزل المخطوف، يقف ليشفي غليله، موت إحساسه الإنساني يدفع بروحه التي تتدافع فيها الظلمات نحو البحث عن مزيد من التّشفيّ، فهي لا تكتفي برؤية دم قتيلاها، بل تبحث عن دموع أطفاله وعائلته.

عدت للمنزل مستنكراً، ومتسائلاً: كيف يمكن أن يقدم الإنسان على أفعال تتلاءم مع

الحياة الطبيعية وتنسجم معها وهو يعيش وسط حرب أهلية فتاكة؟! تزوجت في خريف العام 2006، وكان أكثر الأوقات دموية في عراق ما بعد الدكتاتورية، فيها قتل أكثر من خمسة آلاف مدني بكلّ وسائل القتل، ولم يعرف عدد من فقدوا خلالها. وكأنّ ذلك لم يكن كافيا، فزدت عليه استئجار ذلك البيت القريب من حسينية يبدأ روادها فجرهم بإرهاب الناس، وينهون يومهم بقتلهم. وفوق كل ذلك كنت أعمل في قناة فضائية أميركية في زمن الاحتلال الأمريكي، واصرّح بعلمانيتي وبيمانتي «المتصلّب» بأنه من دون ديمقراطية بنسختها الغربية، لا يمكن أن ننجو من مسالك الخراب، وأدافع علنا عن توجهاتي الفكرية المناهية لسلطة الدين ورجاله وكل ما يمت بصلة للإسلام السياسي. كان عليّ ألا أفعل ذلك وأن أكون حذرا، فهل هناك حمق فوق حمقي؟ ولكن لعلّ السبب هو الابتهاج بفسحة ولدت بين نهاية الدكتاتورية وبداية الحرب الأهلية، صحيح أنها لم تكن آمنة، ولكنها كانت «فسحة» على أي حال. برغم هول أحداثها وقتامتها إلا أن حديثي معك عن أيام طفولتك الأولى، لا يشغل إلا حيزا مختصرا من هذه السطور، فلحظاتك الأولى ولدت من رحم جحيم سبقها، سحقت فيه كرامة الناس بالكامل، وخلفتهم ركاما. أعرف أن الكرامة المهذورة إرث ينقله الآباء للأبناء في هذا البلد، إلا أنني لا أريد لك أن تكون قدرتيّ وأنت تنظر لما يحيط بك من مشاق، بل واعيا مدركا لما جرى وكان. وحين تهدر كرامتك في أي لحظة، ليس عليك سوى أن تلقي اللوم عليّ أولا، ثم على المسار الدمويّ الذي مضى اليه بلدك، قد تفهم من الكتب ووسائل أخرى الكثير عن بلدك، لكنني أريد لك أن تعرف روح وعقل من كان مسؤولا عن تربيتك. إن فهم بلدك قد يساعدك على فهمي، وسأتحدث عن بلدي كما انطبعت صورته في عيوني فقط، أملا بذلك جعل العلاقة مع الوطن جزءا من صلة القربى بيني وبينك.

أشقى كثيرا وأنا استجمع ذاكرتي لأبحث عن كلمة صادقة تعريّ روحي، وأحلامي، ومخاوفي، ومبعث شقائي هو أنني لم أكن صريحا وصادقا طيلة الوقت في إعلان أفكاري والدفاع عنها. لقد ولدت في زمن الخوف من دون سبب ودون ذنب، لم أجرب أن أطلق

لنفسى حرية قول ما أشك أنه قد يتعارض مع السلطة، كانت دوائر الخوف تكبر وتتسع مع الوقت حتى أصبح دثار العقل بسببها سميكا وخانقا. لكنى سأخوض معك في أيام قليلة ما لم أفعله طوال العمر، فأى شجاعة سأحتاج؟

تعلمت في رحلة الأربعين أن هناك جزءا مطمورا في كل إنسان، ربما يخيفه كشفه، فيخفيه، ثم مع مرور الزمن قد ينساه، وسأجهد نفسى لكشف المطمور منى، لأنه هو الحقيقي والأصيل، هو الذي نمت فيه أفكارى وثقافتى وخصوصيتى. أما الظاهر فهو الشخصية الاجتماعية، الخاضعة، المناقفة، الدائرة حياتها حول الربح والخسارة، إن جزئى المطمور هو الذي تعامل معك، أحبك، وأضجرك، أبكاك، وأطعمك مخاوفه وسخريته، أكتب لك عن وقائع عشتها أو كنت شاهدا عليها، وخلفت آثارا على روحى وعقلى وشكلت كل واحدة منها جزءا من شخصيتى.

ومع مولدك، عدت لكل ما مرّ بي فلم أجد شيئا يمكن لي أن أقول إنه «جوهري» تدور حوله تفاصيل حياتى سوى أن هناك رغبة عارمة بالانزواء عن الناس، بسبب خوف ظلّ منذ الصبا يحاصرني مثل سجان يرقب جسدى ويتشكك بأفكارى ونواياى. لست لصا إلا أن العالم كله بدا لي مثل شرطي فاسد وقاس يتربص بى، وكان عليّ إما أن أكون هذا الشرطي أو أن أكون الخائف الشريد المختبئ منه. فكنت ابن الخوف الذي أنفق حياته في رحلة توقفت عند محطة وحيدة فريدة لم يعرف سواها وهي الحرب. في الثانية عشرة من عمري «دخلتها» متفرجا، لم أحمل سلاحا ولم أشعر يوما أنني أنتسب إليها، ولا فهمت حقيقتها أو تقبلت دوافعها أو دافعت عن نواياها أو رضيت بنتائجها أو حتى سعدت بنهايتها.

ولكنى سأكذب إذا قلت إن عنف الحرب لم ينسل الى لغتى و شخصيتى، انا ابن مآسيها، لا خنادقها. حين تكبر ستتذكر، وربما ستفهم خوفاً وقلقى وأنا أقبلك قبل أن أخرج من المنزل في الصباح، أو ضيقي الذي يصحبنى عند العودة في المساء، فهذا كله نتاج يسير من صنعة الحرب التي لا تكفي بالقتلى وإنما تتجاوزهم لتعبث بأرواح الأحياء الذين عاشوا على ضفافها وهوامشها. إن الحرب لا تخلف شيئا سليما في

ضحاياها وشهودها، وأنا لا أصدق أنني أعرف ذلك تمام المعرفة وقد تزوّجت وأنجبت
والحرب دائرة، مستمرة، متنقلة من الحدود البعيدة الى أبواب البيوت.

الصبا وطبول الحرب

انتهى الصيف والتحقت بالمدرسة المتوسطة، مرتديا، لأول مرة، السروال الطويل (بعد أن بقيت ارتدي السروال القصير سنوات) مزدهيا، بأول علامات (رجولتي) ومتباهيا بشعري الذي تعلمت كيف أتقن تسريحه.

يوسف الصائغ

« الاعتراف الأخير لمالك بن الربيع، سيرة ذاتية »

وأنا أحمل « فايل » يضم صوري ووثيقة تخرجي من المدرسة الابتدائية ذهبت الى بناية متوسطة النابغة لالتحق طالبا في صفوفها، كان ذلك في اليوم نفسه الذي بدأت فيه الحرب مع إيران، والدقة باليوم ليست على سبيل المبالغة بل هي الحقيقة كما وقعت، فحسب ما تتطلبه الإجراءات الرسمية، كان عليّ أن أسجل اسمي في المدرسة

المتوسطة قبل أسبوع واحد من بدء الدوام الرسمي للمدارس، الذي يبدأ في الأول من تشرين الأول.

ذهبت الى المدرسة في الثالث والعشرين من أيلول 1980، فرحاً، ومزهوًا، تقع المدرسة في أطراف مدينتنا الكمالية، التي تقع هي الأخرى على الأطراف الشرقية للعاصمة، وهي من أشدّ أحياء بغداد بؤسا وفقرا، كنا مجموعة من الصبيان نقف أمام المدرسة، استوقفنا حارسها «حسوني» بعيونه الجاحظة، وشواربه البيضاء الكثّة، متكئا على باب المدرسة الحديدي الواطي، قال لنا:

— ارجعوا لبيوتكم ما تشوفون الدنيا مشتعلة؟ الحرب بدت!

سكت حسوني، ومضيت الى عالم الحرب الذي سأعيشه ما بقي لي من عمر. حرب؟ ما الذي تعنيه؟ وما دخل التسجيل في المدرسة بها؟ تساءلت مع نفسي وأنا أرقب الحارس وهو يطردنا، أدرت وجهي صوب الشارع ماضيا الى البيت، كنت خائبا، ومنكسرا. لا دخل للحرب في المشاعر التي اجتاحتني، حزني كان بسبب منعي من الدخول الى مدرستي لا بسبب الحرب التي اشتعلت قبل لحظات فقط، فعودة أوراقني معي عنت تعطيل حلمي الذي ظلّ يراودني طوال أشهر العطلة الصيفية، كنت قد وقفت مرّات عدّة قبل هذا اليوم أمام بناية «المتوسطة»، مثل عاشق يقف أمام منزل حبيبته، قلت مع نفسي ستفتحين بابك لي فأنا لم أعد طفلا، وحينها سأسخر من الصغار، مشيت، تحيط بي الحيرة من كلمات الحارس اللعين، لم أمض سوى خطوات قليلة حتى دوّى صوت صافرة الإنذار، التي تعلقو برجا يمتد عنقه الى السماء، بناه آسيويون ربما من كوريا أو الصين قبل أشهر من الحرب في ساحة مدرستنا الابتدائية، ركض الناس، الكبار والصغار دخلوا بيوتهم، بقيت وحيدا ترتجف أعضائي، لم تسعفني رجلاي على الركض، فجلست أمام باب بيت قريب، تكاد عيوني تخرج من صوت الصافرة، وحينها عرفت معنى الخوف والهلع لكنني لم أعرف طعم الحرب بعد، مرت صورة أمي أمامي، توسلت بها أن تأتي لتتقذني من هذه الأهوال، لم أكن أقوى على البكاء، فالدمع لا ينزل حين توشك الروح أن تهرب من الجسد،

وحين وقفت على أرجلي لأركض الى البيت، شاهدت طائرة تحلق فوق البيوت وهي تنفث دخانها المخيف، ويمزق صوتها الهدوء المحيط. صافرة إنذار، وطائرة سوداء، وهلع يخرج الروح، هكذا بدأ أول أيام الدراسة المتوسطة، وهكذا أيضا ابتداء الصبا، في ذلك اليوم سمعت حارس المدرسة يقول، إن الحرب بدأت، لكنني لم أسمع بعدها من يقول إنها انتهت.

كنت أعيش قبل الحرب في عالم آخر، عالم الطفولة، حيث الحياة ملعبٌ لا حدود له، لكن الحرب سرقتني منه، فقدت السلام والطفولة معا.

في الثاني والعشرين من أيلول، قالت الحكومة إن حربنا مع إيران قد بدأت، كنت مندهشا من ردود فعل الناس وهم يراقبون ما يجري على الحدود ويتحدثون عنه، البعض كان متحمسا، آخرون كانوا خائفين، ولم أعرف مشاعر كثيرين منهم حول ما يجري، وفي أي جهة من المشهد كانوا يقفون، لكن أحدا لم يكن معنيا بالنهاية التي ستقودنا لها هذه «الحماسة» التي ليس لها مثيل. ومع الحرب بدت الناس وكأنها قد خرجت من سبات طويل ورمت عن نفسها الكسل والخدر، خيم القلق على الجميع، لا أحد يفهم ما يجري، لكن الحكومة تقول، إن إيران تريد احتلال بلدنا وتدميره.

قبل أن تقع الحرب كانت إيران قد استحوذت على اهتمام العالم وترقبه، بسبب قيادة رجال الدين الشيعية لثورة عارمة على ملك إيران، محمد رضا بهلوي، الذي سمى نفسه بملك ملوك إيران. انتهت الثورة بهروب الملك وانهيار نظامه، وإقامة نظام حكم إسلامي، لم أعِ بأني أعيش حدثا تاريخيا مذهلا، لذلك استحال عليّ وأنا طفل صغير استيعاب حجم الأثر الذي تركته الثورة ليس على الشيعة في إيران والعراق بل على العالم بأسره، كما ستكشف الأيام، لكنني أجزم تماما، أن محيطي، وهو في الأغلب من بسطاء الشيعة، كان مندهشا ومفتخرا بما يجري في إيران.

كانت الثورة، وإيران، والإسلام، والشيعة قد اختصرت جميعها بشخص الخميني، استحوذ هذا المعصم العبوس على أرواح الشيعة وعلى عقول آخرين. كان بالنسبة للعالم لغزا أسرا بحاجة للكثير من التأمل والتفكير لفك أسرارها، وبالنسبة للشيعة

كان بطلهم الذي يشبه أئمتهم، وحلمهم الذي انتظروه طويلا، وعلى يديه سوف يستعيدون كرامتهم وحقوقهم المهانة، وبالهالة التي تحيط بصورته كانوا يلمسون أملمهم بالخلاص وهو يتجلى على الأرض. ومن كل هذا المحيط، كنت معنيا بعمي علي، أكبر أشقاء والدي، كان قد تجاوز الستين عاما، وكان حبه للخميني بلا حدود، يبدو لمحدثه وكأنه يعرف الخميني منذ سنوات طويلة، ومع مرور الأيام تلبسه هذا الحب، وغير مجرى حياته، فأطلق لحيته؛ ليس امتثالا للشرعية بل تمثلا بحبيبه، كان الراديو وسيلته لمعرفة أخبار «بلد المحبوب». وحين اشتعلت الحرب، اشتعلت روحه بكرامية كل ما يمت لصدام حسين، كان يراقب بشغف ما يقوله صدام والبعث عن الخميني «الدجال» حسب النعت الذي أطلقه عليه إعلام السلطة، لا يترك عمي أي فرصة تفوت دون أن يجادل القريبين منه، ساخرا مرّة وغازبا آلاف المرات، كنت اراقب تعلقه الغريب بالجدل، حيث تفضح قسّمات وجهه وانفعاله مع سيكارتته، ولهفته في «إفحام» الخصم حبا وإعجابا بسلطة رجال الدين في إيران. وكانت كلماته وحركاته أشبه بأموّاج أمنية باعادة سيناريو الثورة الإيرانية في العراق. واتسعت شهرة عمي بحبّ الخميني والإعجاب بثورته، لكنّه تلقى في أول أيام حبه درسا قاسيا إضطره ليس الى ضبط لسانه فقط بل بلعه من الخوف، كان ذلك بعد أسابيع قليلة على بدء الحرب، يومها زارنا عدد من أقاربنا لخطبة شقيقتي، ضمّ فريق الخطابة شقيق الخطيب، كان بعثيا في أول الخطى، ولم يعرف عمي حرارة انتماء قريبه هذا لحزب البعث، جلس الضيوف: استعجل عمي بفتح حوارهِ المفضل، وانهاه على صدام حسين سبّا وشتما، دون أن ينسى الحديث عن إعجابهِ بالخميني وثورته وسلطته، طلب منه قريبه البعثي أن يترك الحديث عن هذا الموضوع، إلا أن عمي استمرّ دون تردد أو خوف، احتدم النقاش، فانتفض البعثي بقوة ونهض من جلسته وأسرع بالخروج، بدا الجو مخيفا، لم تنجح توسلات الحاضرين في ثنيه عن موقفه، فوقف؛ ورفع سبابته مهددا ومتوعّدا وقال لعمي بانفعال حاد:

- راح تشوف أبو يوسف اللي يصير بيك.

يواصل الخبر لأهله، فكان شكرهم له وثناؤهم عليه، يصل الى «سابع جار» لذلك كان خوف أهلي مبرّرا، لم يكد يمضي يوم من دون أن يلام على استماعه للراديو، لكن عناده كان مضرب المثل.

كان ميلي لعّمي هو بمعنى من المعاني انشدادا لحلم الانعتاق الشيعي، ومثل كل الأطفال شكل محيطي وعيي ورؤيتي للعالم ولنفسي. كنت أرى نفسي كشيعي مقهور، وكانت هذه أوّل الحقائق التي لا يجادل حولها الشيعة، فهم ينظرون لتاريخهم باعتباره سلسلة من المصائب والنكبات أذاقهم إياها الحكام المسلمون، وبفعل صورة الخميني بعمامته السوداء التي تشير الى نسبه الهاشمي، تحطّمت سنوات القهر والمهانة، فهو سيحكم بشرع الأئمة ونهجهم ويحمي أرواح الشيعة ويعيد لهم كرامتهم وشعورهم بقوتهم، هذه الصورة الأسرة والمثالية يصعب تحطيمها والخروج من سحرها، لقد أزاح الخميني كل أنقال التاريخ التي ألقيت على الشيعة، حين حطّ امبراطورية كبرى وأقام بدلا عنها «حكومة الفقهاء الأتقياء».

أضافت الحرب درجات أخرى ليقيني بأن العالم كلّه يطارد الشيعة ويريد قهرهم والتنكيل بهم، فلماذا حارب صدام إيران؟ أليست دوافع العدوان هي كره الشيعة والخوف من أن يكون لهم مكان تحت الشمس. لم أعرف معنى فكرة تصدير الثورة، وهو الشعار الذي رفعه الخميني في لافطة ثورته ودولته، وأرعب صدام حسين الذي تولى رئاسة الجمهورية للتوّ، لم أعرف بعد أن السياسة أكثر تعقيدا من الشاعر البسيطة، وهي تعمل بعيدا عن العواطف، بل تتعامل مع الحقائق والمصالح والطموحات. كان الاختلاف بين أفكار السلطة وأفكار المحيط الاجتماعي شديدا ومحتدما، لكن كليهما لم ينميا أي شكل من أشكال حرية الرأي والفكر، أعداء السلطة كانوا بالنسبة لنا منزهيين ومقدسّين، الخميني، وحزب الدعوة، ورجال الدين في النجف، وعوائل «الشهداء» من المعارضين كانوا في نظر السلطة أعداء، في حين كان محيطي ينظر لهم بالكثير من الاجلال والاحترام، وبالنسبة لفتى في مقتبل العمر كان عليّ أن أبدو منحاذا ومتقبلا لما يمليه علي محيطي، وفي الوقت نفسه عليّ أن أثقل لساني بالكثير

من الأحجار كي لا أعلن صراحة أي رأي بخصوص «الأعداء» و«الأحبة»، أعداء السلطة هم أحبتي، وأحبابها أعدائي.

في أول سنة من سنوات الدراسة المتوسطة، ألزمتنا بارتداء الزي العسكري أيام الخميس من كل أسبوع، وهو يوم رفع العلم. كان هذا الفرض هو محاولة لخلق نوع من التواصل والعيش في أجواء الحرب وإبقاء الحماسة لها متوهجة في النفوس، ولا زالت تعلق في روعي الى اليوم رائحة البدلة الزيتونية الكريهة، التي أعطاني إيها شقيقي وجهزت لتلائم جسدي، كانت خشنة وتبعث سأمًا لا أقوى على تحمله، لكن بمرور الأيام تلاشى كرهها، لقد نجحت السلطة في مسعاها مع الصبية، فهم ومع الاستمرار في الخضوع لما تفرضه عليهم سيتناغمون مع إرادتها وتذوب بالتدرج أي رغبة بالممانعة أو الرفض، وفعلا لم تصبح البدلة الخاكي شيئًا طبيعيًا لا يثير أي مشاعر فحسب، بل أصبحت تشعرني بنوع من الانسجام والتّوحد مع المجتمع والسلطة، فأنا وصدام نلبس ذات اللباس، بلونه وفصاله لكن ليس بنوعية القماش طبعًا! تريد السلطة أن يعيش المجتمع قريبًا من الحرب، يتألف معها، يرقص لنارها، وليس عليه أن يتدمّر منها، أو يشعر بحقيقتها المدمّرة وطعمها المرّ، وكان شعار «كلّ شيء من أجل المعركة» طاغيا ومتحكما، وفعلا بدا وكأنّ كلّ الأشياء خلقت من أجل الحرب.

في السنة الثانية من الدراسة المتوسطة، تطوّر مسعى السلطة في تحويل اهتمامات الشباب المدني وتحديدًا طلبة المدارس نحو العيش في أجواء الحرب وتدعيم السلطة، ولكن هذه المرّة عبر دفعهم باتجاه لعب دور الجواسيس أو بعبارة أخرى تحويلهم الى «صبيان أمن». زار صفنا أحد الرفاق البعثيين، كان يبدو شخصا مهما، بالنظر لعدد الأشخاص المحيطين به وبضمنهم مديرنا، البعثي الذي قتل بعد 2003، الكلّ ينصت له باهتمام، تحدّث معنا حول «الحرب المفروضة» و«القيادة الحكيمة» و«أطماع الفرس المجوس» والى آخر أسطوانة الحديث الحزبي المكرّر والممقوت، طلب منا «الرفيق» أن نكون عيوننا وعونا للسلطة، قال وهو يضرب مثلا على شكل تعاوننا

مع السلطة، لو شاهدتم سيارة يقودها شخص غريب عن المنطقة، وتكرّر ذهابه وإيابه في الشارع، فقد يشكل هذا خطراً على أهالي الحي، فواقفوه وقلولوا له: من أنت؟ وماذا تريد؟ وإذا رفض الاجابة، فسجّلوا رقم سيارته وأوصلوه الى المنظمة الحزبية في المنطقة أو الى أي رفيق حزبي من جيرانكم أو معارفكم، كنت فرحاً بهذا التكليف، فهو يعني أنني أصبحت جزءاً من السلطة وهي تحتاجني رغم صغر سني، فاعتبرت من جانبي مراقبة السيارات الغريبة وتسجيل أرقامها، واجبا لا مناص من أدائه بأسرع وقت.

لم تمض سوى أيام معدودات على هذا التكليف «الأمني» حتى شاهدت سيارة تسير ببطء في الشارع، مضى صاحبها مسافة ليست بالبعيدة، ثم استدار عائداً من أمامي، فرحت بهذا الصيد الثمين، وقلت مع نفسي لقد وقع هذا الغريب في شرّ أعماله وسأكشف نواياه الخبيثة، أسرعرت الى البيت وأخرجت ورقة وقلما ووقفت لأسجّل رقم السيارة، شاهدني السائق فتوقف، نزل من السيارة، اقترب مني، وقال:

– ليش سجّلت الرقم؟

قلت له: الرفيق طلب منا.

– شك (مزق) الورقة .

كان صوته شديد الحزم ، مزقتها دون تردّد، ثم قال وعيونه تتطاير شرراً :

– طب (ادخل) جوّة (في داخل المنزل).

دخلت مسرعاً، وخائفاً، اكتشفت بعد زمن، أنه بعثي، وهو موظف حكومي، كنت جاسوساً فاشلاً فقد اصطدت شرطياً بدل الجاسوس.

في السنة الثالثة من الحرب، بدأت السلطة خطوة «عملية» في مجال كسب الشباب والصبيان الى صفوف حزبها، وهم الجيل الذي تسميه «جيل الثورة» وهو بالنسبة لها عجيبة سهلة وطبيّعة، جاءني أحد زملائي في الصف طالبا مني الحديث على انفراد، وهو بعثي بدرجة مؤيد، كانت عائلته قد انتقلت قبل أقلّ من سنة الى بغداد من ريف إحدى المحافظات القريبة، وسرعان ما انسجم مع المدينة، وحزبها، وسلطتها، ابتداءً

الكلام قائلاً؛ إن مسؤوله الحزبي طلب من مجموعته التي يرأسها، مفاتحة الشباب للانضمام الى صفوف الحزب، قالها دون مقدمات، قلت له أعطني فرصة لاستشير أهلي، لم أكن لأعرف ما فائدة أو مضرة الانتماء للبعث. إلا إنني كنت اشاهد الكثير من الرجال ومن مختلف الأعمار وهم يحملون دفاترهم ذاهبين الى المنظمة الحزبية القريبة منا، كان الأمر يبدو لي وكأنه طبيعي ومنسجم مع إرادة السلطة والمجتمع معا، لم يمانع أحدٌ من أهلي، ومن جانبي وجدت أن الرفض قد يكون مضرًا بعائلتي وربما سيضعوني في دائرة الشك والاستفهام فيما لو رفضت طلب الانضمام، كان الرفض مجازفة بالنسبة لي، وفعلًا أخذني زميلي الى مقر المنظمة وقدمني الى مسؤول حزبي، عارضاً عليه قبولي في الحزب، بعد أن أخذ قبل مدة أوراق التوثيق وهي الجنسية وشهادتها وعدد من الصور، جلست أمام الرفيق يخطبني الخوف، كنت مثل مسكين يراجع دوائر الدولة، عرف المسؤول البعثي أخوتي الكبار، وقال سنبت بأمر قبولك، بعد أيام قليلة كنت مؤيداً لحزب البعث، اجتمع بنا الرفيق المسؤول وهو خال أحد أصدقائي، وشاءت المصادفة أن يكون مثل زميلي الذي فاتحني بموضوع الانتماء وكسبني للحزب (عبارة كسبني للحزب كانت شائعة في أدبيات البعث وربما يسأل عنها البعثي بعد سنوات طويلة من انتمائه فيقال له: من الذي كسبك للحزب؟). كان «رفيقنا» قد جاء الى بغداد قادماً من الريف، كانت لهجة الريفية طاغية، فلا يقوى على الاستمرار في الحديث بلغة فصيحة فيترك للسانه حرية العودة الى أصوله الريفية، رسالته «التثقيفية» لا تتناسب ومؤهلاته البسيطة، وبعد بضعة اجتماعات في صفوف مدرستنا الابتدائية بدأ الأمر مملاً وسخيفاً غاية السخف.

كان الاجتماع لا يتعدى الحديث عن بضعة مفاهيم مموجة ومكررة، وتدور في أغلبها حول تمجيد الحزب وأفكاره، أما الحصة الأكبر فكانت مخصصة للإطراء على كلمات وخطب «القائد الضرورة» التي تصعق العقل والروح بسطحيتها وسذاجتها، أحاديث صدام حسين في التلفزيون تتحوّل الى موضوعات للمناقشة الحزبية، كانت المناقشة تضعها موضع الفكر العميق، وفي أحيان كثيرة كانت تعتبر شيئاً من النبوءة

والإلهام؛ تحلّل، وتدرّس، وتناقش، رغم سخفها.

قرّرت الهرب من الالتزام الحزبي البارد والممل، بعد أسابيع على ذلك أبلغت بضرورة الحضور الى المنظمة الحزبية للوقوف على موقفي! شعرت بورطتي، فالأمر لم يعد مزحة، تحدّث معي المسؤول بنبرة عنيفة، قال إنهم سيأخذوني ومعني آخرون فعلوا فعلتي في نفس المنظمة، الى مقرّ الشعبة الحزبية في منطقة العبيدي، لتوقيفنا بضعة أيام، اعتقدت أنه ليس جادا بتهديده، وأن كلماته هي «جرة أذن» فقط، ولكن حين انتهى الاجتماع خرج الجميع وطلب مني المسؤول البقاء في القاعة، أغلق عليّ الباب ووقفت أمام الشباك المطلّ على الساحة لعلّ هناك من يسمع توسلاتي، وبعد دقائق فتح المسؤول الباب وأخرجني ليعيد عليّ تهديده بصورة أكثر حدّة وجدّيّة.

عدّدت لذات السأم والاجترار، بقيت سنتين وأنا أشارك الحزب اجتماعاته، وفي مرحلة السادس الإعدادي وجدت الفرصة سانحة للهرب الأخير، كان عذري أنا وعدد من الأصدقاء أننا مشغولون بالدراسة والقراءة في مرحلة البكالوريا، وفعلنا لم نواجه بالتشدّد والتهديد الأول، لكن حزب البعث اكتشف طريقة مبتكرة ومخادعة لإعادة «القاتلين» من صفوفه، فقد أضاف لاستمارة التقديم الى الجامعات فقرة الانتماء الى البعث وعلينا أن نحدّد هل نحن بعثيون، ام مستقلون؟ عدنا خائبين الى المنظمة وبعد أخذ وردّ وممانعة و«رزالة» أيدت المنظمة كوننا بعثيين، وعدّدت الأزمة.

أقسى الضغوط النفسية تأتي من الكلام الكاذب والمنافق الذي يتبادله الطرفان، السلطة، والشعب، السلطة تقول إنها جاءت لخدمة الشعب وتسعى لراحته وسعادته وأن الشعب شجاع، ومخلص، وهو مثل أعلى في التفاني من أجل الوطن، ويحب ثورته وقائده ويفديهما بالروح والدم، ويقول المواطن إن القائد شجاع، وطني، مخلص، كفوء، يسعى لخير الناس وسعادتها، وإنه لا سواه يصلح للقيادة أبد الدهر، الكذب المتبادل كان الحقيقة الوحيدة التي تكمن في كلمات السلطة وخطب القائد، وفي حديث الناس، وتحت هذه الكلمات وخلف صوتها النشاز والزائف كانت هناك حقيقة صامتة، خفيّة، سرّيّة، لا ترى من حولها سوى سلطة غاشمة وشعب خائف

ومستسلم، أما في العلن فقد كان الوضع كما قال باسترناك عن أيام ستالين: « ليس للحقيقة وجود في الاتحاد السوفياتي ».

البحث عن صدق الإيمان بفكر البعث وعظمة القائد، ليس مهما للسلطة، المهم بالنسبة لها تركيز اهتمامها على الشباب وتحويلهم الى وشاة خاضعين لأمرها، وبغض النظر عن درجة الاعتقاد أو الايمان بفكر الحزب والقائد، علينا أن ندور مع رغبات السلطة ونحسن عميان، كان الابتعاد عن الركب أو المجموع أو الاستقلال السياسي أمرا يثير مخاوفنا أولا قبل أن يثير مخاوف السلطة، فالابتعاد عن القطيع يدفع بالوشاة نحو البحث عن الأسباب، وفي السنوات التي بلغ فيها الخوف من بطش السلطة حدّه الأعلى، هل يمكن أن يحتمل أحد مثلا، أن يقال إنه لا يحترم أفكار الحزب أو لا يؤمن بها لذلك لم ينتم للحزب رغم مفاتحته؟ إن مجرد الاحتمال

بامكانية أن تثار أسئلة من هذا النوع يكفي ويزيد للدخول مع الجموع الحزبية المجدّدة والمصفّقة، لذلك كان الحديث عن وصول أعداد البعثيين في تلك السنوات الى الملايين ليس كاذبا أو مبالغا فيه، فهناك من انتمى عن إيمان ورغبة حقيقيين، وهناك من دفعه الخوف من سلطة البعث الى الدخول في تنظيماته، وهناك من أراد الحفاظ على عمله ومكاسبه عبر الانتماء، وهذه الدوافع شكلت في النهاية رقما كبيرا، الرقم المليونى في النهاية كان إعلان انتصار البعث على المجتمع، أو إعلاننا بأن البطش قد بلغ الكمال.

أي شخص استحوذ على خيالي وفكري؟ هل كان صدام أم الخميني؟ في أي أرض وقفت؟ هل كنت صداميا أم خمينيا؟ مع أيهما انسجم عقلي وتعاطف؟ إذا لم يكن معقولا أن يشكل طفل صغير لنفسه موقفا أو رأيا نهائيا وجادا في قضية سياسية بالغة التعقيد وتتداخل فيها العواطف والحقائق، فان هذا يعفيني بالتأكيد من مهمة الخوض في هذه القضية حين اتحدث عن الطفولة، ولكن ما الذي جرى لهذا الموقف والخيار في رجولتي، اعترف أن عقبة مثل هذه ليس سهلا علي اجتيازها، فبين رغبات المحيط ومغذياته وأفكاره وبين بطش السلطة وسياستها ومسايعها وأساليبها كنت

اتلمّس طريقي وأقلّب أفكاري، فتارة وضعتني صورة الخميني أمام الأمل بنهاية العذاب والشقاء الشيعي، وتارة أجد نفسي ساخرا ورافضا لكل ما حمل من أفكار بالية لا تتلاءم مع روح العصر التي يكتنفها احترام حقوق الإنسان، ولا مع الإسلام نفسه، لقد كنا نعيش لحظة يمكن أن أسميها لحظة الذروة، كان صدام يشكل ذروة البطش في العالمين العربي والإسلامي. ومن جانبه يشكل الخميني ذروة الأمل، وبين الذروتين كنّا ندور ونتلمّس المصير، لا أدري الى أي حدّ يمكن أن أكون مبالغا حين أقول إنّنا كنا نعيش لحظة تاريخية تتعدّى حدود العراق الى سائر أرجاء العالم، فصدام والخميني غيرا وجه الشرق ومساره السياسي والثقافي والاجتماعي الى أبعد حدود التغيير.

ملمس الحرب

يمة بعربي يغني المدفع طول الليل
يمة البارود من اشتمه ريحة هيل
من أغاني الحرب

مشاهد الموت في الحرب بالنسبة لصبيّ، ليست حدثا عابرا، رؤية الحزن في وجوه الناس وأهل القتلى تحفر في الذاكرة أثرا يصعب محوه، بدأت تلك المشاهد من رؤيتي الأمهات وهن يصرخن أمام توابيت أبنائهن الذين قتلوا، والآباء وهم يتنقبون بـ«اليشماغ» ليخفوا دموعهم خوف أن تنهشم صورة رجولتهم، لكن شيئا فشيئا حدث تغير على هذا الصعيد. فخلج الرجولة من الدمع كان أول أعراف المجتمع التي حطمتها الحرب. كنت أشاهد غزارة دموع الأمهات، لكنني لا أقوى اليوم على أن أحصي مرات مشاهدتي دموع أمي، أما أبي فلم يجتاحه التغيير وظلّ شحيح الدمع.

نزعت الحرب عني ثوب الطفولة وأحلامها ونشوتها، وألبستني ثوب الرجولة ومخاوفها وأسئلتها، ليست أحاديث الكبار أو برامج التلفزيون أو نشاط الحزب في المدرسة هي الوسائل التي علمتني معنى الحرب، كانت هذه كلها لغوا لا معنى له، ولم ترسم مشهدا واحدا مما يرسمه مركز شرطة قريب من بيتنا، كان أقدر من أي صورة تلفزيونية أو حديث، على تقديم معنى ملموس للحرب. في مركز شرطة «الكمالية» تُسَلَّم جثث قتلى الحرب لأهاليهم، لم يكن هؤلاء من أهل حيننا فقط، بل من مناطق أخرى كثيرة، تمتد الى حدود محافظة بعقوبة. يأتي أهالي القتل، نساء، ورجالا، وأطفالا، يرافقهم جيرانهم أو أقاربهم، يتقدمهم أحيانا شرطي كان قد ذهب لإبلاغهم بان ولدهم «الشهيد» يرقد جثة أمام باب الشرطة، يغطي تابوته علم العراق، يأتي الأهل مبعثري الخطى ومغبري الوجوه، كأنهم خرجوا للتو من القبر. والدة القتيل عادة ما تكون آخر الواصلين، فخطاها لا تقوى على السير، تن، تصرخ، تحفر بأظافرها أخاديد على خدّها، يختلط دماها بدمعها، تركض فاتحة يديها على امتدادهما، كأنها تتخيّل ولدها حيّا وتريد احتضانه، يجلس أهل القتيل حول التابوت، يرمون أجسادهم عليه وتحيط بهم الناس.

بسبب قرب منزلنا من مركز الشرطة كنت حاضرا دوما في قلب المشهد، وحين ينتهي، تظلّ أصوات المكان تتردّد في داخلي، وتجبرني على البحث عن تفسير لما يجري، على محاولة فهم هذه الأهوال، يتكرّر المشهد وتتراكم أوراق الإجابات الفارغة، لتصبح ثقيلة على رأسي الصغير، لا أعرف كيف أحاصر مشاعري وأمنعها من الانفجار، أو كيف أطارد الناس، أو اللغة، أو فكري الصبباني، لعلها تمنحني بعض السكينة. لم يكن وعي أهلي أو درجة إحساسهم بخطورة ما اشاهد يدفعهم لمنعي من الذهاب، لم أسمع رفضا أو تأنيبا منهم، مشاهدتي للأهوال كانت بالنسبة لهم عادية جدّا.

الآباء يدفنون أبناءهم؟! كثيرا ما سمعت استنكار الناس لهذه المفارقة المؤلمة، إنهم يعتبرونها من علامات القيامة ونهاية الكون، كانوا يردّدون بايقاع حزين مقولة يزعمون أنها صادرة عن الائمة: «يأتي زمان يدفن الآباء أبناءهم».

الدين يحيط بما يمرون به، يهدئهم، يطمئنهم، لكنه يخيفهم حين يستنطقونه حول المصير المفجع الذي ينتظرهم، كان موت أبنائهم أكثر من قدر مكتوب، كان علامة من علامات قيام الساعة، إنه توعد الله لدماءه، أو أبطال مسرحه المكلفين فقط بمهمة تحذير العالم من النهاية. إن دفن الآباء لأبنائهم يتعارض مع قانون الطبيعة لكنه ينسجم مع قوانين الحرب وشروط السياسة ورواية الدين.

يدفن الناس موتاهم من قتلى الحرب، ويقيمون مجلس عزاء وسط الشارع، يكتبون باللون الأبيض على قماشة سوداء توضع على جدران البيت آية {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} (آل عمران 169) الشهيد البطل فلان بن فلان، وبرغم أن أكثر القتلى هم من الشيعة وهم يكتبون فعلا كلمة الشهيد في النعي المعلن، إلا إنهم لا يعترفون بصفة الشهادة لأبنائهم، فللشهادة في الموروث الشيعي معنى آخر، وشروط أكثر تعقيدا مما يقع في هذه الحرب، فهي مرتبطة بالإمام الحسين وأصحابه، لذلك يصعب أن يقال عن القتلى من المسلمين إنهم شهداء، فالحسين لدى الشيعة هو الشهيد وكذلك من هم على دربه، وعلى الآخرين أن يبحثوا لهم عن صفة أخرى تقرّبهم من حياض الله .

كنت أقرأ كلمات النعي المدوّنة على الجدران وأترك لنفسي حرية السؤال عن صدقتها وحقيقتها، كيف يكون الموتى أحياء؟ كيف يرزقون؟ هل ماتوا في سبيل الله؟ أعرف أنهم قتلوا دون رغبة منهم بالموت، وأنهم سيقوا الى المحارق بأمر الحكومة، فأين الله من لعبة السلطة والقوة؟ وأين البطولة في من مات في الحرب مكرها، تاركا أطفاله لليتم والجوع والتشرّد؟ البطولة والشهادة كانتا أكثر الأشياء كرها في نفسي، لن أكون بطلا أو شهيدا، هكذا كنت اطمئن نفسي، فالأمر خدعة وسرقة لأغلى ما يملك الإنسان. وظلّ هذا الهاجس يعيش في داخلي حتى بعد أن انتهت الحرب مع ايران بسنوات طويلة، ورغم أن خدمتي العسكرية لا تزيد عن 18 شهرا إلا أن هاجس الخوف من العسكر ومن «البطولة» و«الشهادة» دفعني الى الهرب من الجيش حين استدعيت له العام 1994، وهو ما شكّل فاتورة باهظة ساضطر لتسديدها من الألم والصحة.

لم تكن مشاهد قتلى الحرب مع إيران هي أول ما حفر في ذاكرتي، بل كان هناك مشهد سبقها بسنين، ففي ليلة من ليالي صيف العام 1974 أفرعنا صراخ يصدر عن بيت قريب منا، خرجنا لنشاهد سيارة عسكرية تحمل تابوتا يلفه العلم العراقي، فيه جثة لجندي شاب اسمه خالد قتل في «الشمال»، التسمية الشائعة بيننا لمناطق الكرد، كانت الحرب حينها تدور بين الجيش العراقي و«العصاة»، وهي التسمية الرسمية للمقاتلين الكرد (البيشمركة)، الذين حملوا السلاح بسبب ما تعرّضوا له من قمع وتنكيل من قبل السلطات المتعاقبة على حكم العراق.

«الشمال» و«العصاة» هما كل حصيلة الناس حول الكرد، أو ما تريد السلطة تكثيفه عن ذلك، مختزلة إياهم بصورة «لصوص» قابعين في أعلى الجبال تسهلا لمطاردتهم وطمرهم.

ظلت «نعاوي» أم خالد وقربياته تدوي في أذاني حتى اليوم، كن يرددن بصوت حزين ومفجوع ويلطمن على صدورهن بقوة:
خالد يا بو عيون الخضر جابوه ملفوف بعلم .

يعدن ترديدها مرات ومرات، لم أعرف ما الذي جرى لخالد؟ ولماذا انتهت حياته بهذه الطريقة المفجعة؟ فعمري لم يتجاوز الست سنوات لكنّي عرفت أن الحكومة قد تكون سببا في قتل الناس وهذا ما انطبع في ذهني ورسخته الأيام .

حين وقعت الحرب كان من السابق لأوانه أن تعرف الناس دوافعها وأسبابها ونتائجها القريبة والبعيدة على البلاد، كانت المشاعر مزيجا من الدهشة والخوف والحماس، وقد حشدت السلطة طاقاتها كافة لإقناع الناس بعدالة الحرب وجدواها، تعاملت معها وكأنّها الحلّ الوحيد لإنقاذ العراق من تبعات زلزال إيران، تقول الرواية الرسمية إن نوايا «الفرس المجوس» لاحتلال العراق كانت واضحة، وحقيقية، وهذه هي القصة الكبرى التي أشعلت الحرب، لم يكن تصديقها سهلا، على الأقل بالنسبة للأكثرية من الشيعة، ومع انطلاق الصواريخ ومسير الدبابات لم يعد الحديث عن سبب اشتعال الحرب ذا معنى أو جدوى، وأصبح البحث عن طرق لتفادي نتائجها بالنسبة للسلطة

أو بالنسبة للناس هو الشغل الشاغل، السلطة تريدها أو تتوقعها أو تتمناها خاطفة وناجحة، والناس تبحث عن وسيلة للابتعاد عن نيرانها وحرافئها. ولم يكن أكثر الناس تشاؤما يعتقد أن الحرب قد تستمر أبعد من أسابيع أو ربما أشهر قليلة في أسوأ الظروف، وحتى بالنسبة لصدام حسين ومساعديه، كان الاعتقاد أن ضربة قوية وسريعة للجيش الإيراني كافية لحسم الحرب لصالح العراق، كانوا يعتقدون أنهم حين يكسبون أول ضربة في الحرب، ستعلن إيران استسلامها ورغبتها بإنهائها، فهي تعيش فوضى الثورة، وصراعات دموية على السلطة، وتفكك في أوساط قواتها المسلحة والأمنية وفقا لذلك كان مفترضا للحرب أن تكون خاطفة. لكن ماذا لو استمرت سنوات طويلة؟ من يملك زمام البداية؛ هل سيمسك بالضرورة زمام الخاتمة؟ مع مرور الأيام والأسابيع والشهور أمست نهاية الحرب أملا بعيد المنال.

كان عليوي من أوائل الضحايا الذين أعرفهم، كان جارا لنا، وهو موظف حكومي وحزبي بدرجة متدنية، بعد أشهر قليلة على بدء الحرب، التحق بها عن طريق ما كان يسمى بقاطع الجيش الشعبي الذي ضمّ عددا من البعثيين، أغلبهم ذهب للحرب بملء إرادته، كان ذلك قبل أن يجبر حزب البعث فيما بعد أعضاءه وغيرهم على الالتحاق بها وبكل وسائل الإكراه والضغط، نعم، الشيء المؤكد أنه في الأشهر الأولى للحرب لم تجبر الحكومة، أعضاء البعث، أو موظفيها، أو بقية الناس على الالتحاق بقواطع الجيش الشعبي، كان الوضع على جبهات الحرب يشهد تفوقا للجيش العراقي، الذي دخل في عمق الأراضي الإيرانية، واحتل مدنا عديدة، ولم يكن هناك نقص في أعداده أو عدته، قد يدفع الى سوق الناس بالقوة الى الحرب كما جرى بعد ذلك.

التحق عليوي بساحة الحرب، كانت معركة «ديزفول» تدور يومها بضراوة داخل الأراضي الإيرانية، وحين وصلها هو ورفاقه لم تسعفهم خبرتهم الضئيلة في الخلاص أو الهرب، فوجدوا أنفسهم وسط النيران تماما، وسقطوا بين قتيل وأسير، وكان من بين الضحايا أحد أقربائي، ممن عرفنا بعد وقت قصير أنه وقع في الأسر، لكنني رغبت بالكلام عن عليوي لأن مصيره ظل مجهولا حتى الآن، قيل إنه أسير، لكن لم

يصل لأمله ما يؤكد ذلك، ربّما هو ميت، لكن لم تصل جثته لعائلته. اختفى تاركا وراءه أطفالا لا يتعدى عمر أكبرهم العشر سنوات، وامرأة ستعيش بقية عمرها بين الترمل، والزواج، وبين الفقر، والعيش الكريم، وبين الانتظار واليأس، تلاشى عليوي مخلّفا وراءه بيتا من الطين وعائلة حائرة . مصير عليوي عني لنا أن الحرب كثرت عن أنيابها، إنها نارٌ، وليست نزهة، أو حماسة، أو لعبة، لن يكون عليوي ضحيتها الوحيدة، بل سيغدو رقما بين آلاف الأرقام، وذكرى مفجعة بعيدة، ارتحل عليوي دون أن يبكيه أحد، لم يمّت، ولم يأت، كان بين الحياة وبين الموت، بين الوجود والعدم، مثل آلاف الضحايا غيره.

وشينا فشيئا بدأ حجم الخوف من الالتحاق بقواطع الجيش الشعبي يتّسع، وازدادت المعاناة من نتائجه المرّة. إحدى قريباتنا كانت متزوجة من جارنا، وكان أكثر ما يثير رعب هذا الجار هو أن تجربه منظمة الحزب على الالتحاق بالحرب في ما يسمى بقواطع الجيش الشعبي، كان يعمل في تأسيس شبكات المياه والمجاري المنزلية، وحين تبدأ المنظمة الحزبية بالقبض على الرجال لتزجهم في الحرب، كانت أعصاب جارنا (أبو كفاح) تزداد توترا، ويفقد سيطرته على انفعالاته. في بعض الأحيان كان يهرب الى بيت شقيقته التي تسكن في محافظة أخرى، أو يبقى في عمله حتى وقت متأخر من اليوم، أو يفعل أي شيء يراه مجديا في ابتعاده عن عيون البعثيين، وفي ليلة زارنا فيها، دبر له ابن عمي (يوسف) وكان بارعا في مجال الراديو، مزحة ثقيلة، فربط الراديو بلاقط صوت وضعه في غرفة مجاورة ووضع الراديو في الغرفة التي يجلس فيها «أبو كفاح»، وحين يتحدث (يوسف) أمام لاقط الصوت كان صوته يبدو وكأنه ينطلق من إذاعة، وبعد أن استقر أبو كفاح في جلسته، طلب منا شقيقي المتواطئ مع ابن عمي، أن ننصت الى الإذاعة التي قال إنها ستذيع أسماء الأشخاص المدعويين الى قاطع الجيش الشعبي وعناوين بيوتهم، تسمر «أبو كفاح» على فراشه، بدا مرتجفا، وتكاد أنفاسه تتوقف، وبرغم أنه لم يسبق للحكومة أن دعت الناس عبر الإذاعة للالتحاق بالجيش الشعبي، إلا أن اللعبة انطلت عليه، وبدأ «يوسف» بقراءة الأسماء،

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، واستمر في قراءة الأسماء وأطال فيها، وكانت كلَّها من منطقة الكمالية، ليزيد من ترقب (أبو كفاح) وتوتره، ومع كل اسم تزداد نبضات قلب المسكين، وأخيرا نطق باسمه، محسن محمود غويلي، أطرق الرجل، ووضع وجهه بين يديه، وأخذ يردّد بصوت عالٍ مناجيا نفسه:

— يا بوية يا كفاح، يا بوية يا كفاح.

بكثير من العناء تماسك ليمنع دموعه من النزول، ثم انطلق لسانه في سبِّ حزب البعث، وصدام، والحرب الملعونة، وحين دخل ابن عمي الغرفة لم نتمالك أنفسنا من الضحك بصوت عالٍ، انفرجت أسارير (أبو كفاح)، بعد أن عرف اللعبة، لاعنا يوسف على مقلبه الخبيث.

اتخذت الحرب طابعا عصريا عند انطلاقتها، فقد أمرت الحكومة الناس باستخدام وسائل التعقيم، ومنها صبغ أضواء السيارات باللون الأزرق، وتجنّب استخدام الإنارة، أو الخروج الى الشارع أثناء الغارات الجوية، ومنحت مبلغا من المال لأي عائلة ترغب ببناء ملجأ في منزلها، على أن يشيد بمواصفات خاصة، كان أشبه بسجن صغير، مبني من الاسمنت، ولا يحوي سوى شباك صغير قريب من السقف. وستعين ملاجئ الحرب الناس أيام الحصار الاقتصادي، إذ سيهدمونه ويبيعون ما تحويه من الحديد. كان ثراء السلطة يتيح لها القدرة على التخفيف من وطأة الحرب على الناس، وقيل يومها إن خزينة الدولة تحوي 40 مليار دولار، وهو مبلغ هائل في أسعار تلك الحقبة، ولا يكفي فقط لسدّ تكاليف الحرب بل لترجيح كفة الانتصار فيها أيضا، لذلك حظيت عوائل ضحايا الحرب خلال السنتين الأوليتين بنوع من الاهتمام من قبل السلطة، فكانت تمنحهم بيتا وسيارة حديثة، يابانية الصنع تسمى في السوق بـ «كرونا 81»، لم تكن العوائل في بداية الأمر سعيدة بهذه الهدية، فهي في نظرها أشبه برشوة أو مقايضة روح الشخص بألة، لذلك بدت خالية من الأخلاق وغير مقنعة، ربما كان رفض السيارة تعبيرا عن رفض الحرب، لذلك امتنعت الكثير من العوائل عن تسلّمها في أول الأمر، ولكن حين تفشّى الموت وازداد عدد الضحايا، تحوّل رفض

العوائل الى «صراع» بين أفرادها. عندها بدأ انحدار التماسك العائلي وشخّ التعاطف الإنساني، هكذا انتقل مسرح الحرب من الخارج الى الداخل، من ميادين القتال الى نفوس البشر.

ذات يوم دخل والدي وهو يلعبن رجلا من أهل المنطقة. كان قد جالسه بعض الوقت في المقهى، قال والدي إن الرجل سأله :

— شلون أسوي معاملة السيارة؟

كانت جبهات الحرب ساعتها تشهد معركة ضارية، يشارك ابن هذا الرجل فيها، لم يكن قد قتل بعد، لكن سؤاله اللثيم كان يخفي في نظر والدي أمنية بان يقتل ولده في المعركة، لم يكن مباليا بمصيره، وكان الانشغال بالسيارة دون الابن مستهجننا من والدي وممن سمع الحكاية، لم يجبه والدي باي كلمة كما قال، واكتفى بالصمت لكنه تألم من جاره، فكيف يمكن لأب أن يسأل هذا السؤال؟ ليس كل الذين تسلّموا سيارة «الشهيد» كانوا فرحين بها كئمن لدم أبنائهم، بل قبل البعض بها خوفا من أن تفسر السلطة رفضهم للتسلّم تفسيراً «سياسياً»، بمعنى أن يقال عنهم إنهم يرفضون الحرب، أو يعترضون عليها، وهذا وحده كاف لقبولها.

خلال الحرب قتل واخفى الكثير من الأقارب والاصدقاء والجيران، وكم تمنيت أن أكتب شيئا عن قصصهم وما جرى لأهاليهم وأحبّتهم، إلا أنّي أجد نفسي عاجزا عن تذكّر ما جرى مع هؤلاء المساكين، وقد لا تكون الذاكرة هي وحدها السبب، بل يمكن أن يقف فقدانني للاحساس لكثرة القصص، مانعا عن تدوين مشاهداتي لنهايات الذين أعرّفهم، أعداد الضحايا الكبيرة لا ترهق الذاكرة فقط بل تضعف الإحساس بالتعاطف أيضا، مجازر الحرب تستحيل في النهاية أرقاما، وحين يصبح عمرها ثماني سنوات تعتبر كافية لتحويل قلب الانسان الى قالب جليد.

كنت اتخيّل لحظة نهاية الحرب، فأجد نفسي أعيش صدمة عاطفية مثل التي نشاهدها في الأفلام الرومانسية، سيفمى علي، أو ربما تتوقف لبعض الوقت حواسي. لم اتخيّل ما هو أئمن وأغلى من نهاية الحرب.

يوم الثامن من آب عام 1988، وقبل منتصف الليل كان التلفزيون يبث أغنية للمطرب اللبناني عصام رجي، حين توقف البث الاعتيادي وظهر المذيع مقدار مراد، ليقرأ بياناً للقيادة العامة للقوات المسلحة، سمّي ببيان البيانات أعلن نهاية الحرب، هل هناك عبارة في الكون أجمل وأعظم وأطيب من «نهاية الحرب»؟ فجأة أصبحت الأمنية البعيدة في أحضان الناس. لم تكن لفرحتي حدود، شعرت أن أرجلي تتراقص وحدها، وأجهدت نفسي كي لا أرقص في الشارع، شعرت أن الحياة قد عادت الى الناس، الأحزان والمخاوف ستتوقف ولن تضاف لجيش الأرامل والأيتام أعداد أخرى.

خرجت من البيت لأشارك الأصدقاء والجيران لحظة طال انتظارها ثماني سنوات، استمر فرحنا لحدود الفجر، شاهدت نشوة ما حصل في وجوه الشباب، هم لن يكونوا ضحايا الحرب بعد اليوم، فقد قبرت الى الأبد ومضى سوادها بعيداً، ومن حقهم أن يرقصوا بعد أن توقفت قوافل الزاهيين الى المحارق، جبهات الحرب التي زرعت بالألغام ستغمرها المياه، لتزرع بالنخيل والفواكه، هكذا عنت النهاية، بعد الحرب سنموت مثل كل البشر موتاً طبيعياً.

لكن المفاجأة أن لحظة نهاية الحرب لم تكن أقلّ قسوة من الحرب نفسها، هل يعقل ذلك؟ أحزان الخاتمة كانت أكثر كثافة وقظاظة من كل ما جرى خلال الحرب. فالوجوه الباسمة لم تسد وحدها مشهد الثامن من آب، بل كان هناك الذين فقدوا أحبّتهم في الحرب، وقد غطت عيونهم سحابة معتمة، وحين تذكروا وجدوا في أحضانهم رماد الحرب، اضطرتت لحبس مشاعر الفرح أمامهم احتراماً لآلامهم. كانوا عقبة أمام نشوتي، وكلما ظهرت فرحتي بسلامة أشقائي وأقاربي وأصدقائي، كلما عادت الى الاختفاء وأنا أرى عيون القتلى وهي تحدّق بي، وتأخذني الى حيث لا أريد، الى صراع يعتمل في نفسي بين مشهدين متناقضين تماماً، مشهد من بقي حياً ونجا، ومشهد من قتل أو فقد دون أي أثر، ومع الوقت لم أعد أشعر بطعم الفرح الذي تذوقته قبل قليل، وكان دهرًا طويلًا قد مضى عليه، لقد نسيتته تماماً، وحلّ بدله شيء آخر، هو لعنة الأسئلة وصوتها المدوّي في ذهني، اختلطت المشاعر على نحو مفاجئ، كنت أخاف أن

ألوث فرح الناس الأبيض بشيء من سوادي، لماذا جرت كل هذه الأموال؟ لماذا سحقت الملايين من الناس في إتون حرب لم نجد لها معنى، أو مغزى، أو مبرراً؟ هل سنمحو كل ما مرّ بنا ونعود الى أنفسنا ونحن طاهرين من رجس ما حصل؟. لماذا انتظرنا ثماني سنوات لتنتهي حربٌ كان يمكن أن تتوقف بعد أشهر قليلة؟ سيقول آلاف اليتامى إن آباءهم قتلوا في الحرب لكنهم لن يستطيعوا أبداً أن يعرفوا حقاً لماذا قتلوا؟ ولأي هدف سفكت دماؤهم؟

لم اكن أعتقد أن انتظاري المرير والطويل لنهاية الحرب سيكون بهذا الطعم الحاد والمتناقض، وأن مذاق السلام الذي قارب المحال سيكون ممزوج الطعم، حلوا و مرًا، مفرحاً ومحزناً، كلّ الأسئلة الموجلة حول الحرب سيحلّ استحقاقها في الساعات الأخيرة، الأسئلة التي ألقيناها في الزوايا المهملة، خرجت لدى البعض مثل الوحش وهي تبحث عن إجابات مريحة لن تأتي. في حين اكتفى آخرون ببهجة نهاية الحرب غير مصدقين ولا معنيين. لكن هل انتهت الحرب فعلاً؟

عبيد

الصبيبة طيِّعون، باستطاعة مجتمعهم — قادتهم
وأبائهم — أن يشكّلوا درجة اعتناقهم الرأي القائل إن
الرجل صلب فقط، جندي فقط .

تيودور نادلسون
«مدرّبون على القتل»

جاري وصديقي، يكبرني بثلاث سنوات، رفته وعذوبة روحه وسلامه الأبدي مع
الإنسان والحيوان تشدّني له وتجعل التقرب منه فرصة للفرح والأمان، ولأن الطبيعة
ترمي أحيانا ألوانا من الألم، كان والده هو الوحيد الذي لم يستطع روح ولده العذبة،
حتى لكأنه أخذ من قلوب الناس كل الاحتقار وصبّه على ولده، فكان أكبر معذبيه.
ولكي تقسو الطبيعة أكثر جعلت عبيد وحيد والديه. يمتلك والده مقهى لا يحوي
سوى بضع «قنفات»، تعبر قلتها عن تردّد الناس في تقبل طريقتة الفجّة في تقديم

حين يتحدث مع امرأة، ليست فقط سمرة وجهه وقصر قامته هما من ألبساه ثوب الخجل، بل كانت طفولة روحه التي ظلّ حبسها تعيق دخوله دنيا المراهقة التي بلغها مع بدء الحرب، كانت الحرب بالنسبة له فرصة للنجاة والحياة معا، كيف يمكن للنار والحديد المحترق أن يفتحا أبواب الأمل والحياة؟ لماذا استعاض بنيران الحرب عن نار الهوى والحبّ؟

أذنت طبول الحرب بنهاية يوميات تعذيب والده له، فمعها سيملاً جيبه براتب الجيش ويحرم والده من فرحة المنّة وتصنّع الجميل معه، ويقوّيه على الوقوف بوجهه، وهو يلبس الخاكي سيقول إنه أصبح رجلا لا يملك والده حقّ أو حرّية إهانته، الحرب عنت له الرجولة والتحرّر من سلطة الأب لكنه لم يكن ليصدق أنها ستحرق طفولته وتسحق أحلامه، هرب الى الحرب تاركا والده يملأ إبريق شايه بالغضب الذي كان يصبّه على جسد ولده الوحيد، حمل السندباد جرار زيت كهربانة وصبّه على والده ماضيا نحو الحرب.

كبر عبيد مع الحرب، وقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره ترك الدراسة واحترف الجيش، يومها أغرت السلطة الشباب بالتطوّع للقتال عبر منحهم سيارة بالتقسيت وقطعة أرض مجانا، مضت أربع سنوات على الحرب، لكن الناس تقول إنها قد بدأت للتوّ، فالمعارك تطحن الشباب وتزداد ضراوتها كلّ يوم، نجح أصدقاؤه في إقناعه بأن الأمل بحياة طبيعّية قد انتهى، كنت شاهدا على حديثهم وهم يبرّون تركهم للدراسة والتوجّه الى الجيش، كانوا مقتنعين بفعلتهم، وكنت أسأل نفسي: لماذا يمضون بأرجلهم نحو المحرقة؟ كيف لا يخيفهم الموت؟ كيف يقامر الإنسان بحياته؟ طالما حسدتهم على جرأتهم الشديدة لكني لم أخفِ خوفي عليهم، فالحرب ليست لعبة، ولا أعرف كيف أنها بدت لهم كذلك .

علاقة عبيد بأصدقائه الذين أقنعوه بالتطوّع في الجيش كانت من طبيعة نادرة، كانوا شلّة من المشاكسين، لا يمرّ يوم دون أن يخوضوا معركة شرسة، يفتعلونها بسهولة مع مجاميع أخرى من الشبان الوقحين في المنطقة، لم يكن عبيد شريكا لهم

في أفعالهم العدوانية، فهو يهرب دائما من ساحات معاركهم، يختفي بسرعة البرق مع أول بادرة لمعركة، كان يبتسم وهو يطلق ساقيه للريح، ثم يقف أمام بيته منتظرا النتائج. لم يعاتبه أحدٌ على فعلته «الشنيعة»، فهم يعرفون أن «جنبه» هو حصيلة طبيعة مسالمة. وكان في كلِّ درجة من درجات كرهه للعنف يرتقي درجة في عبادة السلام، كان يلقي على أصدقائه سحرا لا يقاوم، لم يدع البطولة والشجاعة، وحين تنتهي المعركة يتحوّل عبيد الى نكتة، كل منهم يروي ما شهد من هروبه السريع، يسخرون منه لكنه لم يكن معنيا بما يقولون، فقد خلق كي يهرب من القسوة، ولم يطلب منه أن يكون غير ما هو عليه، لكنهم ارتكبوا معه أكبر الخطايا حين نجحوا في حمله على التَطَوُّع في الجيش، لم يقدرُوا حجم ما فعلوا به، إنهم رموا ومن دون رَأْفَة قلب طائر السلام المستقر بالحجارة فسقط صريعا وسريعا .

أكمل عبيد دورة تدريبية ببغداد، والتحق بجبهة الحرب، كان مزهواً بلباسه العسكري، ومسدسه، مضى عام على دخوله الحرب، ومع كلِّ إجازة يمضيها بين أهله واصدقائه، يغطي الحزن ضحكته الساحرة، عرف أن فعلته كانت نزوة لم ينجح في تقدير نتائجها، كان يلوذ بالصمت أحيانا أو يندب حظّه العاثر وحماسة فعلته، الصمت والسكون جعلاه أشبه بالمجنون .

كنت عائدا من المدرسة، حين اقتربت من منزل عبيد لأسمع صراخ الناس وبكاءهم، وهم يقفون أمام البيت وداخله، البعض كان يجلس على الأرض، آخرون وضعوا رؤوسهم على حائط المنزل تاركين لدموعهم النزول بغزارة، دخلت وسطهم ممنياً نفسي أن يكون الميت أي إنسان غير عبيد، ليكون أباه أو أمه، لكن البكاء المرّ كان يعكس فجاعة أكبر من موت عجائز، عرفت أن حياة عبيد قد انتهت، وأنه ودع أحزانه وأصدقائه وكرة القدم الى الأبد.

بعثر عبيد رأسه التي لم تقو على تحمل أثقال هذا العالم، لم يقتل عبيد جسده قائده وظلمه بل قَتَلَ والده معه، وبرصاصته التي أدخرها لنفسه قتل الحرب وقَتَلَ كلَّ من أسهم بصياغة مصير لا يشبه طبيعته.

لقد صَحَّح عبيد خطأه، ارتحل، تاركا أمه العجوز تجلس أمام باب البيت سنين طوالا وهي تلف رأسها «بفوطتها» السوداء الكالحة، تبحث عنه بيننا، ترمقه بين المارين، والضاحكين، والمهاجرين، والمنبوذين، وحين ترانا تنهمر دموعها، عيونها الصغيرة استقرت عند لحظة الحيرة مما فعل بها وحيدها، حزن ممتزج بالحيرة والعتب، فاي طعم هذا الذي يعلق بفمها؟

لم تكلمنا يوما، نحن بقايا ولدها الوحيد وذكره التي لم تغب، فكيف يمكن لها أن تملك شجاعة تذكر عبيد والحديث عنه وهو الذي قتل نفسه دون أن يلتفت لها؟ وبعد مقتله أغلق أبو عبيد المقهى ولاذ بالصمت ما بقي له من العمر، كان جرحه بالغ الألم، تحتبس عيونه بالدمع طوال اليوم، تمضي الى آخر المدى حزينه، ساخطة، كأنه يعيد شريط حياته وعلاقته مع وحيدة، ويحبس صرخة تفتت ما بقي له من قوّة، أدخر عبيد شجاعته الى آخر لحظات حياته ولكن ليس في مواجهة الحياة بل لإنهائها، كيف استدرج الى الموت؟

وسط الناس المحيطين بالبيت روى الجندي الذي أوصل الجثة الى مركز الشرطة، ومنه الى منزل عبيد، وهو زميله في وحدته العسكرية، قصة انتحاره. قال إن وحدته انتقلت من جبهات الحرب في الشمال الى الجبهة المقابلة لمحافظة العمارة في الجنوب، أرهق الطريق الطويل الجنود، وحين وصلوا الى مكانهم الذي سيستقرون فيه نزل عبيد واتجه الى سيارة المياه المخصصة للضباط ليغسل وجهه. شاهده ضابط كان سيئ الخلق وقاسيا مع عبيد الى حدّ كبير، وكثيرا ما أسمع كلمات نابية على مرأى من الجميع.

صرخ الضابط وسبّ عبيد سبّا مقذعا لأنه استخدم الماء المخصّص للضباط، فتركه عبيد واتّجه الى السيارة التي فيها سلاحه، استلّه وتقدّم نحو الضابط ببرود، لم يستمع لتوسلات أصدقائه الذين شعروا بنبته الخطيرة، اقترب منه وأطلق عليه رشقة رصاص أردته قتيلا على الفور، ثم أدار فوهة البندقية صوب رأسه وأطلق رصاصة بعثرت دماغه. كيف وصل ذلك المخلوق المسالم والرقيق الى هذه الدرجة الكاملة من

العنف؟ كيف تحوّل الحمل الى ذئب؟ ومن منهما قتل الآخر؟ وأي طريق سار عليه عبيد وأوصله الى هذه النهاية؟

كان تنور الحرب كريما ومغريا لأبناء اليأس، كان يلوّح بالحياة وهو يدفعهم الى الموت، فقد لجأت الحكومة الى التفرير بالشباب عبر بيعهم سيارة وقطعة أرض بالتقسيط. تعرف الحكومة أن ضحايا حربها الذين سيركضون خلف «مغرياتها» هم الفقراء فقط، وبالنظر الى أن الأمل بنهاية سريعة للحرب كان يتضاءل يوما بعد يوم حتى لتبدو النهاية وكأنّها المحال بعينه، فقد تعاطى الشباب مع قضية التطوع في الجيش بنوع من الاندفاع وعدم التردد، وكثيرا ما سمعت من المتطوعين قولهم «ليش أخدم عشر سنين براتب جندي مكلف؟»، اطوّع وأفضها، سيارة، وقطعة أرض، وحرب لا تنتهي، الحياة مع الموت أكرم من الموت دون شيء من منافع الحياة.

في يوم من أيام الحصار المريع الذي جاع فيه الناس وانهدم ركن من أركان الخوف من السلطة، كنت شاهدا على لحظة أزعم أن تكرارها مستحيل، جرى خلالها حوار لا يتعدّى بضع كلمات، كان سؤالاً وجواباً فقط، ورغم قصر الحوار إلا أنه لم يكن عادياً، أو عابراً. سألت الضابط متقاعد كنت أقف بجانبه مطرباً مشهوراً غنّى ولحن وكتب كلمات أغاني لصدام وللحرب، وبين الاثنين علاقة تسمح بتجاوز الخوف والحذر، سألت الضابط صديقه المطرب مستنكراً غناءه لصدام:

— شكّد غنيت إلة؟ وشوف تاليهه، كتلنه الجوع.

— ردّ عليه المطرب: غنينا له من أجل سيارة وأنتم قدمتم أرواحكم له من أجلها، نغني ونركبها وتقتلون ولا تركبونها.

كان البطلان، الضابط والمطرب، يملآن شاشة الحرب بحضورهما الطاغي، وكنا نعيش الحرب في مشهدين، الأول هو مشهد الغناء الشعبي والتمجيد، والثاني مشهد القوات المسلحة، فرق الغناء وفرق العسكر، روح الحرب وجسم الحرب، والنتائج هي بضائع الحرب التي لا تخرج من معامل صناعة ولا من حقول زراعة وإنما تخرج من أفدح حماقات البشر.

الداخل والخارج

إن من الخير تعريض الشعب لمحن تجعله يطرح عن نفسه كسل القرون القديمة العقلي، وعلينا أن نبقي على انضباطه، وأن نجعل أفراده يرتدون البرزة العسكرية ليل نهار، آه، لو كان بإمكاننا أن نضربهم، ونضربهم، ونضربهم.

موسوليني

نحن الاشتراكيين لا علاقة لنا بالحرية، يجب أن تكون رسالتنا مثل موسوليني، الانضباط.

برناردشو

كلما أقدمت دولة على ضبط مواطنيها بالترهيب، تزهر تلك النبتة المقيمة : نبتة الوشاية الطوعية.

ستيفان زفايج

حرب الخارج معروفة الجبهة والأبطال والضحايا، أما الحرب التي تشتعل داخل البلد فمجهولة الخرائط والأبطال والضحايا، هي حرب تدور بين أحزاب ولدت وعملت في الظلام، وبين سلطة الحزب الواحد. في حرب الداخل لا يعرف عدد القتلى ولا كيف ولماذا قتلوا؟ كان بينهم البريء، وبينهم من قتل وهو سعيد ومفتخر بنهايته، كبار سنّ، أطفال، ونساء قطعت أجسادهن ولم يعرف لهن أثر، كل هؤلاء كانوا ضحايا حرب الداخل التي جرت وقائعها بسرية، في حين كان العالم كله يشاهد ما يجري على الحدود مع إيران .

مثل كل الأنظمة الشمولية استخدم صدام حسين أشنع طرق التعامل مع الخصوم، تعذيب وحشي، استهانة لا حدود لها بالأرواح والممتلكات، سجون لا يعرف لها عدد أو طرق، محاكم صورية، أحكام بالموت، وسائل خسيصة في التجسس والمراقبة، وهذه هي الأكثر إثارة للخوف في نفوس الناس، وهي أيضا أولى خطى النهايات المؤلمة والمصائر الدموية لضحاياها، كان شعار أجهزة الأمن: «تحدّث ونحن نحقّق». فإذا كان من حقّ أي شخص أن يتهم أيا كان، بأي تهمة يشاء، فإن من واجب أجهزة الأمن أن تبحث بعد ذلك عن «الحقيقة» و«الصدق».

أراد صدام حسين أن يجعل من الوشاية واجبا على الناس، كان هدفه النهائي وشعاره هو «من واجب الناس أن تشي بمن يتكلم أمامها بسوء عن السلطة ومن حقّها هي أن تبحث عن الحقيقة»، والمسافة بعيدة بين الحقّ والواجب، ولم ينج من عذاب السلطة من لم يوصل لها ما شاهد أو سمع. لقد هزّت هذه الأساليب أركان الثقة بين الناس، وبينهم وبين السلطة. وبسبب الخوف من بطش السلطة أو الحرص على إبعاد شرّها، وشتت الزوجة بزوجها، والأخ بأخيه، والصديق بصديقه، والأب بابنه. كانت أساليب السيطرة على المجتمع مزيجا من القسوة، والمكر، والاستهتار، فمزقت دون هوادة أركان الحياة الاجتماعية والعائلية وخلخت أسباب استقرارهما، ولكي تبدو الحياة في العراق بالصورة التي أرادها صدام حسين سأنقل نصّ ما قاله هو نفسه في كلمته أمام أول مجلس وطني «منتخب» في عهده ونشرتها جريدة الجمهورية في عددها

الصادر يوم 24 تشرين الثاني عام 1981، قال صدام:

«أُس زوجة بعمر حوالي خمسين سنة قابلتني مع المواطنين، زوجة أحد المواطنين وعندها أبناء وعندها زوج جاءت تقول لي سيدي، (زوجها) لا يحبكم واسمه فلان بن فلان. عندما نريد أن نسمع الأخبار أو نريد أن نرى فعاليات القيادة يغلِق التلفزيون ويضرب ولدها ويضرب بناتها... هكذا طراز من الشعب عندنا الآن.. وأم تأتي تبليغ عن ابنها المتأخر في العودة الى الجيش ليست أم واحدة.. أمهات وآباء.. أليس هذا طراز نادر؟ يأتي المواطنون والمواطنات يبلغون عن حالات.. الحالة المبلغ عنها.. بالقانون الشخص المبلغ عنه بالاعدام.. ويأتون ويبلغون هذه حالات نادرة... هذه حالة على الأقل منذ ٨٠٠ سنة لم تحصل في العراق»^٢.

الطراز النادر الذي تحدّث عنه صدام هو في الحقيقة من كان يبحث عنه، يبحث عن مجتمع نادر، مفكّك، مصاب برهاب السلطة، مرتعد من المستقبل، ومن نفسه، ومن الحرية، الطراز النادر من الناس هو الذي فقد التمييز بين الخير والشرّ وسلّم عقله وضميره للحاكم. الطراز النادر الذي تنتمي إليه أم توصل ولدها لحبل المشنقة، طراز الشرّ الخالص، الفالت من أي عقال.

روى رجل مقعد لصدام حسين في لقاء بثّه التلفزيون، كيف قتل ابنه بسبب هروبه من جبهات الحرب. في ذلك الأب تكثّفت روح السلطة، فهو لم يخبر السلطة بـ «جريمة» ولده بل فعل ما ستفعله، قتله! ربّما نظر المجتمع لجريمة الأب باعتبارها نوعا من الدفاع عن النفس أمام سلطة تأخذ البريء بجريرة المتهم، فهي لا تتردّد في أن تعاقب العائلة على فعل ولدها. وخرجت الصحف في اليوم الثاني لتتنقل ما قاله صدام حسين لأب القاتل، وهو يقلّده وسام الرافدين، وهو أعلى وسام تمنحه الحكومة، ويأمر بعلاجه خارج العراق وعلى نفقة الدولة، قال عنه:

«إن هذا الرجل الذي منح وسام الرافدين، بقرار من القيادة، هو نموذج من العراقيين

٢ . جريدة الجمهورية العدد الصادر في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٨١ نقلًا عن موقع: <http://saddamscrioty.blogspot.com/2010/10/blog-post.html>

الذي وصل الى الحدّ الذي لا يقبل على عائلته وعلى نفسه، أن يهرب أحد أبنائه من الجندية ولا يلتحق بصفوف القتال مع الرجال الذين يدافعون عن العراق، وعندما يعصي أمره يطلق عليه الرصاص ويقتله»³.

الدقائق التي جمعت بين «الأب القائد» والأب القاتل كانت بين فصول الذروة في رواية «جمهورية الخوف»، ومعه تلاشى أمل المجتمع وقدرته على استعادة شيء من قوته، وتوازنه أمام طغيان السلطة، كان المشهد إعلاناً نهائياً بوصول قبضة صدام حسين الحديدية وسيطرته الكاملة على المجتمع الى حدّ الاكتمال، لقد بتنا نتنفس الأبخرة الفاسدة التي تتصاعد من مستنقع الجريمة، لذلك لم يعد ممكناً الانشغال بمصائر الآخرين بل بمصيرنا كأفراد. لم يعد ممكناً تفادي الشرّ، فالعدوى الناجمة عن لمسه تحتاج الى طقوس تطهير لا نملك من يدلنا عليها، كنا مقيدي الأيدي، والعقول، والأرواح، كنا جمهور محكّم تفتقد لقواعد العدالة والإنصاف، ينتظر كلّ منا أن تفرغ ساحة الجلد لندخل لها تباعاً.

ولأنّ الناس تخاف تصديق جريمة قتل الأب لابنه، بسبب حبّ الأب للسلطة أو خوفه منها، فقد انتشرت عقب بثّ اللقاء روايات تقول إن الأب «اضطر» الى فعلته الشنيعة بسبب الاهانات التي يوجهها له ولده، معتبرين سوء خلق الابن سبباً كافياً بنظرهم ليقّتله أبوه. إنهم يبحثون عن أسباب تحمي ما تعرّضت له العلاقة الأسرية من تهديد وانتكاسة بسبب جريمة الأب، كانت الرواية «الشعبية» مصداً نفسياً أو حيلة دفاعية ابتكرتها الناس، لتستبعد نذير قيام الساعة، الذي بات واقعا معاشا عقب الجريمة. خوف الناس من مواجهة الحقيقة، جعلهم يختلقون أسباباً أوجه للقتل وفاتهم أن دافع القتل أياً كان فهو غير مهم، بل المهم، هو عرض الجريمة عبر شاشات التلفاز بالرواية التي صاغتها الحكومة وبتطقس احتفالي مهيب، يمنح خلاله القاتل أعلى وسام في الدولة، والأكثر أهمية هو أن يكون اللقاء مع صدام وليس سواه، فهو يعني

٣ . جريدة العراق العدد ٣٠٢٧ في ١٢ كانون الثاني ١٩٨٦ نقلًا عن: <http://saddamscrueity.blog-post.html/١٠/٢٠١٠/blogspot.com>

أن راعي انتهاك معاني الود والرحمة والأبوة كان رأس السلطة. كانت قصة ذلك الشيخ المقعد مشهداً مروّعا بكل معنى الكلمة، ففيه تجمعت كل مآرب السلطة، مثلما انتهكت فيه مقدسات الإنسان وحرماته، كان هابيل العراق هذه المرّة أبا أزهق روح ولده، معلنا ولادة مجتمع جديد، ليس له وشائج مع ما سبقه، لم يعد خائفاً من مؤسسات السلطة وأجهزتها فقط بل من نفسه أيضاً بعد أن أصبح أداة بيدها. لا أدري كم من الجنود أو المختلفين مع السلطة أو المعارضين لها خاف أن يقتله أبوه أو أخوه أو ربما أمه عقب ذلك اليوم؟ ولا أدري كم من الناس أعاد ترتيب قائمة « مثيري الخوف » لتضم الأهل أيضا؟!

قبل أن تبدأ الحرب بأسابيع قليلة، شاهدت كيف «تجتّث» السلطة أناسا ولدوا، وعاشوا، وكبروا في العراق، كانوا «مثلنا»، يتحدثون، ويفكرون بلغتنا. وجوههم، أسماءهم، أحلامهم، لياليهم الفقيرة، كانت تشبه ما نحن عليه، يعيشون بيننا دون أن نعرف أن هناك ما يميزهم عنّا بمزية كانت في عرف السلطة جريمة سيعاقبون عليها بالنفي بعيدا عن أرضهم التي عاشوا فيها.

في الصباح حملت السيارة «البيك أب» عائلة عبد الله النداف، لترميمهم على الحدود مع إيران، كانت الجريمة التي نفوا بسببها هي إنهم من أصول إيرانية، جلست العائلة في حوض السيارة، لم يسمح لهم بحمل شيء، ملابسهم التي تكسو أجسادهم الهزيلة حقاً، هي فقط ما حملوه من متاع بلدهم الى المنفى. كانوا منكسرين، مشدوهين، تدور عيونهم حول الناس المحيطين بهم، تتوسّل العطف أو ربّما تتساءل عن حقيقة ما يجري لها، المشهد بدا وكأنّه ينبعث من القرون القديمة حيث يفعل السلطان ما يحلو له، يصلب، يصادر، يمحو ذنوب ويكتب أخرى، يطرد من مملكته من يشاء وقت ما يشاء، عوملوا مثل مجرمين عتاة، يكسو وجوههم ذلّ المشهد، انتهت حياتهم على هذه الأرض، لا أدري كيف سيبدوون حياة أخرى من دوننا؟ كيف سيتحدثون مع الأغرب؟ هل سيرمون فعلا كلّ تفاصيل حياتهم وراءهم؟ هل خسروا كلّ شيء فعلا؟ ما الذي ينتظرهم في بلد آخر لا يعرفون شيئا عنه؟

وأنا أشاهد عبد الله في حوض السيارة، مرّت بي اللحظات التي جمعتنا في بيتنا قبل أيام، مدّ الوسائد، والأغطية في باحة البيت وجلس أمامها حاملا قوسا يشدّه شريط مطاط وعصا، وبدأ يضرب القطن ليتطاير منه الغبار والعتث، كان مبتسما، ويتحدّث معنا برفق، أخذت منه القوس وقلّدت حركاته، كان لا يقلّ عني سعادة بحملي لأدواته، مرّت من أمامي ذرات غبار القطن وهي تتطاير في الهواء، حين شاهدت عبد الله يجلس بين عياله بانتظار الرحيل الأخير، شاهدت أحلامه تتطاير مثل غبار القطن، مشاعر عديدة كانت تتقاذف في عيونه، الدهشة، الألم، التوسل الممتزج بالحزن، لكنه أيقن أن الستار الأخير قد أسدل على حياته وما هي قد انتهت بلمح البصر، يشبه مشهد السيارة وهي تسير بهم، ما يجري مع سيارات دفن الموتى، الناس تقف باكية مودعة، مضوا الى حيث تريد السلطة، الى المنفى القسري، الى الموت.

وبرغم السنين التي مرّت على رحيله ظلّت ذاكرتي تحفظ وجه عبد الله الصغير وأنفه المدبّب، رحل النداف تاركا أرواح من عرفوه حبيسة سجنها. ماذا قال صدام في تلك الأيام عن أولئك الذين نقلوا على حين غرّة من الوجود الى العدم؟ هذا ما قاله: «اجتثوا من أرض العراق لكي لا يندسوا تربة العراق، ولا يندسوا هواء العراق، ولا يندسوا الدم العراقي عندما تمتزج دماؤهم بدماء العراقيين بالتزاوج، وهكذا اجتثتهم الثورة من الجذور لكي تنهيمهم، وتبقي العراقي الصافي، الأبّي، الوطني، الشريف، الذي لا يقبل الذلّ، مرفوع الجبين يبقى دائما وأبدا»⁴.

في حرب الداخل كانت الحياة اليومية تنتظم على وقع سؤال لا يتوقف، وهو: كيف يمكن لي أن أبعاد عن نفسي كل ما يمكن أن يغيظ السلطة أو يزعجها؟ ووسط الشكوك التي تحيط بهم بدا كلّ حديث عفوي أو صريح تهوّرًا لا تحمد عواقبه، فكنا نتدرب على ضبط لساننا حتى ونحن وسط بيوتنا وغرفنا، وحين نتكلم بسوء عن السلطة لا بدّ من أن يردعنا أحد «الزم لسانك». لقد خلق كلّ واحد منا رقبيا داخل

٤ . جريدة الثورة العدد ١٦ / ٢ / ١٩٨١ نقلًا عن موقع . <http://saddamscrueity.blogspot.com>
blog-post.html/١٠/٢٠١٠/com

صناعة المهانة

لأن الطغاة
يريدون ألا تتم الحياة مداها
وألا يحسّ العبيد
بأن الرغيف الذي يأكلون
أمرّ من العلقم
وأن الشراب الذي يشربون
أجاج بطعم الدم
وأن الحياة ، الحياة انعتاق
وأن ينكروا ما تراه العيون:
فلا بيدر في سهول العراق
ولا صبية في الضحى يلعبون
السياب

إن حزني يكبر كلما تأملت صنوف القمع الذي عشناه، كانت فدية باهظة تلك التي دفعتها الناس من أجل تهديئة مخاوف الحاكم أو المضي وراء مطامحه ونزواته، كنا نريد إرضاء شرايته للخطايا، نريد النجاة من قبضته بأي ثمن، كانت لذة استسلامنا له تغرينا، وتسلبنا الكثير من إنسانيتنا، لم نعرف أن طاعتنا صنع لنا عالما يخاف الحرية ومع مضي الوقت يتحوّل الخوف منها الى كراهية لها، ليست الحرية وحدها ما خسرنا بل خسرنا قبلها مواردنا، وثقتنا بأنفسنا و ببعضنا بعضاً، لقد حولنا الطاغية الى جنود مطيعين، وخلق مجتمعا فقد البوصلة وخسر جزءا كبيرا من قيمة الإنسانية. وفي أرض الخوف هذه تنوّعت المصائر والنهايات، فاختر البعض الانسياق وراء السلطة برغبة، أو بخوف، واختارت الأكثرية الصمت، وهرب آخرون بجلدهم من البلد، أما من فشل في مقاومة إغراء مواجهة النظام فذهب الى مصيره المعروف، وهو القتل وإخفاء الجثة ومراقبة العائلة ومحاسبتها، كنا جميعنا ندور حول الحاكم، نحبه، نبغضه، نقاومه، نحاربه، نهرب منه، ونتشبه به، الحاكم هو الإله، ومعه تدور الحياة.

كانت الأجهزة المخصصة لحماية النظام ومراقبة الأنشطة التي تتعارض مع سياسة السلطة متعددة وهي: مديرية الأمن العام وفروعها، منظمات حزب البعث المنتشرة في كل المدن والقصبات، جهاز المخابرات، الاستخبارات العسكرية، جهاز الأمن الخاص، الحرس الخاص، وزارة الداخلية، فدائيو صدام، ويضاف لهذه الخطوط الدفاعية، جيش سرّي، وهو جيش «الوكلاء». وهم الوشاة الذين ينقلون الى السلطات الأمنية ما يعتقدون أنه مضرّ بالسلطة ومهدّد لها، من أقوال الناس أو نواياهم، وجيش الوشاة هذا كان أشدّ الجيوش إثارة للرعب والخوف، فهو يخفي بشتى العناوين والخلفيات والأعمار والمهن، لا يعرف عدد عناصره، أو طرق عملهم، وفي صفوفه شيوخ، وشباب، ونساء، أساتذة جامعة ولصوص، أغنياء وفقراء، فنانون ورياضيون.

حين سقط نظام حكم صدام حسين، وضعت الناس يدها على وثائق الأجهزة الأمنية وتعرّت الحقائق والأسرار، كانت الفضائح تزكم الأنوف، ففي الكمالية، وضع صديق

لي يجاور بيته مقرا مشتركا للشرطة والأمن يده على وثائق رجال الأمن، كانت أجندة ضابط الأمن؛ وهو برتبة عقيد من أهالي اليوسفية أكثرها أهمية، ضمت صفحة عنوانها الضابط بـ«المصادر». كتب فيها أسماء المتعاونين معه، صنّف هذا الضابط «مصادره» الى مجموعات، منهم من اختصّ بمتابعة أخبار العوائل التي لديها أبناء هاربون من العراق سواء كان هروبهم لأسباب سياسية، أو من أجل لقمة عيش، أو أي سبب آخر، وكذلك مراقبة الأشخاص داخل العراق ممن تشكّ أجهزة الأمن بنشاطهم السياسي، وهناك «مصادر» أخرى تختصّ بمتابعة الهاربين من الجيش، وآخرون، كلّفوا بمهمة متابعة أنشطة تهريب الألبنيوم ويسمّى بالـ«فافون». وكان هذا النشاط رائجا في الحي، وخاصة في سنوات الحصار الاقتصادي، حيث تضم المنطقة الصناعية مجموعة من مصاهر الألبنيوم، ينشط أصحابها في تهريبه الى كردستان، وكانت هذه المصاهر مصدر رزق وفير لرجال الشرطة والأمن في المنطقة، حيث يدفع لهم أصحاب المصاهر الرّشوة ليغضّوا النظر عن نشاطهم غير القانوني، وضمت قائمة «مصادر» الضابط، أسماء عدد من النساء أيضا، لم يعرف على وجه الدقة طبيعة المهمة الموكلة لهن ونوع تعاونهن مع الأجهزة الأمنية.

فجّرت أجندة الضابط مفاجآت أو بالمعنى الأصح فضائح، طالت أشخاصا كانوا ينظر أهالي المنطقة ليس فقط منزهم عن العمل أو التعاون مع أجهزة الأمن، بل كان ينظر لهم بأنهم من «عتاة» الرافضين للسلطة والكارهين لها، فاذا بالقائمة تكشف أنهم من «عتاوي» الأمن، بين شخصياتهم المعلنة والمستترة، كانت المسافة شاسعة، ففي الوقت الذي كانت صورتهم في أذهان الناس هي الأقرب الى صورة المعارض أو الرافض لقمع السلطة وأساليبها في مراقبة ومضايقة الناس فاذا بأجندة الأمن تكشف عكس ذلك تماما، فهم مسجلون في الوثائق الرسمية عيوننا للسلطة على الناس، الأساليب الدنيئة في المراقبة كشفت عن أن الأجهزة الأمنية، لا تعمل أبدا من دون عيون تابعة لها، تراقب وتدقق وتوصل المعلومة اليها، قوّة الأجهزة الأمنية جاءت من ضعف المجتمع، أو من ضعف النفوس الذين ارتضوا أن يقدموا أرواح

الناس وأموالهم لقمة سائغة للسلطة، ومع الاعتماد الكبير عليهم أصبح هؤلاء الوشاة بمرور الزمن «سلطة» تؤذي الناس، والملفت أن الحكومة عقب سقوط نظام صدام حسين أعادت الحياة الى «المخبر السري»، وتحول هؤلاء المخبرون في الكثير من الأحيان الى مصدر أذى وإهانة للناس، فلم تكن هناك أي موانع في أن يستخدم المخبرون «سلطتهم» في الإيقاع بخصومهم أو من لهم مشاكل شخصية معهم.

كشفت أجنحة ضابط الأمن عن حقائق مؤلمة، فبرغم أن الناس تعرف على وجه الدقة أن مهمة أجهزة الأمن هي مراقبتهم، وأن من بينهم من أصبح «أداة» تتكفل بهذه المهمة، إلا أن «مستوى» ما كان يحاك لهم، وطبيعته، ودقته، كان مفاجئاً مثلما لم يكن إنسانياً، وإحدى المفاجآت أو الفضائح التي أذهلت أهالي الحي، هي ورود اسم شاب فقير، ومن عائلة لا دخل لها بالبعث والسلطة، كان قد انخرط في سلك رجال الدين ولبس العمامة، واسودت جبهته من كثرة السجود، لم يكن هناك ما يشير الى أن لهذا الشاب علاقات مع «الأمن»، فإذا باسمه مدوّن في سجلات «المصادر» وأن تجنيده قد تمّ قبل مدة قصيرة من سقوط النظام. كانت صدمة معارفه وأصدقائه شديدة، برغم ما يبرّره هو، بأنه قد اضطر للموافقة على التعاون مع الأمن بسبب ما تعرّض له من ضغوط، وأنه لم يوصل أي معلومة مضرّة بإنسان الى أجهزة الأمن، لم يتعرّض هذا «الوكيل» لأذى وظلّ يمارس حياته بشكل اعتيادي، كان لهذا «التسامح» مع الشاب ما يبرّره، فقد خلت مفكرة الضابط من أي إشارة عن مهمة موكلة اليه.

كلّ هذه الجيوش كانت تراقب، تحصي، تدقّق في ماضي الناس وفي نواياهم وأفكارهم، كانت تتنافس في إذلالهم، حتى أننا لم نكن نعرف أي منها هو الأعلى سلطة، مثلما لا نعرف من هو الأكثر بطشا وقسوة. في سجن حالك الظلمة، كانت تمضي أيامنا، عوائل الذين قتلتهم السلطة، والذين سجنوا، أو اختفوا دون أن يعرف مصيرهم، أو هربوا خارج البلد، كانت تنام وهي تترك عينها مفتوحة تنتظر سيارة «الأمن» لتحملهم حيث يعذبون ويفنون، آلاف الناس قتلوا أو سجنوا وصودرت أملاكهم، فقط لإن لهم أقرباء كان يشكّ بولائهم للسلطة أو انتموا فعلا الى أحزاب معارضة تعيش قياداتها

خارج البلد.

هكذا كانت تراجيديا العراق في تلك الأيام ومعها عشت وكبرت وحلمت مثل ملايين الناس فهل يعقل أن أخرج من هذا الطوفان بروح معافاة وسليمة؟ أبدا سأكون كاذبا لو قلت إنني خرجت سليما ومعافى، لقد أصاب «الجرب» روحي واعترف أنني أسعى لمراقبة أثاره على إنسانيتي، لست معافى وأنا لا أثق بالناس، ولست معافى وأنا لا أشعر بانتمائي لبلدي ولا أعرف حقوقي فيه، ولست معافى وأنا أرى أجهزة الأمن وهي تقتل الناس وترمي جثثهم على أهلهم، وتطلب منهم البكاء، بصمت، والحزن وراء الجدران، ولست معافى وأنا أشاهد كل يوم «عيون» السلطة وهي ترقب أنفاسي وأفكارى، كنت أرى السلطة هي الوطن والوطن هو السلطة، فكيف لي أن أحب وطني وأثق بأهله وسلطته ارتكبت الأموال بالنفوس والقيم والأعراف؟

لماذا هذه الجيوش والألم والرعب؟ كانت عبادة الحاكم والخوف منه مثل هيستيريا أصابت الناس، ومعها غدت حياتنا أشبه بحلقة دروشة ترقص فيها الملايين رقصة الخوف من صدام، تدور حوله وهو يقف في مركزها منتشيا يرمق الجميع، مثل إله لا يشبع من العبادة، تضرب «الدرباشة» بقوة، ليقال عن ضاربها إنه بريء من تهمة كره الرئيس، الملايين تهز رؤوسها بعنف وتردد دعاء الحياة له، أو ترقب عصي شيوخ الحلقة وهي تهتز أمامها لتجرّها الى وسطها وكننت أنا مع هذه الملايين، ندور حول الحاكم، نتعبد خوفا أو طمعا. لقد كان صدام يشعر بنفسه أنه أكثر من مجرد إنسان حين نجح في فرض سلطته على الناس جاعلا منهم أدوات تطيع رغباته بخضوع واستسلام.

ليس الخوف من تصدّع الجبهة الداخلية مع بدء الحرب مع إيران هو الذي بعث غريزة القتل لدى صدام حسين، بل كانت متأصلة في شخصه، وقد كتب عن ذلك الكثير، وعادوا الى طفولته في قرية من قرى تكريت، والى يتمه المبكر، وفقره، العوامل الاجتماعية والشخصية لعبت دورا في صنع واحد من أكبر طغاة التاريخ، فضلا عما غذاه به حزب البعث من فكر شمولي وأساليب عمل سياسي تبرّر كل الجرائم وتتجاوز

على أبسط قيم الإنسان الأخلاقية.

لكن كيف واجه الناس وصوله الى هرم السلطة؟ حين اعتلى صدام سدّة الحكم، كانت الناس شغوفة به، شبابيه، وقوة شخصيته، ووسامته، وحيويته الملفتة للنظر، دفعت أغلب الناس الى النظر له بكثير من الرضا، معتبرين إياه الأصلح لحكم البلد وإدارته وتنميته من بين قادة حزب البعث، ولكنه وفي أول يوم له في السلطة في تموز 1979 فاجأ العالم والعراقيين معا بحصد رؤوس رفاقه وأقرب الناس اليه من كبار المسؤولين، لم يفعل فعلته الشنيعة هذه بسرّيّة وصمت بل أمر بعرض شريط محاكمته لرفاقه على كل فروع حزب البعث. كانت رسالة رعب حادّة وفظيعة، لقد وضع الجميع أمام حقيقته، ورسم بلا زيف أو رتوش صورته في خيال الناس، صورة الحاكم بالرعب.

بعد سنوات على إبادة رفاقه تحدّث صدام عن الجريمة في كتاب نشرته وزارة الثقافة والاعلام بعنوان، «صدام حسين / المختارات» كان عنوان الفصل «المؤامرة الخيانية / تحليل أولي والدروس المستخلصة»، حديث صدام جرى مع القيادة القطرية، يوم 18 آب 1979 اي بعد أقلّ من شهر واحد على الجريمة، وبسبب «غرابية» تحليل صدام للجريمة وجدّت نفسي مضطرا الى إدراجه كتّص، لقد ذهب صدام الى «البرجوازية» ليحملها مسؤولية المؤامرة! يقول صدام في كلمته:

«لا بدّ أن يتضمن تحليلنا لهذا الموضوع نشرة وافية تعمّم على الجهاز الحزبي لكي يعتمد عليها في قيادة الجماهير»... وهنا أركز على ضرورة تنظيف ما حولنا من العلاقات الاجتماعية على مستوى القيادة القطرية والكادر المتقدم والمتوسط، بل على مستوى عموم الجهاز الحزبي، فعلاقاتنا لا بد أن تكون مع الشعب، أن تكون مع البعثيين، وليس مع الوسط البرجوازي تحت أي مبرّر أو أي حالة، لذلك فمن له صديق مقاول عليه، أيها الرفاق عليه أن يتركه من تاريخ هذه الجلسة وسوف أتابعكم... عليكم بالابتعاد عن أي صديق له صلات بالوسط الأجنبي أو ذي صلة بالأوساط التجارية التي تتعاطى بالعمولة». وينتهي صدام كلمته بـ «توسل» رفاقه

ألا يجرموه من حقّه في الرّد وطرح حجته!

وانا اتحدّث عن إدراكي لما يشكّله صدام حسين من رعب، اعترف أنّه ليس من السهولة أن أوْرخ لولادة ظواهر مثل الوعي والإدراك، إنها أشياء لا يمكن أن يكتب تاريخ ولادتها باليوم والشهر، ولكنني سأحاول أن أعيد ترتيب ذاكرتي فيما يتعلّق بصدام والأحاسيس التي تتتابني حوله.

في 1979 وهو العام الذي تولّى فيه سدّة الرئاسة، كنت في الحادية عشرة من عمري. أوّل «معرفتي» به جاءت مع لحظة إعدامه لرفاقه في السلطة والحزب، كنت أشاهد آثار الصدمة في أحاديث الناس، لم أعرف من الذي أيّد وصفّق لحفلة الدم تلك أو اعترض واستنكر وخاف، ولست معنيًا بذلك، وبعد أشهر قليلة سمعت أنّه أعدم محمد باقر الصدر أحد أهم رجال الدين الشيعة ومعه شقيقته، كان الحدث مدوّيا برغم السريّة والخوف في كلام الناس المحيطين بي، كانت جرأة قتل شخص مثل باقر الصدر تكشف حقيقة صدام الوحشية ودرجة استهتاره بمشاعر الملايين من العراقيين. ثم بعد أشهر شاهدت كيف تحوّل البلد الى ساحة حرب ضارية ومفجعة قادنا لها صدام ببرود وخفّة، فليس غريباً أن تعلق صورة صدام في ذهني بالدم والعنف، كانت مرعبة وتتداخل فيها الأسطورة مع التاريخ، وبرغم مرور سنوات على إعدامه إلا أنه لا زال يسكن داخلي، وطالما حلمت به متصوراً نفسي بين يديه، لم أقو على إبعاد شبحه عن نفسي، لا اتحدّث هنا بلغة التّهويل أبداً، ولست راغباً في إضافة نقطة سوداء على سواد ما تركه على العراق، أو معنيًا بصورته التي أرادها هو لنفسه أو رسمها له أعداؤه، فقسوته ورعب مشهده أعيشهما مع نفسي فقط، حديثي هنا يخرج لأول مرة من دائرة البوح للنفس، أعلنه، عسى أن أزيحه عني، ولا يكاد يمر يوم إلا وأنا معه، أقف بين يديه مرتجفاً، أو متسائلاً، أو مستنكراً، اتحاشى عيونه، أراقب يديه وكلماته، أخرج منه حامداً الله على نعمة النجاة من فتكه، وفي أحيان كثيرة كان يلاطفني، يتودّد إليّ، يترك لي حريّة الكلام، لا يذكرني به سوء الحال الذي أعقب انهيار سلطته، ولا أضعه في موضع المقارنة مع من وصل السلطة بعده، أعيش لحظات

«لِقائِي» المستمر معه بروح ما كنت أعيشه في أيامه، هو لم يمِت في داخلي أبداً، وأشكّ في قدرتي على تناسيه، أصبح «شيطاني» المستوطن داخلي .

كانت حرب صدام حسين الداخلية وما فعله بمعارضيه خلال أعوام الثمانينيات، منسجمة تماما مع فكره وشخصيته العدوانية، فليس عرضياً أو طارئاً قتله لآلاف الناس بشتى التهم، ومع إعلان السلطة في إيران رغبتها وسعيها لإسقاطه، كان عقاب غريزة القتل قد إنفلت من روح صدام حسين، شكوكه شملت العراقيين كلهم، لا أحد يملك حصانة البعد عن دائرة الشكّ، لا يملكها قادة البعث ومسؤولو الدولة، أقرباؤه، وخصومه بالتأكيد، الكلّ في دائرة الاتهام.

كان الرعب منه يأخذ بالافتدة، ولا زلت أتذكر الصفحة التي تلقيتها من زميل، كنت أمارحه حين دخل الصف، كنا في الخادس الإعدادي، كان والده هاربا من العراق بسبب انتمائه للحزب الشيوعي ومطاردته من قبل السلطة، وانفصل تبعا لذلك عن والدته، فتزوَّجت من شخص آخر وعاش مع أخواله، كان انكساره النفسي باديا للعيان بمجرد محادثته، يتحاشى تعزيز صداقاته، ويخاف من السلطة بشكل ملفت، كانت صفرة وجهه توحى وكأنّه يعاني من مرض ما، دخل زميلي هذا الى الصف وقلت له ساخرا:

— ليش تحجي عليه ؟ ليش ما تخاف؟

كنت أعني زميلا لنا كنا نتحاشى مزاجه العنيف وقوة عضلاته، تحدّث هو عنه في الاستراحة بشيء من السخرية دون وجوده، لم أشعر إلا بصفعة تضرب خدي، لم أفهم غضبه وحين رميت بنفسي عليه؛ كان زملاؤنا ومنهم صاحب المزاج العنيف، قد حالوا بيننا، إنهالت عليه كلمات العتب والتأنيب، فجلس في آخر الصف، وبكى، لم نعرف سبب غضبه، إلا بعد ان اعتذر مني وأخذني مع بضعة أصدقاء الى زاوية بعيدة، وقال إنه فهم من كلماتي أنني أقصد صدام حسين، وكأنّي قلت له لماذا تتكلم عن صدام؟ لم يكن اسم صدام يلفظ بسهولة وخاصّة في الأحاديث العلنية أو التي تدور بين أغراب، لذلك كانت ألقابه الرسمية المسبوقه بعبارات التبجيل والاحترام،

من قبيل السيد الرئيس، أو السيد القائد، ويزيد آخرون على هذه الكلمة، حفظه الله، هي التي تستخدم مع اسمه، أما الذين يريدون الحديث عنه بمزيد من الحذر فكانوا يستخدمون ضمير الغائب، وكانت الناس تخشى فعلا من استخدام ضمير الغائب، لذلك ظلّ ذلك الصديق أنني اتحدّث عن صدام حسين فامتلكه الخوف الشديد من سؤالي، فلم يملك ضبط نفسه وضربني.

الخوف الذي استبدّ بنا يمنعنا حتى من الإشارة والتلميح الى صدام، وبسببه قد أفعل مع شخص آخر ما فعل معي زميلي الخائف من التلميح، كنت صادقا تماما حين قبلت اعتذاره مني، عاتبت نفسي على «تهوري»، كان عليّ أن أكون حذرا ومحترزا في كلامي، هذا ما قلته له بوضوح. كنّا نخاف على أرواحنا من كلّ كلمة أو نظرة، لم نملك سوى أن نعلّم أنفسنا وندربها على فنون تفادي المخاطر المهلكة، لا نعرف لغة نتعامل بها مع اسم صدام حين نتحدّث عنه، كان بين مشاعرنا الحقيقية تجاهه وبين لساننا مسافات شاسعة، داخلنا، كان يغلي كالمرجل عليه، فهو في الحقيقة سفاح مستهتر، وعدواني منعدم الضمير، ولكننا نتحدّث عنه بكلّ ما يحويه قاموس الحبّ والاحترام والتبجيل، وحين نجد من يمنحنا الأمان من الأصدقاء كنا نفرش سجادة كرهه ومقته بكلّ مساحتها، ونرمي عليها كرهنا وقهرنا وخوفنا، لذلك كانت الصداقة في أحيان كثيرة هي آخر معاقل التنفيس عن غضبنا على السلطة، وفي نفس الوقت كانت طريقا للموت أيضا وخاصة حين تفلت من معيار الثقة التامة، فالكثير من الناس ذهبوا ضحايا سوء تقديرهم لدرجة الثقة التي يمنحونها لصديق، بعضهم كان مشهورا وآخرون كانوا مسؤولين أو قادة جيش كبار، أنهت حياتهم وشاية صديق ظنوا أنّه أهل للثقة فتحدثوا أمامه عن مشاعرهم تجاه صدام ، فكانت نهايتهم.

رزاق

أيها الموت، أيها القبطان القديم، لقد آن لنا أن نرفع
المرساة، فهذا العالم يضجرنا.... فلنبحر.

بودليير

شعره الناعم، ووجه المستدير، وجسده الممتلئ، وشيخوخته التي يقلد فيها والده
الحكيم، وحبّه العميق لأمه، كانت أجزاء من قصة رزاق التي ظهرت وكبرت واختفت
بلمح البصر. كانت مدّة سعادته وانسجامه مع محيطه الاجتماعي قصيرة فقد ادّخر
حزنه الى لحظة واحدة لم يكن أيّ من أحبته شريكا له فيها.

ما بين عائلتنا علاقات تمتدّ الى ريف الكوت، وتحديدًا الى قرية من قرى ناحية جصان
في أقصى الحدود مع إيران التي سيكون لرزاق معها قصة موت لا حكاية حياة.
عاشت عائلتنا عيشًا مشتركًا في بغداد في بيت مبني من الطين في خمسينيات القرن
الماضي بعد تركهما القرية واتجاههما الى «العاصمة»، مثلما هاجرت آلاف العوائل من

الجنوب الى بغداد أملا بحياة أفضل.

ولد رزاق وتآلم ومات في بغداد، في رحلة لم تستمر سوى عقدين من الزمن فقط، كانت كومضة برق. وكانت ولادتي قد تَمَّت معه في نفس السنة، كان جاري وصدريقي وزميلي في المدرسة، تشترك يومياتنا البسيطة بالكثير من التفاصيل، ففي المدرسة كنا نجلس على نفس المصطبة، وحين نعود الى البيت نجتمع بعد وقت قليل في ظلّ الجدران صيفا أو في «المشركانة» شتاء، أو نلعب «الطوبية» التي يحرس فيها رزاق المرمى. هذا الحارس الشجاع دارت حياته نحو طرق محفوفة بالمخاطر قادته لها أفكاره البريئة، وانتهت الى موت مؤلم. معركة رزاق مع الموت لم تكن متكافئة فهو وحيد قبالة جبروت، كيف لفتى مثل رزاق، يخاف الليل، ونباح الكلاب، أن ينتصر على سلطة تعبّد طرقها بجماجم الناس وتغسلها بدمهم ودمعهم؟ رزاق قبالة سلطة صدام، أي «أسطورة» هذه التي كنت شاهدا على حقيقتها؟

كان رزاق كثير الحبّ لوالده «عجاج» الذي يعمل في دائرة للكهرباء، وكان ما يحفظه والده من الشعر الشعبي يفوق حجم معرفته بالكهرباء، كان شاعرا يحفظ لكل حدث أو موقف أو جلسة أبيات شعر يردّها وهو يتلاعب بالإيقاع كأبي شاعر فحل، كان والده مهابا من أقربائه ومن الجيران، لم أقو على النظر اليه، بسبب نظراته الحادة، وحواجبه المرتفعة بطريقة تخيف طفلا لم ير لها نظيرا، كان عجبي من رزاق هو درجة تأثره به فهو يحفظ شعره، ويقلّد صوته، وإشارة يديه.

منحت حماقتي مع رزاق في يوم من الأيام لحبّي له طاقة جديدة للبقاء، كان يركض أمامي في ساحة مدرستنا الابتدائية، لحقت به وأنا استشعر خبثا يسري في عروقي، ضربت إحدى رجليه بقدمي، فسقط على بعد أمتار وهو يتلظى من الألم كانت ساقه قد التوت بشدة، وسرعان ما تورّم مفصل قدمه بشكل مخيف، نقل الى مستشفى يقع أمام بناية المدرسة، لم تكسر ساقه، بل أصيب برضوض تركت وراءها زرقعة في الجلد، غضبه عليّ وزعله كانا مؤلمين لي أشدّ الألم، لم ينفع اعتذاري السريع منه في إيقاف أمواج غضبه، وحبسها لي رزاق في داخله، ولم تمض سوى أيام قليلة حتى ردّ

على خبثي معه بخبث أشدّ ألماً وأقوى، فأعاد عليّ سيناريو ما فعلت معه بدقّة، فعلها معي في نفس المكان وبنفس الطريقة لكنّي خرجت من ضربته بجرح غائر شقّ خط الحياة في راحة يدي اليسرى، تاركاً لي أثراً منه سيبقى معي طوال العمر، في تلك اللحظات احتملنا جروحنا وتبادلنا حبّاً لكنّ روحي ظلّت ترفض جرح رحيله حتى اليوم فهو أقوى من أن يحتمل.

حين انتقلنا الى الدراسة المتوسطة دخل رزاق صفاً ودخلت آخر، فحسبنا ذلك أوّل ضربات الدهر القاسية، ولم نتوقع أنّ ضربة أخرى ستكون أقسى من أن تحتل، كنّا نلتقي في أوقات الاستراحة بين الدروس، ونعود معاً من المدرسة ونذهب معاً، أكملنا المتوسطة وقلّت اللقاءات بعد أن فرقنا خياراتنا المدرسية، كانت الحرب تستعر على الحدود مع إيران، وكان يقلد ويردّد إعجاب إلهه وأقاربه بالثورة الايرانية وبسيطرة المعمرين الشّيعية على مقاليد السلطة، مثلما كنت أفعل. الخميني او صدام، لا خيار آخر أمام الناس، صدام بلهجتة اللعونة، ولباسه الخاكي المقيت وأجهزة أمنه التي تسوم الناس سوء العذاب، كانت ترتسم بأذهان الشّيعية كحكومة تسبق ظهور إمامهم الثاني عشر. صدام كان من شروط الساعة، وعلامات الظهور.

غذّي رجال الدين مخيال الشّيعية الشعبي، بصور من جبريّة لا يملك أمامها الفكر أي منفذ للهرب، كانت الروايات الدينية عما يجري للشّيعية تسحرنا وتخفف وطأة المعاناة حيث تضعنا في عين الله، فهو الذي قدر، وأمر، الشّيعية ينتظرون القادم من السماء عبر ما يلاقونه من عذاب وقتل ومهانة، فهو لن يأتي حتى تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، امتلاء الارض بدم الشّيعية كفيل بنهاية عصور الموت والعذاب .

جاءني رزاق عصر يوم في نهاية العام 1986، كان ارتبأكه بحجم براءته، اقترب مني كمن يريد أن يلقي عليّ سرّاً من أسرار العالم الخطيرة، أهو اسم الله الأعظم هذا الذي يريد رزاق أن يكشفه لي؟ اقتربت منه، همس لي، أحمل معي كتاب «الملاحم والفتن» لابن طاووس، ذهلت من هول المفاجأة، فقد كان لهذا الكتاب وقع على نفوس الشّيعية، إنه مدوّنة إلهية ليس للماضي بل للمستقبل، نبوءة بما سيقع في نهاية الكون بعيون

الذي اختاره لحياته وبين إصراره على عمله انتهى الحديث، كنت أنظر له كيف سيعذب ويسحق ولكني لم أقو على منعه.

في آذار من العام 1988 فقد أثر رزاق وشقيقه فاضل في نفس اليوم، ذهب أهلهم إلى المستشفيات ومراكز الشرطة ولكن شكهم بأن «الأمن» اعتقلهم كان يزداد كل ساعة، وفي الأسبوع نفسه أيضا كنا قد فقدنا شقيقي في مجزرة حلبجة، فبدا لنا القدر وكأنه يرسم لعائلتنا مصيرا مشتركا حتى في الحزن والفقدان، البكاء والألم يوزع علينا بالتساوي، كنت أكثر أفراد العائلتين حزنا فقد خسرت صديقا بريئا ونقيا، وفقدت أيضا شقيقا حنونا رغم صخبه وانفعاله. كان خوفي من إمكانية أن ييوح رزاق بالحديث الذي جرى بيننا يسرق مني حزني على أخي وعلى رزاق أيضا، كنت أرقب اعتقالي الوشيك، فاعتراف رزاق ليس مستبعدا، لأن ما يمكن أن يتعرض له من تعذيب يفوق طاقة البشر، والتعذيب يكفي ويزيد على الاعتراف، سواء كان حقيقيا أو كاذبا. والاعتراف الكاذب عادة ما يلجأ إليه المعتقلون لينهوا به عذابهم الطويل وما يمرّ بهم في السجن من مشاق، فالكثير من المعتقلين كانوا يعترفون بأشياء لم يفعلوها أبدا، كان التعذيب في أقبية الأجهزة الأمنية مهولا، والمعتقلون يريدون إنهاء شقائهم بأي طريقة وبأي ثمن، حتى لو كان الإعدام، لذلك كانوا يؤيدون التهم التي توجه لهم من قبل المحققين، وللمزيد من السخرية بالمعتقلين كان عناصر الأمن يطلقون على المعتقل الذي يعترف بأنه بدأ «يغرد». يشبهون أصوات الموت بأصوات البلابل .

امتنع الكثير من أقرباء رزاق وجيرانه عن زيارة عائلته، ومواساتها بفقدانه هو وشقيقه، كان الخوف من السلطة قد اكتسح المجتمع، وضرب أبسط صور التعاطف الإنساني، وبدا وكأن عارا شنيعا لحق بعجاج وعائلته، ولكن أبي ظل على عادته اليومية في زيارة بيت صديقه الحميم برغم إلحاح أمي وتوسلها بل وتهديدها له، كنت أرقب صمت أبي وحزنه، كان صمتا بليغا وحزنا بعيد الحدود، لم يكن يرغب في الجدل معها ويكتفي بكلمة أو اثنتين لا ينسى أن يوجه فيها لوما أو عتبا لأمي، وكان يعذر الناس الذين امتنعوا عن التواصل مع عائلة رزاق وطالما سمعته يقول «حقمهم

الحكومة ما ترحم ابد» .

ليس بالنسبة لقضية إعدام رزاق وحده، بل لكل من ذهب ضحية اعتراضه أو انتقاده أو معارضته لصدام، لم يكن هناك من يسمح لنفسه بأن يشكك، أو يلوم ضحايا معارضة السلطة، رغم ما يتعرّض له أقاربهم وعوائلهم من تنكيل، وتعسف. إن أحدا لم يكن يجرؤ على السؤال حول جدوى، وفائدة، ما يقوم به هؤلاء الشباب، كان «الجميع» يتحفّظ على أي أسئلة تشكك بنوايا وأنشطة معارضي السلطة. لذلك لم أسمع أي لوم على ما فعله رزاق وصحبه بأنفسهم وبأهلهم، هل كان هؤلاء الضحايا هم من يمنح الناس الأمل بنهاية صدام حسين؟ وقبل ذلك هل يمكن أن يمنح الأمل شباب لا يملكون سوى الحماسة في مواجهة سلطة جهنم؟

في أيلول من عام 1988 أبلغت دائرة الأمن عائلة رزاق بأن عليهم المجيء الى إحدى دوائرها لتسلم جثته هو وشقيقه؛ اللذين أهدما شنقا، ذهب عمّي علي مع عجاج لتسلم الجثث، كان فعله بقدر ما فيه من شجاعة وتعاطف مع عائلة عجاج إلا أنه لا يخلو من «تهوّر»، فكان سهلا بل ومتوقعا أن تعتقله الأجهزة الأمنية، وليس بعيدا ايضا أن تضعنا في دائرة الاتهام وهذه وحدها كافية لمنعنا من ممارسة حياتنا بصورة طبيعية، لم يكتف والدي بما قام به أيام اختفاء رزاق وشقيقه بزيارة العائلة، بل أصرّ بعد دفن الجثث على التواصل مع صديقه عجاج، ولا زلت اذكر أنه بعد أن زارهم عقب دفن الأشقاء، نقل عن عجاج قوله بحسرة وألم إن «أجسامهم زركة وركابهم (رقابهم) صايرة مثل الحبل».

كيف وصل هؤلاء الشباب الطيبون الى حبل المشنقة ؟ لماذا «تمرّد» رزاق على السلطة؟ هل كان مدفوعا بمصلحة شخصية؟ ام أراد تخفيفا ما من سعي جهنم؟ وقبل ذلك كيف حولّ رغبته بالمعارضة الى حقيقة مستعد لدفع ثمنها؟

مضت سنوات طويلة وانا لا أعرف كيف انتمى رزاق لتنظيم سياسي معارض للسلطة، كان حجم الخوف الذي يحيط بأي سؤال عن قضية سياسية يمنعني من أن أسأل ليس فقط عائلة رزاق بل حتى أصدقاء كانوا يعرفون تفاصيل دقيقة عن التنظيم،

لكن حسن حظهم هو الذي نجّاهم من الموت، وبعد سقوط نظام صدام، اهتديت الى الطرق التي أوصلت رزاق لحبل المشنقة، كان في طريقة تنظيمهم من الألم ما قارب ألم خسرانهم نفسه، فقد كانت القصة كلها «توريط» جرى على يد السلطة، حيث فتحت أبوابها ورعت تنظيمهم بنفسها.

في قصة رزاق ورفاقه، كان «البطل» هو معارض سياسي يعيش في إيران، وكان يسكن في منطقة مجاورة للكمالية، وله فيها أصدقاء وأقرباء، دخل العراق عام 1986 للعمل على كسب الشباب الى صفوف تنظيمه، ووقع بيد الأجهزة الأمنية، لكنها لم تعدمه، بل فتحت له الأبواب على مصراعها وحولته الى أداة طيعة بيدها، خرج من «مديرية الأمن العامة» مرتبطا بالعميد قاسم مسؤول القسم السياسي فيها، بدأ نشاطه في مفاتحة عدد من الشباب على العمل معه، افتتح عمله باثنين فقط، وأوكل لكلّ منهما مسؤولية مفاتحة شخصين آخرين لا أكثر، شرط أن يكون دقيقا في اختيارهم، ووجه الدقة التي تريدها أجهزة الأمن هو أن تكون لديهم رغبة وحماسة في تقبل العمل، أما لماذا التدقيق على هذه الصفات فلأنها تريد أن تسبق الأحزاب المعارضة في كسب الشباب، وحين يكون التنظيم مسيطرا عليه من قبل الأمن ويضمّ الشباب المندفع والمتحمس فستكون قد كسبت الجولة مسبقا «واجتثت» هؤلاء الشباب وفوتت الفرصة على الأحزاب، ولكي يعطي «قائد التنظيم الوهمي» انطبعا جادا؛ كان يبدو لهم حذرا ودقيقا، وفي نفس الوقت منحه هالة «المعارض» المستقر في إيران الكثير من المصداقية والثقة، بدأ نشاطه بتزويد الشباب بالكتب الدينية المحظورة (وربما كان كتاب «الملاحم والفتن» الذي أعارني إياه رزاق أحدها) وفعلا نجح في توريط أول مجموعة، وكانوا طلبة في كلية القانون، وتوالى عمله فانضم اليه شقيقان، مهندس ومدرس، ثم شقيقان آخران، أحدهما طالب في كلية الإدارة والاقتصاد والآخر في كلية العلوم، وانضم اليهم رزاق وكان طالبا في إعدادية الصناعة وشقيقه فاضل وكان حينها جنديا. يبدو أن «قائد التنظيم» حزم أمره على إبادة عوائل وليس أفرادا فقط، يبدأ اجتماعه بمجموعته، بفتح صحيفة من صحف النظام، ويلعن صدام حسين الذي

«حسّمت محكمةنا القضية المرقمة 16 / 1988 (أمن عام) بالدعوى 728 / ج /

1988 الخاصة بالمتهمين قاسم محمد شمخي وجماعته وقرّرت ما يلي:

هـ — الحكم على المجرمين ضياء اسماعيل ابراهيم ورزاق عجاج سرحان بالإعدام
شأننا حتى الموت وفق المادة 175 / 2 ق ع بدلالة قرار مجلس قيادة الثورة المرقم
1370 في 13 / 12 / 1983 ومصادرة أموالهم المنقولة وغير المنقولة.

و - اعتبار جريمة المدانين أعلاه جنائية عادية مخلة بالشرف عملا بقرار مجلس قيادة
الثورة المرقم 61 في 17 / 1 / 1988 .

ز - مصادرة الرمانات المضبوطة والتصرّف بها أصوليًا.

كان المحكوم الأول في القضية «ضياء اسماعيل ابراهيم» زميلا لنا في المدرسة، وكانت
شقيقته التي تكبره صديقة لشقيقتي، وتزورها بشكل مستمر، ولكنها انقطعت عنها
عقب إعدام شقيقها، وحين زارتنا بعد فترة ليست بالقصيرة، كان الحزن قد حولها
الى عجوز، ولم أكن أعرف أن ضياء قد حكم مع رزاق بنفس القضية، إلا بعد زيارة
شقيقته.

في 15 أيلول 1988 دعي والد رزاق لتسلّم جثتي ولديه، اللذين أعدما يوم 4 أيلول، لم
يكمل رزاق عامه العشرين حين التفّ حبل المشنقة على رقبتة لينتهي بفضاظة حياته
السريعة، ولم يترك وراءه أي أموال لتصادرها الحكومة كما ينصّ قرار إعدامه، التي
تصف ما ارتكبه بـ «جناية عادية مخلة بالشرف». رفع رزاق مرساته ورحل تاركا
لنا بعض ذكريات، وروحا محبة، وصفاء ليس له مثيل، ويا لجمال ما ترك.

فاضلا راضي

إن حزنا في ساعة الموت
أضعاف سرور في ساعة الميلاد
المعري

في أحد أطراف ساحة كرة القدم المجاورة لبيتنا، تريض أربع غرف مبنية من الطين سكنتها عائلة راضي أبو شوارب، المكوّنة من راضي وزوجته هندازة وشابين وبنات ويعيش معهم كلبهم «حطاب» الأقرب الى وداعة قط. كان راضي عصبيًا، حادّ المزاج على الدوام، وكان غضبه شديدا على الأطفال الذين يزعجونهم بلعب الكرة قرب خرابته، لم يزد تهديده عن الصراخ والسباب. يعمل راضي في مخبز حكومي لإنتاج الصمون في كراج الأمانة، وبحكم صداقته مع والدي كانا يتبادلان الزيارة بشكل شبه يومي، أما والدتي فكانت تشارك هندازة حياكة السجاد في بيتها الطيني، لذلك كان تواجدي في بيت راضي جزءاً من يومياتي.

لم تكن شوارب راضي التي ترتفع أطرافها حتى تكاد تلامس عيونه هي فقط ما يميز شخصه بل تضيف له ضحكته ونبرة السعال التي تنتابه باستمرار ميزة أخرى، تجعل منه «كاركتر» متفرداً يحفر له في الذاكرة مكاناً عميقاً، فقد كان حاداً في ضحكته وفي كحّته المستمرة وفي سلوكه أيضاً، كان أشدّ ما يقلق حياة راضي ويهدم سكينته هو اعتقاده بأنه وقع ضحية سحر صنعته له امرأة كان يعرفها أيام شبابه بعد أن رفض الزواج منها رغم إلحاحها، فتحوّل حبّها له الى كراهية، فصنعت له سحراً أدخلت من خلاله بعض الشعرات النجسة في باطن قدميه، يقول إنّ حياته تبدّلت منذ ذلك اليوم ووهنت قدماه. لم أسمع من أهلي أو من الجيران أي مناقشة أو اعتراض على تفسير راضي لحالة الإرهاق في أقدامه، بل بالعكس هم مقتنعون بتفسيره ومتعاطفون مع محنته، وغالباً ما ساعدوه في البحث عن أشخاص لهم القدرة على إبطال سحر حبيبته وإيقاف مفعوله، وظلّ يعتقد أنّ رجليه هما ضحية الشعرات النجسات، فكان يقضي جزءاً من الليل في وضعهما وسط قدر من الماء الحار لتقوم ابنته أو زوجته بتمشيط أسفل القدم بغصن من نوع خاص من الشجر، يسمى بشجر «العصف».

في بيته الطيني يعيش راضي كشيخ قبيلة، يحبّ الطعام الدسم، ولا يخلو بيته من «الدهن الحر» الذي يفرط في تناوله، يخلق لحيته يومياً ويهتمّ بنظافة ملابسه بشكل لافت. كان ابنه الثاني، فاضل، شاباً متفرداً، يمتلك مواصفات القائد الحزبي، له قدرة المواجهة والجدل، وتعبويًا من طراز نادر. كان جريئاً، وفصيحا في خطاباته في المدرسة أو في التجمعات التي يقيمها حزب البعث الذي ينتمي له ويعشقه حدّ الجنون. كان ذلك قبل تولي صدام للسلطة، وبعدها بقليل.

البعض كانوا معجبين بفاضل ويصفونه بـ «المتقف»، وآخرون كانوا يسخرون منه، ومنهم من يحسده على جرأته، كان يقف ليرتل كلمته «الجماهيرية» ويلقيها بإيقاع يثير الانتباه، لا يتردّد في مناقشة فكر البعث وبرنامجه وسياسته مع أي شخص وفي أي وقت. تغطّي جدران غرفته الطينية صورة تجمع صدام حسين وأحمد حسن البكر وهما يرتديان بدلتين بيضاويتين، لا يسمّي الرئيس وناثبه بأسمائهم حتى في

الحديث العادي، بل يستخدم ألقابهم الحزبية والرسمية، وكأنه وسط تجمع حزبي، لم يكن يهتم بعلاقات الحب مع البنات، ولم يعرف عنه يوماً أي علاقة مع الجنس اللطيف، لا عابرة ولا قارة، لا جنسية ولا عذرية، ربما كان شغفه بـ«البعث» قد سلب منه روح الشباب ومغامراته ونزواته، أو قد يكون الفقر هو السبب. وباستثناء حبه لكرة القدم لم يكن أي حب يداني حبه للبعث.

لا زال كثير من أهالي الحي يذكرون «خطبته» الحزبية التي بدأها بالنظر الى آخر صفوف الحاضرين لينادي على والدته «هندازة»، العجوز المصابة بضعف البصر، كأنها فعلاً قد دخلت الحشد حين ناداها، ليتحدث معها عن إيمانه بحزب البعث وبسلطته وقادته، كان غريباً في ممارساته، ومنها أن شجاراً عنيفاً حصل عقب مباراة بين فريقه وفريق خصم، فدعا في اليوم التالي كلا الفريقين الى الحضور في الملعب نفسه الذي حصلت فيه المشاجرة وحين اجتمع الحضور، أخرج فاضل ورقة من جيبه ليقرأ عليهم خطبة في التسامح والتعاقد ونبذ الأحقاد، كان فعله هذا ينم عن ممارسة متفردة بين شباب منطقة شعبية لم يكمل الكثير منهم الدراسة المتوسطة. أكمل دراسته في معهد الإدارة في كركوك بعد مضي أكثر من عامين على بدء الحرب مع إيران، والتحق بجبهة الحرب في جبال السليمانية، ولم يلبث أن قتل فيها، ظلت جثته ملقاة ما يزيد عن شهر في ما يسمى بالأرض الحرام، وهي المسافة الفاصلة بين الجيشين، العراقي والإيراني.

ذهب شقيقه الأكبر الى الوحدة العسكرية التي ينتسب لها فاضل ودخل الأرض الحرام ووصل الى جثة شقيقه، وجيء بها ليلاً الى بيت حسين الحمزة صديق والدي وقريب عائلة فاضل، المقابل لمركز الشرطة، فزعنا الى بيت أبو علي وهو بضع غرف متناثرة ومنفصلة عن بعضها، وضعت الجثة في غرفة وأغلق عليها الباب، سحبني والده من بين الناس ليطلب مني أن أدخل إليها وأفتح التابوت لاتأكد أنّ الجثة لفاضل، لم أقو على الرفض تعاطفاً معه أو ربّما خوفاً منه، يومها لم يتجاوز عمري الخامسة عشرة، دخلت الغرفة ووقفت أمام التابوت؛ مددت يدي لأفتح الغطاء، ارتجفت وأنا أحاول

رفعه، لكنني لم اتوقف، كانت «رجولتي» تمنعني من الصراخ والهرب، رفعت الغطاء بعد تعثر، وظهر كيس من النايلون يلفّ الجثة، كان أصفر اللون بسبب قدمه، لذلك حجب الوجه بالكامل، أضاف هذا لخوفي حملا جديدا، رفعت غطاء النايلون ونظرت وجه فاضل بانفه الملفت في طوله وشعره الخفيف، كان يغطّ بنوم عميق، خرجت بهدوء مفتعل كي أبدو شجاعا، اقترب مني راضي وقلت له: هو فاضل، أطرق برأسه نحو الأرض وبكى، شعرت أنه يقاوم نفسه بعنف ليمنعها من الصراخ ولم يقو بكأوه الصامت على إشباع حزنه الكبير، دموعه لم تكف أله، أما قطراتها التي سقطت على وجنتيه فكانت جزءا من نهر كبير يمتدّ على مساحة روحه.

فسّر البعض بقاء جثة فاضل في الأرض الحرام أن أصحابه امتنعوا عن المخاطرة بأرواحهم والمغامرة بسحب جثته من الأرض الحرام، فالجثة مرصودة من قبل الإيرانيين، والاقتراب منها يعني الموت، وقال آخرون إن امتناعهم لم يكن بسبب الخوف بل لكرههم لفاضل بسبب شدة إيمانه بعقيدة البعث وشراسته في مواجهة غير المؤمنين بها أو المعارضين لها، لذلك ذهب شقيقه الى وحدة أخيه الميت وهدّد بايصال الأمر الى جهات عليا فيما لو بقيت جثة شقيقه مرمية في العراء، ورضخ الضباط واستعادوا الجثة بالتعاون مع شقيقه. وبغض النظر عن أسباب رفض وحدة فاضل استعادة جثته، فان كون هذا الكلام مجرد إشاعة بثت في المنطقة فانها تعكس نوعا من التمني بل وربما التشفي به، بسبب صدق إيمان فاضل بالبعث.

حياة فاضل وسط حيننا وعلاقته مع محيطه التي تذبذبت بين التقبّل والإعجاب والرفض ثم الاستنكار، هي بمعنى من المعاني تعبّر عن العلاقة بين البعث والمجتمع، كان فاضل في شبابه إبان سبعينيات القرن الماضي يحظى بإعجاب أقرانه من الشباب، الذين وإن لم يعتبروا عن ذلك أمامه لكنهم لم يخفوه بعيدا عنه، كان صادقا في عقيدته السياسيّة، ومنظما في نشاطه الحزبي وفاعلا فيه. ولم يكن البعث خلال السبعينيات قد فعل بالناس ما فعل بعدها من جرائم ومجازر وأخطاء، وبغض النظر عن النخب والأحزاب السياسيّة المعارضة، كان البعث يحظى بنوع من التقبّل الشعبي، وأضافت

له السلطة التي تريّع عليها، سببا آخر للانتشار والتّوسّع، لم يكن البعث نخبويا ولا أتباعه خياليين أو متعالين على الناس، ربما عرف الكثير من الناس حقيقة البعث وطبيعة فكره الشمولي والأرهابي قبل أن يصل للسلطة، لكن هؤلاء العارفين كانوا قلة قليلة، أما الأكثرية فكانت لا ترى فكر البعث وممارساته التي انكشفت بمرور الأيام أو تغيّرت على يد قيادات ما بعد السلطة، وهناك من قال إن البعثيين من غير القادة كانوا بعد فترة ليست بالقليلة من توليهم السلطة عام 1968 «يخجلون» من كونهم حزبا حاكما، ويتعاملون مع الناس بنوع من الاحترام والتّوّد، ولذلك كان الكثير من قادة البعث قد عارضوا صدام حسين بعد أن وصل للسلطة أو قبل ذلك بسبب ترفه وعيشه الباذخ، وربما كان علي صالح السعدي القيادي البعثي الكبير أشهر من استنكر على صدام حياة الترف والثراء التي يعيشها لكنه لم يكن الوحيد .

هل يمكن أن تكون علاقة فاضل بأهل منطقته صورة مصغّرة عن علاقة البعث بالمجتمع؟ وهل يمكن فهم الفجوة بين حزب حاكم وشعب محكوم من خلال علاقة شاب بعثي بمحيطه الاجتماعي؟ سأرد بالإيجاب وأسمح لنفسني أن تمضي وراء هذه الفرضية، ومعها سأحاول أن الملم ذاكرتي واتوسع فيها لكي أبعد عن نفسي أي مشاعر غضب أو رفض أو استنكار تركها تاريخ طويل من القمع والتنكيل مورس بحقّ الناس دون رحمة من قبل البعث. وأنا أكتب ما تمليه علي ذاكرتي أجد نفسي ملزما بأن اعتذر مسبقا لكلّ من ظلّ حبه لفاضل كبيرا وصادقا، اعتذر لأرواح راضي، وهندازة، ولشقيقه، وشقيقاته على نكثي لجراحهم التي طوتها السنوات عقب مقتله وحملت الكثير من الأحداث الحزينة والهموم الكبيرة.

هل ظلّت مشاعر الناس تجاه فاضل على حالها في كل فترات حياته؟ سأكذب بالتأكيد حين أقول إنها فعلا بقيت على حالها، أبدا، لم يبق نسيج الجدل والحوار والاختلاف بين فاضل ومعارضيه فكره الحزبي على ذات المنوال، فاذا كانت الناس وخاصة الأصدقاء والجيران في أواسط السبعينيات لا تتردّد في الكلام الصريح والصادق وهي تعبر عن أفكارها بلغة صريحة أمام شاب بعثي، فإنها ومع مرور الأيام تحوّلت الى كائنات

مرعوية من فكرة أن تجادل بعثيا في عقيدته وفي أخطاء حزبه فضلا عن جرائمه. من جانبه انتقل البعث أيضا من مرحلة الشباب الى مرحلة صلابة الرجولة وحدتها، ومن الخجل لكونه حزبا حاكما الى غلاظة القتل الجماعي من أجل الحفاظ على سلطته. لقد تبدلت مشاعر الطرفين وأدوارهم، فخجل البعثي أصبح «صلافة» واستهتارا، وصراحة الناس مع البعثي انتهت وحلّ بدلها الرعب. ولأنّ الناس قد شاهدت تحوّل البعث الى أداة للقمع يسخره صدام حسين وفق ما يشتهي وحده، فإنها أيقنت أن الركون الى الثقة المسبقة بالبعثي هو نوع من المخاطرة يصعب توقع نتائجها. وفي قصة فاضل مع الموت سيكون تمنى مصيرا للبعث مشابها لمصير فاضل شيئا مفهوما ومتوقعا.

جيل الثورة

البعثي الحقيقي لا يأمن لأي شخص تشكل فكريا قبل
الثلاثين من تموز عام 1968.

كنعان مكية

كتابه « القسوة والصمت »

أطلق حزب البعث على من ولد عام 1968، تسمية «جيل الثورة»، كانت التسمية حقيقية، ليس من زاوية البعث «التعبويّة»، التي حاول من خلالها تكريس هذه الصفة عبر أدبياته، بل كانت التسمية حقيقية من وجهة نظر الجيل نفسه، جيل 1968 عاش في عهد الشموليّة، وتربّى على أحاديّة الحزب، والقائد، والفكر السياسي، والإعلام، وتعاطى مع التعدديّة التي زخر بها العراق على أنها جزء مهمل أو مزفوض

من الماضي، وأن عليه أن يتعامل معها بالكثير من عدم الاكتراث. جيل 68 لم يشهد ممثلاً في المسرح السياسي سوى البعث، ولم يدرس الحياة السياسية التي سبقت 1968 إلا باعتبارها مرتعا للصوص، والعملاء، والخونة، الذين تطهّرت منهم البلاد على يد البعث.

أما التعددية فقد تلاشت أمام سطوة المركزية العربية، و«القطر العراقي» لا يعرف إلا بانه جزء من الأمة العربية وعليه أن يسخر إمكاناته المادية والبشرية لخدمة هدف الوحدة العربية المقدس، لم نستهنج فكرة أن على الجميع من غير العرب أن يلحقوا بركب العروبة مقدمين ولاءهم المطلق لسلطتها، لقد أهمل كل ما هو غير عربي أو اعتبر زائدة دودية تركتها الجغرافية، والهجرات، والحروب على نقاء عروبة العراق، ولم يعد انتماء الكردي أو التركماني الى حزب عربي، عنصر في اسمه، و شعاره، وخطابه، وفكره، وممارسته، مستهجننا أو غريباً، كان على الداخلين لحظيرة الفكر البعثي الشوفيني أن يتنكروا لعرقهم وقوميتهم، كنا نضع الأصل العربي النقي في مكان مقدس ومركزي ونعتبره معياراً تقاس على ضوءه درجة الوطنية، والولاء، والاخلاص. لقد سرت روح حزب البعث التي تعامل بها مع الكرد في دماء الجيل العربي، «جيل الثورة»، ورسمت العنصرية البعثية صورة الأكراد في أذهان هذا الجيل بأنهم يكرهون العراق، و يتوارثون التآمر عليه جيلاً بعد آخر، وبسبب انفصالياتهم وسعيهم لتمزيق وحدة العراق كانت جرائم القتل، والنفي، والتطهير العرقي، والتغيب، التي أذاقتهم إياها السلطات المتعاقبة، مستحقة، أو مبررة، أو مقبولة، أو مفهومة، أكثر مما هي مدانة ومرفوضة. أضاع جيل 1968 بوصلة الحقيقة والحق، بعد أن زرعت فيه الكثير من بذور التطرف، والعنصرية، والغرور القومي البليد.

أما أنظمة الحكم التي سبقت البعث فقد عدها خطاب السلطة متخلفة، ومتآمرة، بدءاً من النظام الملكي الذي وصف بالرجعية وصنيفة الاستعمار، مروراً بـ«قاسم الدكتاتور»، والأخوة عارف وخاصة عبد السلام «التآمر الكبير والانقلابي الرذيل». والغريب أن مناهج دراسة تاريخ العراق الحديث في جميع مراحل الدراسة لم

«تمتدح» أو «تستحسن» أو «تثني» على أي نشاط أو حركة قامت بها السلطات أو حتى القوى المعارضة لها التي سبقت البعث، وباستثناء انقلاب رشيد عالي الكيلاني لم يقع أي فعل يستحق أن يدرسه التلميذ وهو يعيد شريط نصف قرن كامل سبق وصول البعث الى السلطة. على جيل الثورة إذن أن يعيد اكتشاف بلده من خلال فكر موغل بالعنصرية، وتمجيد الذات، ويضع عيون البعث بديلا عن عيونه.

أما الأنظمة العربية فليست أعرف نظاما واحدا لم يكن في يوم من الأيام عدوًا لدودا لـ«العراق». ولا زالت أوصاف البعث السلبية للأنظمة العربية عالقة في ذهني، فحافظ الأسد سمّي بالخائن وبيائع الجولان، أما الملك حسين فقد تربّع لفترات طويلة على «عرش الخيانة»، في حين احتلّ السادات صدارة الترتيب في الخيانة فهو «أبو رغال العصر». كانت كلمة «الخيانة» هي الأكثر تداولًا في خطاب البعث، حتى بدت رخيصة ومموجة لحدود كبيرة. وحين وقعت الحرب مع ايران احتفظ حافظ الأسد وحده باللقب فهو الوحيد الذي لم يقف مع العراق، أما الآخرون، من عرب الخليج الى بربر المحيط فلم تظلم نيران التخوين والتجريم، ولكن حافظ من دونهم احتفظ بلقب الخائن حتى أن إلحاق كلمة الخائن باسمه بدا وكأنه فعل «طبيعي» ويخرج أحيانا بشكل عفوي حتى من قبل الناس العاديين وفي لحظاتهم الحميمة. كان جار لنا على علاقة حبّ مع فتاة في المنطقة، وصلت الأمور بينهما الى درب مسدود، فقد عرفت الفتاة أن حبيبها «العوبان» وأن أجندة حبيبته لا تضمّ اسمها فقط بل هناك كثيرات سواها، وكلّما طلب منها الصفح والغفران، جاءه الرفض مشفوعا بكلمة خائن، وفي يوم ما وجد نفسه مضطرا الى إيقاف شقيقتها في الشارع طالبا منها التوسط بالصلح، فردت عليه بثقة تامة : «خائن»، فصرخ صاحبا:

— شنو القصة؟ خائن، خائن، يا هو اللي يحجي ويأي يگول خائن، حافظ الأسد أني؟

وبالعودة الى الشخصيات الكبيرة من الخارجين عن ربة البعث فقد رسمت لهم أجهزة إعلامه صورا متعددة لكنها لم تخرج عن أوصاف العدو الشرير، فهم خونة،

أو مندسون، أو شعوبيون، أو متآمرون. باقر الصدر، ملا مصطفى البارزاني، الجواهري، فهد، عبد الرحمن البزاز، وغيرهم، كانوا بنظر البعث أعداء للوطن. لقد وجدنا، نحن جيل 1968 أنفسنا في متحف العداة والتخوين، لم نسمع صوتا غير صوت البعث، ولم نع أي حقيقة غير تلك التي ربّتنا عليها شموليته، تشكل وعينا على فكر البعث و«مبادئه». لا دخل لي هنا بالزمن الذي يقطعه أبناء ذلك الجيل من أجل الوصول الى حقيقة البعث وفكره، بل اتحدّث عن الثمن الذي دفعه من أجل أن يرى شيئا آخر في الأفق غير الذي انعكس على حياته وفكره هو كجيل، فإذا كان البعث يتحدّث عن «الزمن» باعتباره معيارا لتمييز الأجيال الثورية عن سواها، فإن الجيل نفسه يتحدّث عن «الثمن» الذي دفعه لاكتشاف الخديعة التي مورست عليه، وبين «الزمن» و«الثمن» اختلاف جوهري. هو، وأعني البعث، يتحدّث عن نقاوة الجيل وثوريته، عن «الضحية» التي توارت خلف هيجان فكره، والجيل نفسه يتحدّث عن «التضحية» التي دفعها ليكتشف ما وراء فكر البعث ولغته الرومانسية المخادعة من حقائق وأكاذيب، كان جيل 68 هو «الجيل الضحية» و«جيل التضحية».

في تموز عام 1986، وهو الذي بلغ فيه مواليد 1968 عامهم الثامن عشر، كتب رئيس تحرير مجلة «ألف باء» الحكومية، افتتاحية العدد تحت عنوان «جيل الثورة» قال فيها:

«إن خريجي هذا العام الذين يدخلون بعد أشهر المرحلة الجامعية، هم من مواليد العام الذي قامت فيه ثورة 17 - 30 تموز الخالدة، فعاشوا كلّ سنوات عمرهم في ظلّ الثورة، ونهلوا من مبادئها، وتمتّعوا بخيراتها، ولم يتغنّوا بقصائد غير التي تتغنى بها، وعلى هؤلاء تقع أعباء إضافية، هي الدفاع عن الثورة وحمايتها وصيانتها، وقد أثبت طلبتنا، أنهم أهل لهذه المسؤولية، فبارك الله فيهم وهم يبديّون مرحلة جديدة من حياتهم، ليتسلّموا الراية من الجيل الذي عاش سنوات ما قبل الثورة، وعانى ما عاناه في العهود السوداء، وكافح، وناضل، وضحّى، وفجّر الثورة لتكون خيمة تعيش في ظلّها أجيال جديدة، وتحية للثورة الخالدة التي نحتفل بذكراها الأسبوع المقبل،

كان لي ثلاثة أشقاء مضوا الى جبهات الحرب مع إيران بعد شهور قليلة من بدايتها، حزن أُمي عليهم لا يشبه حزننا أبداً، تبكي وهي تردّد شعرا يحكي لهفتها عليهم، كانوا مغنمها الوحيد في عالم شحيح كما تقول لحظة استذكارهم، حين ينضب الشعر تنضب دموعها، وتمسح بفوطتها الخشنة آثار دمعها من على خدّها، تهزأ من الأكل والماء، ولظالماً رأيتها وهي تنظر لصحن الطعام بعين الساخر من لذته، وعندما يأتي أحدهم في إجازته الشهرية، تبدو وكأنّها راقصة بالية، رشيقة، بفعل الفرحة الذي يدبّ في عروقها، يتبدّل دمه، ولونها، ويغدو صوتها رقيقاً كصوت أميرة، تطبخ دجاجة كانت قد نذرتها للإله حين تراهم. لكن عمر فرحتها كان قصيراً، لا يتعدّى أيام إجازاتهم الشهرية، وحين يعودون الى ساحة الحرب تعود لتمارس طقوس عبادة الحزن، كانت مفزوعة من احتمال تلقّيها خبر موتهم، وتساءل مستغرّبة، ترى هل يمكن أن يتركهم الموت؟ هي أشبه بمن يتوسّل هدية من لئيم، تارة تساوم ملك الموت بروحها، تخاطبه كأنّه يجلس قبالتها، اتركهم أحياء وخذ مني حياتي، دعمهم يكملوا رحلة شبابهم، تذكره أن كلّ واحد منهم أعطاه لها ولي من الأولياء، أحدهم كان هبة «أبو اليمّة»، والآخر وهبه لها «أبو الجوادين»، والثالث كان من «أبو الفضل».

كانت تحفظ أسماء وحداتهم العسكرية، وحين يقع هجوم في جبهات الحرب، تجلس أمام التلفزيون لتستمع للأخبار وهي لا تتعدّى بيانا أو أكثر تصدره القيادة العامة للقوات المسلحة، يصوغه صدام حسين بنفسه وخاصة في المعارك الكبيرة والحاسمة، كان تركيزها ينصب على أسماء الوحدات التي تشارك في المعركة وحين يذكر البيان اسم وحداتهم العسكرية، تلجأ الى الدعاء من الله أن يحفظهم ولا تنسى أن تتوسّل به لينهي حياة صدام حسين بأبشع طريقة، ما تقوم به نهاراً، تعيده ليلاً، البكاء.

وحين أجد أُمي وسط لوعتها، أترك المنزل، وفي مرات كثيرة كنت أمشي في الشوارع دون هدف، ألوذ بهروبي من حزنها عسى أن أنسى ألمي عليها، لكنني أظلّ أحوم حولها في خيالي، وكثيراً ما سألت نفسي ماذا لو لم يكن لها أولاد؟ ألم تكن حياتها أفضل من دونهم؟ في تلك الأيام تشكّلت الكثير من تفاصيل روحي، فمضت على غير ما يجري

عليه مسار الطفولة، لم أعد مشغولا بمكرها ولهوها، ولست معنيا بإعادة اكتشاف العلاقة بين جسدي والعالم الخارجي، بين الأنثى والذكر، أو بين العبد والمعبود، بل تمضي نحو أسئلة شائكة تتعلق بالوجود، بالإله الذي تركنا نبحر في بحر عاصف، بالعدالة التي بحثنا عنها طويلا ولم نجد لها أثرا.

حين أوشكت الحرب مع إيران على نهايتها جاء لأمي من يخبرها أن ولدها «فلاح» فقد في معركة حلبجة، وكان ذلك في آذار من العام 1988، تاركاً لها أربعة أحفاد، ثلاث بنات وولد، هو الأصغر، أضاف أحفادها لأرض حزنها الكثير من أنهار الدمع، فاستعدت لمعركة البكاء الطويل، كانت تضعهم حولها وكأنها تريد أن تغسل أجسادهم الغضة بماء عيونها، ليس صدام حسين وحده من تحمله المسؤولية وتصب عليه اللعنات في ما حل بها من مصائب، كانت ترمي السماء والأرض بنيران أسئلتها، على أنها اهتدت أخيراً إلى سبب جديد وراء مصيبتها وهو تخمير الطرشي الذي قامت به كئنتها ولأول مرة قبل أيام من خبر فقدان ولدها، فهي تعتقده سبب المصيبة، هو الذي أفقدها ولدها، لوثت نجاسة التخمير بيتها فحلت عليه لعنة الرب، وقع المحظور، وفقد ولدها تاركاً لها أربعة يتامى.

كان الأمل بنجاته أقرب إلى المحال، فإذا كان ملك الموت قد أخطأه عشرات المرات في المعارك «العادية» فكيف يمكن أن ينجو من رائحة الكيماوي ونيرانه؟ الحديث عن حلبجة شغل العالم يومها، حيث جرت فيها مذبحة كبرى قتل خلالها أكثر من خمسة آلاف إنسان بعد أن ألقى عليها «علي حسن المجيد» أسلحته الكيماوية، وسمي بعدها بـ «علي كيماوي»، ومن المفترض أن يكون فلاح وسطها، ومع هذا الخبر الأليم، توقف حظها عن العمل، وهو الذي وقف معها ثماني سنوات، لقد أصيبت هذه المرة «بصاحب الأولاد» كما تسميه، كانت تدخن بشراهة، واكتفت بالسيكارة غذاء وصديقا، جفّ بلعومها، وتغير صوتها، وبدت «البحّة» فيه قاسية قبل أن تفقده لما بقي لها من سنوات، ظلت تداوي حزنها بالصمت، رافضة الطبيب والدواء حتى تبين أنها مصابة بسرطان الحنجرة، اكتشف المرض في مراحل يمكن فيها إيقاف تدهوره والسيطرة

عليه، قرّر الطبيب المعالج إجراء تداخل جراحي طالبا منا إدخالها الى مستشفى مدينة الطبّ لإجراء العملية، أدخلت المستشفى وأجريت لها الفحوصات قبل يوم واحد فقط من الجراحة، قال الطبيب إن صوتها سينحبس بعد العملية، جرت الأمور على ما يرام لكنها في اللحظات الأخيرة رفضت إكمال المهمة، اعتقدنا أننا سننجح في ثنيها عن قرارها معتبرين أن خوفها هو سبب رفضها، ومع مرور الوقت اكتشفنا وهمنا، فلم تنجح معها توسلاتنا وضغوطنا، إصرارها على الرفض كان شديدا، قالت ما الفائدة؟ وكأنّها لا تريد أن تتحمّل المزيد من الألم، لقد شبعنا منه تماما، رفعت راية استسلامها دون خوف وتردد، احتجاجها على هذا العالم كان بحجم رفضها لطريقة الحياة الحزينة التي عاشتها، استفحل المرض وانسحبت من مواجهته.

بعد أشهر رضخت أخيرا لرغباتنا الملحة بقبول العلاج الكيماوي، لكن المرض تمكّن منها، استلقت على الفراش أكثر من ستة أشهر لا تنام من دون أن تضع حفيدها «محمد» الذي لم يتعدّ الثالثة من عمره بجانبها، كان ينتشي بقربه منها، وكثيرا ما رأيتها وهي تنظر له بصمت وتبتسم، تلاعبه وتحدّثه وكأنّها معافاة من كل مرض، وفي النهاية ثقب المرض جلدها، وبانت أحشاء رقبتها، ولم تقو على الأكل أو الكلام، وما بقي من لحمها لم يكن سوى نصف ما كانت عليه قبل المرض، وفي فجر الحادي والعشرين من آب عام 1990، وحينها بدأت طبول حرب الكويت تفرع، ودعت حياتها، رحلت وتركتنا نواجه فصلا جديدا من فصول مصيرنا دون دمعها ونذورها.

نزح والدي ومعه أمي وطفلاهما الاثنان في العام 1957 من ريف محافظة واسط الى بغداد، كانت قريتهم قريبة من الحدود مع إيران، لا يجيد أبي القراءة والكتابة، ولا يتقن مهنة يقارع بها رغيف الخبز في مدينة ترك من أجل العيش فيها زرع، وأهله، وعشيرته، ووجد نفسه محشورا في إتونها وصخبها. وأشبه بمنفيين من أرض بعيدة، سكن أبي وأمي بعد وصولهما الى العاصمة في «عرصة» بمنطقة العطيفية ثم انتقلوا بعد أشهر الى برك السعدون ثم الى النعيرية والكيارية في بغداد الجديدة، ولأنّ حياتهم هي عبارة عن ملء فراغات، كانوا يبنون خرائبهم حيثما شاهدوا أرضاً فارغة، إنهم طارئون منذ أن ولدوا، يشبهون أجدادهم البدو الذين عاشوا قبل عصور الملكية الخاصة، على هبات الطبيعة والسلطان تتشكّل حياتهم.

رحلتهم الشاقة نحو المال حرمتهم من حياتهم الريفية البسيطة، فدفعهم فقرهم المدقع لطرق أبواب مدن لا ترحم، المهاجرون، ومنهم أبي، سرعان ما عرفوا أن شوارع المدينة أقسى من أرض الريف. المدينة تغلق طرقها أمام أمانيتهم. ظلّت همومهم وأحزانهم تدور حول قسوة المدينة وبسببها، يصعب على المهاجرين فهم تقلباتها وتمنّعها، فهي تتلوّى قبالتهم مثل أفعى وتتغنّج مثل غانية، الخوف منها واشتهاؤها يسكنان أرواح القادمين اليها من الريف، ويتبدّى خوفهم من خلال النظر الى الأماكن التي يختارونها للسكن في العاصمة، فهم يلقون رحالهم ويستقرون في أول حي يصادفهم من أحيائها، إنهم يخافون أعماقها، ويخشون مركزها المخصص للأغنياء، فيلوذون بالأطراف، فهي تقيهم شرورها، المهاجرون من الجنوب ومنهم والدي استقروا في أحياء بغداد التي تقع في مدخل المدينة، مكتفين بهذا الحدّ من المواجهة معها.

قبل أن ينتقل والدي من قريته الحدودية الى بغداد بسنوات، ارتكب جريمة، ظلّ نادما عليها ما بقي من عمره، قتل أحد أقاربه، بسبب عرف عشائري موغل بالهمجية، فقد رغب القتل أن يزوج إحدى بناته لرجل تطعن العشيرة في أصله العربي، كان كرديا لا يعلن ذلك، ولأنّ العرق العربي في نظر العشيرة أطهر، وأعلى قيمة ودرجة، اعتبر رجالها هذا الزواج إهانة لهم، برغم أنّ العشيرة نفسها هي خليط من بيوتات وأفخاذ

ربما لن تجد لها جدًّا أو أصلا مشتركا، لكنهم لم يجادلوا في هويّتها العربية في العلن، كانوا قد حسمو إيمانهم بعرقهم العربي. المهم، كان القتل شخصا شجاعا، وجريئا، وطالما سمعت أُمي وهي تمتدح شجاعته النادرة، تقول إن قتلتها وهما عمي ووادي لم يكونا قادرين على مواجهته.

كان أُمي وهو يتحدّث عن الجريمة لا ينسى سبَّ أحد أقاربه بسبب تحريضه لهم وهم شباب صغار السن، على الثأر من ما فعل مع عائلتهم، فحين قرّر القتل تزويج ابنته لخطيبها، هجم على منزله عدد من رجال العشيرة، وارتكبوا بحقّ عائلته أفعالا شنيعة، اعتدوا على النساء بغياب الرجال وأهانوهنّ شرَّ إهانة وقتلوا عددا من أغنامه، فاضطرّ الى الرحيل عن القرية، وحين استقرّ في مكانه الجديد، قرّر الثأر من أبناء عشيرته، فهجم في الليل على قريتهم، وكان من سوء حظّ عائلة والسدي أن تتلقّى الضربة في أغنامها وفرسها، فكان غضبهم شديدا، لأنهم لم يشاركوا العشيرة في اعتدائها المشين على منزله، فقد حبسهم والدهم في البيت وهم ثلاثة أشقاء، كانت العشيرة تعرف بمنع جدي لأولاده، ولكنهم ومع تلقيهم للضربة وجدوا أنفسهم مظلومين ومهانين، فقالوا، لقد ترك المجرمين وضرب الأبرياء.

كان الضحية يتردّد على ناحية جصان وهي تفصل بين سكنه الذي اختاره بعد أن ترك عشيرته وبين قرية أقاربه، وشاء سوء حظه أن يشاهده «المحرّض» فأسرع لوالدي وأخبره بما شاهد، فأخذ والدي ومعه شقيقه الأكبر السلاح، وجلسوا في حفرة على الطريق، وحين اقترب منهم الضحية وصار في مرمى الرصاص، لم يملك عمي أعصابه فرمى بنفسه على والدي ليمنعه من القتل، وتوسل بأبي أن يتركه، فوجه له والدي ضربة بأخمص «البرنو» على رأسه ورماه مغشياً عليه، برز للقتل، وأطلق عليه الرصاص، كانت «أنسة عمكم» هي آخر كلمة خرجت من فم القتل. وكثيرا ما تؤلم أُمي هذه الكلمة حين تتذكر الحادث، وهي ترويها باستمرار وخاصة بغياب والدي، الذي كان شحيحا جدا في روايتها، فلم أسمعها منه سوى مرتين أو ثلاث، وكنا بدورنا نتحاشى تذكيره بها، هرب والدي الى أحد الإقطاعيين المتنفذين لدى السلطة،

والقي القبض على عمي وقريب لهما هو ابن خالهم، وزج بهم في سجن الكوت، وطبقا للعادة، جلست العائلتان الى الفصل العشائري، سوّيت القضية بأن يزوج جدي ابنته الوحيدة المتبقية، وأخرى تعود له بصلة قرابة، لأولاد القتيل، وأن يدفع لهم مبلغا من المال، وخرج المتهمان بعد أشهر من السجن، كانت العائلتان اللتان تشكلتا عن زواج «الفصل العشائري» هما الأقرب الى نفسي من بين أقاربي، وأحببت أبناء عمتي حبا لا حد له، كانت جريمة أعقبت حبا وتسامحا لا تارا وكراهية. وسأبدو قاسيا لو قلت إنني في الحب الذي يجمع بيني وبين أبناء عمتي قد أكون شاكرا لوالدي على صنيعته في سري، لكن الحقيقة الأكيدة أن قتل إنسان لا تبرره أي نتيجة أو نهاية، فهو مدان بصرف النظر عن أي ظرف أو سبب أو نتيجة.

عاش والدي وعائلته نصف حياته في بيوت من الطين وفي نصفها الآخر كان يعمل في الطين، ورغم وقوعه في طرف من آخر أطراف بغداد إلا أنه وبعد سنوات طويلة امتلك أول بيت طابوق و«طابوق» في منطقة الكمالية.

ليست أطراف الأطراف هي فقط قصة عيش أبدانهم، بل هي ايضا أماكن أحلامهم، فهم فقراء معدمون، جلّ أمانتهم أن يكفوا مؤونتهم ويبعدوا عن أنفسهم تطرف الجوع وكفره، وحين استقروا في بيت الطابوق سرعان ما حولوه الى مفقس أطفال، عاش منهم ثمانية ومات نصف هذا العدد.

ترك أبي عمله كأجير يومي، ودخل سلك العمل في الدولة بعنوان ساعي (فراش) في أمانة العاصمة، نزع عقاله ودشداشته وارتدى ثياب الأفندية، وبوظيفته و«أفنديته» انتصر على المدينة وعنادها أو ربما خضع لسلطتها وجبروتها.

البيت من غرفتين تقاومان البرد والحرّ بإصرار، كنّا خمسة أولاد وثلاث بنات، كبراهن تزوّجت قبل ولادتي، حبه لنا كان خفيا، يمارسه باقتصاد في الكلمات وشحّ بالقبل واللهو، لم يكن عنيفا ولا يعرف لغة الصفعات، حين يعود من عمله في أمانة العاصمة كان يبيع المشويات في بسطية تجاور مقهى قريبا من بيتنا يسمى مقهى «ابو حسن». اختار العمل جوار المقهى ليس فقط لكثرة المشترين من رواد المقهى بل لأنه يتيح

له فرصة ممارسة لعبة «الدومنة» التي يحبّها بشكل لافت ويهوى معها أيضا اقتناء بطاقة اليانصيب.

كان «حسين الحمزة» صديقه المقرب مهووسا مثله بشراء بطاقات اليانصيب بكل أنواعها، وشريكا له في بسطية «التكة»، ضحك الحظ لحسين الحمزة فربح بطاقة يانصيب وكان ذلك مطلع العام 1979، لا أدري كم كان المبلغ، إلا ان حلمه بشراء قطعة أرض تحقّق، كانت أوراق اليانصيب تشعل بيتنا كلّ يوم، لم تكن أمي مقتنعة بهذا الهوس الذي يرهق ميزانية العائلة، وتعيبه عليه، كانت تفتش جيوبه، وكلّما شاهدت رزمة أوراق اليانصيب ولم يكن ليكتفي بواحدة، تزداد غضبا وانفعالا. وفي نهاية العام 1981 ابتسم الحظ له، فربح بطاقة الرافدين، كان المبلغ 6 آلاف دينار، وهو كبير بأسعار تلك الأيام، الستة آلاف دينار أسكتت أمي ستة آلاف يوم، أبقى والدي الأمر سرا، إلا أن شراء تلفزيون ملون و«كاونتر» وطقم كراسي وسجادة في يوم واحد، فضحه، فلم يعد معقولا أن يقول إن هذا الأثاث «البانخ» هو من ذاك الراتب الشحيح، فما اشتراه من أثاث يفضح ما يملك من نقود، كان خوفه من الحسد يدفعه الى الصمت إلا أن رغبته العارمة بتعويض أيام فقره وبؤس بيته دفعاه الى غضّ النظر عن عيون الناس وحسدهم.

كان لمقهى أبو حسن أثر كبير في روحي، فهو الذي حبّب لي الغناء والهيام مع الألحان، حتى غدا الغناء عشقي، لم نكن نملك تلفزيونا قبل عام 1977، ومع تلفزيون ابو حسن توطّدت علاقتي بالغناء، كانت أصوات المطربين تسقي أراضي بعيدة في روحي وتملأها بحزن شفيف لا أملك له تفسيرا ومعنى، كنت أترك تلك الأغاني وهي تأخذني بعيدا عن الأطفال والصبيان وعالمي الصغير، أتركها وهي تسحل خلفها كومة أسئلة عن معنى الحب، والقسوة، والحنان، أسئلة تطاردني بالكثير من الحيرة والنشوة معا، كنت فرحا بكل هذه الآلات وهي تمارس سحرها عليّ، تشدّ، تجذب، تبحر بي، كانت متعة لا تضاهى أعيشها وحدي، هي جزء من عالمي الروحي الصغير، لم يكن ابو حسن يسمح للصغار بالجلوس على مصاطب المقهى، فيقفون خلفها، ليشاهدوا

التلفزيون الأسود والأبيض، كان القليل من الصغار يزورون المقهى، أما أنا فأتاح لي عمل أبي أن أخصص جزءاً من يومي لتلفزيون المقهى وقليلاً ما كنت أساعده في عمله، ولا أعرف حتى اليوم لماذا أعفاني من دون أختي وأبناء عمي من مهمة إيصال طلبات الزبائن داخل المقهى أو خارجه إلا في حالات قليلة، وكانت لهذا الاستثناء فائدة ليست بالقليلة في إشباع نهمي من الأغاني .

في العام 1978 ومع بداية العطلة الصيفية، أخذني أبي الى دائرة بلدية بغداد الجديدة، التي يعمل فيها فراشا للمدير، لأبيع الطوابع البريدية، كنت سعيداً بدوري الذي أمارسه، أجلس فجراً فاستشعر الرجولة وهي تدبّ في عروقي، وفي تلك الدائرة ابتسم لي الحظّ مع الغناء وليس مع المال طبعاً، فقد اتاح لي القدر فرصة مشاهدة المطرب ياس خضر، في ذلك اليوم امتزج الفرح بالحزن، أو بمعنى آخر، انتهى الحزن بالفرح، فقد بعث طوابع لرجل بدين وأصلع، أعطاني ديناراً، فأخذته منه وأدبرت وجهي لأبحث عن «صرف» له دون أن أخبره بمقصدي، إلا انه أمسكني وصرخ بوجهي وهو يهزّني بقوة، لم أفهم ردّ فعله العنيف إلا متأخراً، فقد ظنّ أنني سأهرب بالدينار، لم أقو على منع دموعي، أعطيته الدينار وأرجع لي طوابعي، وجلست في باب الدائرة أبكي، اقترب مني شخصان؛ أحدهما كان ياس خضر بشحمه ولحمه، مدّ يده الى شعري وطيب خاطرني ببضع كلمات ورويت له ما جرى، ابتسم ومنحني ربع دينار أخضر اللون .

قلت له وأنا فرح برؤيته وبالمبلغ الذي أعطاني إياه: أني أعرفك انت مو ياس خضر؟ قال لي: اي أني ياس خضر.

دخل الدائرة، ومشيت وراءه، أتامله ملياً، ترى كم مرّة يمكن للقدر أن يمنحني مثل هذه الفرحة؟ بقيت أتابع خطواته حتى آخر المطاف حيث استقل سيارة صفراء اللون وابتعد، ظلّت نشوة اللقاء تمدّني بالكثير من الفرح. لقد منحني دفء التقائي بياس خضر الكثير من الحب للغناء .

يرتاد مقهى «أبو حسن» شباب الحي وكبار السن أيضاً، بينهم الموظف الحكومي

وعامل البناء، الرياضي والفنان، الأمي والمتعلم، وكنت أشعر بينهم بنوع من الانسجام والألفة، أحبّ أحدهم لاتصاف روحه بالدعابة، ويدهشني آخر بشهرته في لعب كرة القدم بمهارة، واتعاطف مع جمعة وأشقائه الأيتام الذين يحملون صينية «الخبز» ليلاً ونهاراً أمام المقهى. إلا أن أيام الانسجام كانت قصيرة فقد أحالت السياسة والحرب سكينه الناس إلى رماد، في الحرب عرفت أنه لا يزال ثمّة شيء غير مألوف في هذا العالم، فهو لم يخلق ليشتبع رغبات الأطفال، وليعتني بنزواتهم، الحروب والسياسة تستعجل الطفولة، تحثّها على الخطو السريع نحو الرجولة، في الحرب تحولت الأغاني إلى أناشيد تمجد الموت ورائحة البارود، ولم تعد ساحات كرة القدم للعب الكرة فقط بل لتحشيد الجماهير، لتشهد كيف يعدم الهارب من الحرب، أو لتصفى لخطب البعثيين وأوامرهم، ولم يعد المقهى مكاناً للراحة والاسترخاء فقد تحول إلى مخافة بعد أن امتلأ بالجواسيس، صفوف المدرسة تكتظّ بالحزبيين وهم يخططون لمراقبة أهالي الحي، وعلى سبوراتها تكتب مفردات الاجتماع الحزبي لا شخايبط الأطفال، ومع الحرب بدت غايات المكان عرضية وعابرة، وذاكرته ملتبسة. أعطتني ساحة كرة القدم جزءاً آخر من مشهد الموت، وهو يدور هذه المرة ليس بين إرادات البشر والصراع بين أفكارهم، بل بين إرادة الله ورغبات الشيطان، لم أعرف الدين من فتحة العبادة والنسك بل من نافذة الحرب والموت والفتك، المقهى وملعب كرة القدم كانا مفتوحاً لمعاني الصراع السياسي والعسكري، وتبدلا من كونهما مكانين للهو واللعب إلى مسرحين للصراع وتشابك القوى. حدث هذا الانقلاب في الغاية من ساحة كرة القدم، خلال أيام عاشوراء، كان ذلك في النصف الأول من سبعينيات القرن العشرين، وقبل أن تقرّر حكومة البعث إلغاء مراسم عاشوراء، في ساحة الكرة يجسد أهالي الحي واقعة كربلاء، يصطفّ الجيشان، الأموي والهاشمي، الحسين وأهله وأصحابه وهم بضعة أشخاص يواجههم الآلاف من الجنود، المشهد يخلو من النبل والرحمة، وعلى جانبي الساحة التي يمثل فيها المشهد، تقف مئات الناس وهي تبكي بحرقة، تلطم النساء على صدورهن وتصرخ، كنت مشغولاً بالحزن الذي يلفّ روحي

وبالألم الذي تركني حائرا وأنا أسبح في أمواج الدموع، كان المشهد مهولا بالنسبة لطفل لا يعرف معنى القتل والذبح، ولا يميّز بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر، أو بين الشهادة والقتل العادي، دخل الحقد بشكله المقدس والإلهي الى ثنايا روحي، وبدا العالم بالنسبة لي مكانا ليس للحياة بل للموت وانتظاره وتقديسه.

ذاكرة الخوف من الأماكن التي سكنت فيها طفولتي، تتوقف حين أعيد فتحها، أمام بيت حسب الله جارنا البدين ذي الشوارب الهلترية، كان خزعل شقيق حسب الله مشهورا بين أهالي الحي باعتباره خبيرا في استخراج الجن من أجساد الناس، بيت حسب الله سأظلّ طوال العمر أنظر له بعيون طفولتي، أخافه، أمقته، اتمنى لو لم يكن، لم يتجاوز عمري ثماني سنوات حين سمعت وشاهدت لأول مرّة كيف يصرخ الرجل بشكل هستيري، صراخ سلب مني بلمح البصر كلّ أمني وبراءتي، وجعلني أنظر للشرّ وهو يتلوّى أمامي بعصاه الغليظة، وبعرقه المتصبّب بغزارة، ولهائه العالي والمتقطع.

وجدت باب حسب الله مفتوحا، وقادتني خطواتي الى مصدر الصراخ، كانت ظهيرة صيف حارّة، مددّت ببصري، شاهدت رجلا مربوطا الى الشباك، نحيفا وبشعر طويل وأشعث يرتدي دشداشة سميكة ورثة، لا يفصلني عنه سوى أقلّ من متر، وضعني سوء حظي أمام عيون الضحيّة، وفوقها ترتفع يد خزعل الجلاب اليسرى وهي تحمل العصا لتتنزل بقوة على الجسد النحيل، يصرخ المجنون بصوت هستيري، وأشعر أن أعضائي كلّها ترتجف، لم يعبا خزعل بصراخ الرجل، هو في واد آخر، غير واد الجنّ الذي يسكنه ذلك المسكين، تتوالى ضرباته على ظهر الرجل وأرجله، كان الحبل الذي ربط به المجنون قصيرا فبقي ملتصقا بالشباك، لا يستطيع أن يتمدّد على الأرض، استغرق المشهد ثواني معدودات لكنها تكفي لأن تحفر في طفولتي أخايد من الدم والألم، هربت مثل الجنّ، ركضت صوب الباب، لم أعد أنظر لبيت حسب الله إلا بعيوني الخائفة التي هربت منه، لم أعد أقوى على النظر الى خزعل، أقرّ مرعوبا منه حين أراه، عيونه بكل التفاتاتها ووحشيتها وحمرتها، هي وحدها التي ارتسمت في خيالي وهي

ما أقوى على تذكره من مشهد التعذيب اللعين، نسيت شكل الضحية وبقي الجلاذ
برائحته، وشهيقه، وتشنجه عالقا في روحي، عشت أكثر من ثلاثة عقود مجاورا لبيت
حسب الله ولا يفصلنا سوى شارع لا يتعدى طوله امتارا قليلة لكنني أجزم أنني لم
أدخل ذلك البيت وإن مرّت به الأفراح والأحزان؛ ولا مرّة واحدة بعد ذلك اليوم، كان
بالنسبة لي بيت أشباح رغم طيبة وعفوية أهله.

الكمالية

البلاد تعتبر حضارية أكثر، بقدر ما هي طافحة بالقيم الأخلاقية الصحيحة والناجعة، التي تحمي الضعيف لكي لا يصبح أكثر ضعفا، وتمنع القوي من أن يكون أكثر قوة.

بريمو ليفي

كتابه « هل هذا هو الإنسان؟ »

بسطاء نادر وهبني الحي الذي أسكنه فرصة العيش وسط الغناء والموسيقى، ولكنه، وبألم أكبر، علّمني أول أشكال الكراهية. للكمالية قصة لا تشبه قصة الأحياء الأخرى في العراق، فيها يسكن أكثر من ألف شخص من الفجر (الكاولية) معزولين في بضعة شوارع في بداية الحي، مسلوبين من حقوق المواطنة. المدارس، والوظائف الحكومية، والتّمك، والجنسية حرموا منها عقودا طويلة، ولم يحصلوا عليها إلا حينما وقعت الحرب مع إيران، فحينها فقط أصبحوا عراقيين وأبيح لهم حق التّمك، في الموت فقط

فتح لهم الوطن أحضانه.

شكّل الألف غجري جزءا حيويا من المجتمع العراقي، حيث لم تمنعهم قلة عددهم من البروز بشكل ملفت في الغناء والرقص، يمارسون عملهم في الملاهي، وحفلات الزواج، والختان، ويمتهنون الدعارة أيضا وخاصة في سنوات الثمانينيات حيث راجت مهنتهم هذه بشكل ملفت.

العجبر علامة فارقة في جسد حي يسكنه فقراء شديدا المحافظ، وشمهم كان بارزا، وبالمقابل كان وشم كراهيتهم أكثر سوادا وقتامة، يسهر الحي في الكثير من الليالي على الموسيقى الصاخبة وصوت المطربات ومواويلهن، فيبدو كأنه ملهى شرقي كبير، أما في النهار فيلبس هؤلاء الراقصون والمطربون ثياب سجناء الرأي والضمير، فيستعدون لشتى فصول الكراهية والاحتقار، كان الصمت والحذر سلاحهم الوحيد لمواجهة ما يمرّ بهم من عذاب وألم.

عمل العجبر في الموسيقى والرقص ليس هو ما يميزهم عن غيرهم حسب، بل تضيف لهم سمرة وجوههم وطريقة كلامهم العالية النبرة تميّزا آخر، وينفرد العجبر أيضا بطبيعة العلاقات الاجتماعية والأسرية، فالنساء هن صاحبات القرار والكلمة الفصل لهن في إدارة البيت لكونهن القوى المنتجة، ويتحمّلن مسؤولية إعالة الأسرة.

ولسكان الكمالية قصص مع العجبر فيها من الكآبة مثل ما فيها من البهجة، تشبه هذه القصص ما قرأنا عن الأسياد والعبيد، فأهل الحي يشعرون بـ «عار» و«إثم» مجاورة العجبر حيث ينظرون لهم كأراذل وإباحيين. المشاعر السلبية هذه عرّضت العجبر لعنف متواصل ومحموم. كانوا محتقرين أشدّ الاحتقار، لذلك كان الاعتداء عليهم مألوقا ومنسجما مع كراهيتهم، دفعهم محيطهم نحو الإقلال من حركتهم داخل الحي حتى بدت شبه منعدمة، رقعتهم كانت شوارعهم وبيوتهم وفيها يمارسون حياتهم بحذر شديد، عزلتهم هي آخر سدود مواجهتهم لمشاعر احتقارهم، لقد ضاق عليهم الخناق وما بقي لهم إلا سجن أنفسهم داخل بيوتهم .

الصور القاسية هذه كانت تتداخل فيها صور أخرى مختلفة عنها، كانوا هم سوق

المتعة الأكثر رحابة وحبورا، كانوا «كرماء» مع كارهيهم، العلاقة الملتبسة بين العرب والغجر تمنح فرصة للتأمل في سلوك الشخصية العراقية وتناقضاتها، ففي الوقت الذي يقابل الغجر بدرجات عالية من الكراهية والاحتقار كانوا سوق متعة لا نظير له أمام المتبضعين من وزراء الى عمال، ومن تجار كبار الى فقراء معدمين، لا شروط لدخول هذه السوق، ومع الغجر يمكن أن نشاهد كيف يقابل الصوت الجميل بالحدق والعنف، والرقص بضرب الأحذية، والموسيقى بكلمات السباب والشتم، في معركة حقوق الإنسان كان الغجر يعرفون أنهم ضحايا لا يسمع لهم صوت أو رأي أو كلمة، كان الحق مع أعدائهم على الدوام.

من كل مشاهد الاعتداء على الغجر بقي مشهد واحد عالق في ذهني حتى اليوم، ففي عصر يوم شتائي بارد وأمام مركز شرطة الكمالية، إنهال شرطي أسمر اللون غليظ الشارب، بعصاه على امرأة غجرية في الخمسينات من العمر، وكلما ازدادت هذه المسكينة ألما تزداد صراخا وبالمقابل يزيد الشرطي ضرباته قوة وعددا، المعركة بالنسبة للغجرية كانت قاسية وخاسرة أيضا، لكن الشرطي لم يكن واثقا من نصره، حتى سقطت المرأة أمام سيارة الشرطة التي أقلتها الى المركز، ووقف الشرطي فوقها وهو يلهث بصوت عال ويجر أنفاسه مثل دب اصطاد ضحيته وتوقف ليستريح قبل أن يلتهمها، ومع سحل المرأة الى داخل البناية انتهت العملية، لم أعرف ذنب المرأة الذي استحققت عليه هذا العقاب الوحشي، بافتراض أن هناك ذنبا يستوجب هذه العقوبة، كان وللأسف لا يزال، مشهد ضرب الشرطة أو أي جهاز أمني الناس بالعصا، اعتياديا ومألوفا، وإلا ما مهمة الشرطي سوى أن يعذب الناس ويكون شديدا معهم؟ وحتى اليوم لست قادرا على تصوّر شرطي من دون عصا ينهال بها على الناس أو لسان يسبهم ويلعنهم، ولست قادرا على تصوّره وهو يلاطف الناس ويتحبّب لهم، الشرطة تعني الفظاظة والقسوة.

انتهى مشهد ضرب الغجرية، أدت وجهي نحو الشارع والألم يعتصر روحي، مضيت متسائلا مع نفسي ماذا لو لم تكن هذه المرأة غجرية؟ هل يقوى هذا الوحش

البشري على ضربها أمام الناس؟ إنها لعبة الأقوياء والضعفاء، أو لعبة «الشرفاء» مع الكاولية .

شعور أهالي الكمالية بالطهرانية والقوة وإحساسهم بالإهانة من مجاورتهم لعوائل غجرية تمارس عملها المشين على مرأى ومسمع الجميع، يدفعهم الى نكران الحقائق والكذب عندما يسألهم أحد عن عنوان سكنهم، فيتهربون من الإجابة بشتى الطرق، وفي حال كشف أمر سكنهم يقولون:

— الكمالية مو كلها كاولية، وهذولة بيوتهم قليلة، وما نسمح لهم يختلطون بينة، وبالمنطقة عشائر وشيوخ .

وحين يجدون أمانا وثقة بمن يكلمونه كانوا يضيفون:

— والكاولية باقين بيناتنا لأن الحكومة والتكارتة يحبونهم ونحن لا حول لنا ولا قوّة بطردهم .

كان للكثير من المسؤولين والموظفين الكبار أو أقرباء صدام علاقات مفضوحة مع الغجر، وهي صورة من صور الاستغلال والاستهانة، وفيها تتداخل التراجيديا مع الكوميديا، والقسوة مع الرقة، فكان لعلي كيمياوي مثلا وهو أحد أكثر المسؤولين المقربين من صدام فجاجة، علاقة بعدد من الغجريات يقضي معهن سهراته الماجنة، ومع عطاياه وهباته كان يهينهن ويضربهن، حتى أنه أمر «بحلاقة» شعر إحدى المقربات منه «نمرة صفر» لسبب لم يعرف، في جلسة طرب وسكر أنزل بها عقابه الفظ فأمر بحلق شعرها.

علاقة «كيمياوي» بالغجريات لا تمت بصلة للعلاقات الإنسانية الطبيعية، بل هي شكل من أشكال العبودية، فما بينه وبينهن ليس علاقة طبيعية بين رجل وامرأة، سواء كان حبا أو عشقا، محرّما أو مقبولا، بل علاقة سلطان بجواريه.

تجوب سيارات الموظفين الكبار في السلطة، مدنيين وعسكريين، شوارع الغجر بشكل شبه يومي، وكان الخوف منهم يحبس الأنفاس، يسكر هؤلاء ويطلقون العنان لعربدتهم، لم تسلم من بطشهم حتى الحيوانات، وفي مشهد جرى عام 1985 على

ما ا تذكر، ترجل شاب، يبدو أنه ابن مسؤول كبير، من سيارته التي أوقفها أمام سيارة نقل تحمل أغناما يقودها رجل كبير في السن، لم يسمع هذا المسكين صوت منبه سيارة الشاب وظل على مسيره البطيء، غضب الشاب، فأخرج مسدسه وصعد لسيارة الرجل وأفرغ رصاصاته في رؤوس الأغنام، ترجل من مكان الجريمة، استقل سيارته ومضى لا يلتفت لشيء، صعد صاحب الأغنام الى سيارته ليستطلع مشهد الكارثة الذي حل بأغنامه، كان قاتل الأغنام من ذوي الحقوق الزائدة، لهذا كان يشعر بلذة استخدام تلك الحقوق مع الأغنام، وليس مع البشر فقط.

بني مركز للشرطة في الكمالية بسبب وجود الغجر فيها، فامكانية وقوع جرائم أو جنح في شوارع الغجر عالية، لذلك يتيح وجود الشرطة مهمة حفظ الأمن والسيطرة على أي عمل يخل بالنظام العام، ولكن الشرطة وجدوا أنفسهم في مأزق كبير بعد صعود نجم التكرارة في السلطة، وعنى ذلك في حقيقته صعوبة تطبيق الإجراءات القانونية على المسؤولين وأقاربهم ممن لهم علاقة بالغجر ويرتادون بيوتهم، فهؤلاء هم موظفو سلطة لا تعبأ بالقانون ولا تعيره أي احترام فكيف يطبقونه؟

شذوذ المتنفذين لم يتوقف عند معاقبة النساء بخلق شعرهن وهي عقوبة عسكرية معروفة في الجيش، بل يتعداه الى حد الشذوذ الجنسي أيضا، كان لي صديق لديه سيارة أجرة ويصادفه في بعض الأحيان عمل مع الغجر ومنه مثلا أن يوصل الغجريات الى ملاهي بغداد أو بيوت ومزارع المسؤولين، قال إن شابا غجريا استوقفه، قبل ان يلتفت الى اثنين من معارفه من الغجر يقفان في الجهة المقابلة، طالبا منهم الذهاب معه الى حفلة «للدولة»، وسمى لهم أسماء أصحاب الدعوة، لكن الشابين رفضا الذهاب، ووسط إلحاحه، اقترب الشابين الرافضان الى صاحبي، وقالوا له :

— اخذه عمي وروح، ذولة الي راحين الهم الجماعة دكوا بينا قبل فترة، عافوا النسوان وطاحوا بينا !

كانت حفلات الأعراس في السبعينيات لا تتم من دون وجود غجريات، يرقصن ويغنين، ومشهد العرس هو هكذا: توضع كراسي الفرحة في الشارع على شكل مربع،

الفجر «الجير» و «الجبايشر»

فنّ الإجهاز على الطريدة يبدو، لعمقه البدائيّ وتأصله، كأنه فطريّ طبيعيّ يتفوّق على جميع الفنون. من جميع الجهات التي تحيط بالطريدة البائسة تملأ الأصوات: ضعوا سكّيناً بين الفكّين، خنجرأ على الحنجرة، سيفأ على الرقبة. لا تنسوا الأقدام والأيدي وليكن اختيار السلاسل دقيقاً وجيداً، لا تعذبوا جسم الأرض بحفره لاستقبال جسم الطريدة. احرقوه، أو اتركوه للضباع وغيرها من الحيوانات والحشرات اللاحمة، ولكم أن تسفوا هذا كلّهُ.... ماذا؟

ادونيس

يتشابه مصير الغجر مع مصير اليهود في العراق، سقتهم الأكتريّة عددا، والأقليّة تسامحا، من كأس المذلة ذاته، وذاقوا المصير نفسه، القوافل التي حملت متاع «الفهود» اليهودي مرّت بالغجر، فلم تترك لهم سوى أسماهم، وبعض من ذكرياتهم، مسدلة الستار على حياتهم المفعمّة بالكثير من المسرّات والأوجاع، تركوا أرضهم التي عاشوا فيها مئات السنين، هاربين بأرواحهم ليعاد عليهم مصيرهم الأول، المنفى والعذاب، رحلوا وهم يتساءلون، متى لا تكون هذه البلاد ألما؟

تبدو صورة العراق الحديث قبل أن يدخل في طور العسكر والشمولية والحروب أكثر اتساعا وتعدّدا مما هي عليه اليوم، فثمة يهود يعيشون بلا خوف ويمارسون مهنتهم التجارية الرفيعة، وطقوسهم الدينية، وثمة غجر يرقصون ويغنون ويتحلّق حولهم كثيرون، السلاطين والرعا، الأغنياء والمعدمون، المحبون لهم والشغوفون بهم حاموا كالفراش حول نار الغجر، وثمة غابات نخيل تسدّ قرص الشمس، وأهوار تتسع لغابات القصب والطيور المهاجرة، والسّمك، ويتسع تاريخها ليصل لسومر، المهد الأول للبشرية، وبين غابات النخيل وغابات القصب «بحر السومريين» امتزج الصابئة بالماء والطين، فمحتهم معابدهم، وحرفهم، وتجانسهم الاجتماعي، شعورا قارّا بالأمن والسلام. هذه التعددية الدينية والعرقية انتهت كلمح بالبصر، واليوم تبدو الصورة كالحة لا يبرز فيها سوى غبار التطرّف والعنف والحروب والأيديولوجيا ضيقة الأفق.

كيف جاء الغجر الى العراق؟ ومن أي أرض رحلوا؟

تعود جذور الغجر في العراق الى القرن الخامس الميلادي، حسب الدكتور طه الحديثي في كتابه «الغجر والقرج في العراق» الذي يقول:

«وصفوة القول، إن الغجر قد وفدوا الى العراق بموجات متتالية، أولها جاءت من الهند الى المدائن، إبان حكم الملك الساساني «بهرام جور»، في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، الذي طلب من ملك الهند تزويده ببعض المغنين من قبيلة «لري»، أجداد الغجر، وذلك لاستمتاع شعبه بالموسيقى، خاصة وأنه شجع رعاياه على الشرب

وسماع الأغاني والعزف، وسوّى بين الطبقتين من الندماء والمغنين، فقرب اليه من أطربه وإن كان في أوضاع الدرجات، في حين أبعد من لم ينجح في إطاره»⁶. في أواسط السبعينيات كان عدد العجر في العراق 5569 نسمة، تسكن 174 أسرة في الكمالية وعدد أفرادها 1019 نسمة، أي ما يزيد على 21 بالمئة من مجموع العجر في العراق، لم يكن للألف مخلوق هؤلاء أي حقّ من حقوق المواطنة، حرّموا من الجنسية العراقية، ومن التعليم، ومن الوظائف العامة، ومن الملكية، عوملوا مثل داء في جسد المجتمع، فقانون 43 لسنة 1971 حرّمهم من تمكّ العقر سواء كان أرضاً زراعية أو أميرية، باعتبارهم أجنب، وتصفهم مديرية النفوس العامة في قرارها المرقم 16390 في 29 تموز 1959 بالقول:

«إن العجر (الكاولية)، جماعة لا تملك جنسية معينة، وبذلك تعدّ من الأجنب ولا يجوز تسجيلها في سجلات الأحوال المدنية ومنحها دفاتر النفوس إلا بعد استحصال شهادة الجنسية العراقية أو شهادة تجنّس»⁷. ثم يتكرّر الأمر معهم في العام 1974، فتعيد الأحوال المدنية وصفهم ومعاملتهم بهذه الطريقة:

«إن العجر (الكاولية) أقوام عديمو الجنسية ويعاملون معاملة الأجنب، لهذا يقتضي في حالة عثوركهم على قيود المسجلين منهم في السجل المدني عدم الموافقة على أية معاملة لهم إلا بعد أن يقدّموا شهادة الجنسية العراقية»⁸.

كان مازق العجر مع العمل في قطاعات الدولة لا يقلّ حرجة عن مازقهم المعيشي الآخر «الجنسيّة والتّمكّ» فقانون العمل رقم 151 لسنة 1971، الذي عدّ العمل من حقّ العراقيين وحدهم كما يقول الحديثي في كتابه، لم يستفيدوا منه لأنهم ليسوا عراقيين! وحرّموا كذلك من حقّ العمل بصفّتهم أجنب لأن إقامتهم في العراق غير شرعية. من

٦ . طه حمادي الحديثي: «العجر والقرج في العراق»، مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٨ ص ١٩.

٧ . المصدر نفسه: ص ١٥٧.

٨ . المصدر نفسه: ص ١٥٩.

بهرام جور حتى اليوم وهم ليسوا عراقيين؟ ألا كم هو عجيب هذا العراق؟
 اكتمل حصارهم حين منعوا حتى من العمل في «الجير»، فقد طرد 150 عجزيا من
 معمل الطابوق الجيري في مدينة الزبير بالبصرة، بعد مضي شهر واحد فقط على
 عملهم فيه، لعدم حصولهم على الجنسية العراقية، إنهم أنجاس لا يحق لهم حتى لمس
 «الجير»، أي إقصاء يعيشه شغيلة الطرب والموسيقى والرقص هؤلاء؟
 مازق العجر في العمل عاشه أطفالهم في التعليم، فقد منعوا منه بسبب الجنسية،
 والإقامة المشبوهة، وحين افترض أن أطفال العجر يمكن لهم أن يدخلوا المدارس أشعر
 أن بدني يقشعر عندما اتصور ما سيحل بهم على يد زملائهم من مهانة، واستخفاف،
 وعنف، سيعذبون دون هوادة ورحمة، إنهم في أدنى درجات سلم المجتمع . فأبي طاقة
 تكفيهم لمواجهة زخم هائل من العنف يبدأ من أول الطفولة ولا ينتهي في الكبر ؟
 تكتب مديرية شرطة الأقضية في محافظة البصرة في كتابها المرقم 1158 بتاريخ 22
 تموز 1976، تقريراً الى المحافظة، تقترح فيه ترحيل العجر الى «الجبايش» هذه المرة،
 فنقول:

«نظراً لارتياح حي العامل، أطوار من المواطنين، بالإضافة الى الكويتيين والسعوديين،
 ومن جنسيات أخرى، ولا يستبعد أن يسخروا لأمر مختلفة، علاوة على قرب الحي
 من العامل الصناعية الضخمة، ولقربه من وحدات الجيش، ولأن المنطقة ستكون
 منطقة صناعية في المستقبل، مما يجعل وجود هذا الحي شاذاً، لا يتفق وسمعة وطننا
 ومجتمعنا، كما أن وضعه في هذه الحالة يزداد سوءاً، لأنهم يزدادون يوماً بعد يوم
 وتنمو الرذيلة معهم، عليه، نوصي بترحيلهم الى منطقة، كالجبايش، وتطويرهم من
 الناحية الاجتماعية، والثقافية، والصحية، والفنية وإلا، فان بقاءهم بهذا المستوى
 يعتبر آفة اجتماعية خطيرة»⁹.

شذوذ، ورذيلة، وآفة، وسوء يتزايد، وتشويه سمعة، وضرر بسمعة الوطن والمجتمع،
 وتجسس وتخريب، تلك هي أوصاف الشرطة للعجر، فهل يمكن تصوّر الطريقة التي

٩ . العجر والقرج في العراق: ص ١٦٨.

يتعاملون بها مع أناس بهذه المواصفات الخطيرة ؟ هل يمكن أن يعيش إنسان بأمن وسلام وصورته في دوائر الحكومة المتنفذة والباطشة، لا تترك سوءا إلا ووصفته به؟ ألا يعني مقترح ترحيل أناس يمتنون الغناء والرقص الى الجبايش إبادة جماعية لهم ؟ من حياة الغناء والرقص الى الجبايش؟! يا لقسوة هذا العالم. مأزق الغجر انتهى أخيرا الى أشياء أخرى أبعد من الجبايش، إنه الشتات .
بوجود قوانين تمنع الغجر من حق التملك، كيف تسنى لهم بناء بيوتهم في الكمالية؟ يقول الدكتور طه حمادي الحديثي:

« ومع ذلك شيدوا مساكنهم في الكمالية بمساعدة العراقيين، وهذه المساعدة تمت باسلوبين، يتمثل الأول في التحايل على القانون، وذلك بتسجيل الأراضي التي تم شراؤها من الملاكين في مديرية العقار العامة بأسماء العراقيين الذين يطمنون اليهم، بحكم قيام علاقات ودية معهم عن طريق تزويج بناتهم للعراقيين، أما الثاني فيتمثل بمنح القروض المالية الى أسر الغجر غير المقتدرة على بناء المساكن عوضا عن المصرف العقاري، اذ لم يسمح هذا المصرف بتسليف الغجر لأغراض البناء، ومن ثم تتكفل تلك الأسر بتسديد ما بذمتها من ديون الى العراقيين»¹⁰.

تسكن الكمالية 15 مطرية، من بينهن حمدية صالح، صبيحة ذياب، شكرية خليل، ساجدة عبيد، مطلوب محمد، امتحان عليوي. وينقسم غجر الكمالية الى بيوتات أربعة، هي، أبو طحيمي، وأبو ثنيوان، و ألبو نصيف، و ألبو دلي. ومع نشوب الحرب مع ايران، منح الغجر الجنسية العراقية ، فتطوّع بعضهم الى الجيش تلبية لنداء الوطن! محرقة الحرب وحدها وليس تاريخهم الذي يمتد لألاف السنين هي التي أعادت لهم حقوقهم .

تعود ملكية أراضي الكمالية وربما التسمية أيضا، الى علي كمال عبد الرحمن، وهو رجل أعمال كردي، شغل مناصب مهمة إبان العهد الملكي، منها نائب في البرلمان، ومدير لشرطة بغداد، وقائم مقام قضاء سوق الشيوخ، واشتغل أيضا بتجارة الأراضي

١٠ . الغجر والقرج في العراق: ص ٥٢.

الشباب بيوت المعدان وطلبوا منهم «تهيئة الوضع»، وحين اكتشف شباب المعدان مراد هؤلاء الشباب، إنهالوا عليهم بالـ«تواشي» التي يجيدون استخدامها بشكل ملفت، وحين انتهت المعركة، وهي من طرف واحد، هرب طالبو المتعة والدماء تسيل من أجسادهم، دبغت جلودهم بدل أن يطفئوا شهواتهم!

في صيف العام 1986، وتحديدًا أيام إقامة بطولة كأس العالم لكرة القدم في المكسيك، هجم عدد من شباب المنطقة على بيوت العجر، جاءت هذه الخطوة بعد أن انتهى حديث حول حياتهم مع العجر جمعهم في مقهى، كان صاحبه، وهو شيوعي سابق، مندفعًا في تحريض الشباب، شحنة العواطف التي استولت عليهم كانت كافية لدفعهم للهجوم على بيوت العجر دون الالتفات الى ما يمكن أن يتعرّضوا له من أذى وقمع من قبل النظام، الخطوة «البريئة» هذه، مفصولة عن أي حراك سياسي معارض، يومها كانت السلطة محبطة ومستنفرة بسبب معركة الفاو التي انتهت قبل أشهر قليلة بخسارة المدينة، وسيطرة الإيرانيين عليها، الوضع داخل البلد لم يكن أقل توترًا من الوضع على جبهة الحرب، وأن يقدم عدد من الشباب، لا يخلو تاريخ أهلهم وأقاربهم من وجود معارضين للنظام، أعدموا أو سجنوا، على خطوة تعدها الحكومة تحديًا كبيرًا لسلطتها، هو أمر أقرب الى الانتحار.

هجم الشباب على بيوت العجر، حطّموا زجاج سيارات كانت مركونة أمام البيوت، وما يسهل تحطيمه، أفرغوا بلمح البصر ما تضرره أرواحهم من كره واعتراض على السلطة، وحين انتهت حملتهم كانت الشرطة قد طوّقت المكان، فاستطاع الكثير منهم الهرب ولم يلق القبض سوى على شخصين فقط، سجنوا بتهم الاعتداء البدني فقط، لم تصل قضيتهم الى حدّ المساسّ بالأمن، ولم يوصف فعلهم كنشاط معارض للسلطة، بعد أن نجح أهلهم في التّوسط لدى أعضاء في حزب البعث وضباط شرطة للملمة الموضوع بشكل ودي.

واليوم، حين أنظر لما قام به الأصدقاء من حملة «إيمانية»، أجدهم بعيدين تمامًا عن أي اتجاه نحو الإسلام السياسي، بل دفعتهم روح الرفض لوجود العجر بينهم نحو

فعلتهم الخطيرة، كان احتضان التكرارة والمسؤولين للعجز هو الدافع الحقيقي الذي
حدا الشباب الى مهاجمة بيوت العجز دون النظر في العواقب الوخيمة لفعلتهم.

الإيشان وعاشوراء

ولعل طقوس الشيعة في عاشوراء قد عوّضت العراق
شينا من جفاف القرون. وهي لا شك طقوس الحزن
العميق. ولكن في كل شيء عميق فعل تحرير. وتمثيل
الأحزان بالأفعال تنفيس: وهذه هي لعبة تلك الطقوس
فهي مهرجان شعبي فيه ألوان من تفريج الكرب وتبديد
الوحشة، والفرح.....

إن تدخل السياسة في الدين ينشط تدخل الدين في
السياسة، وبدلاً من عاشوراء طيب، مرة في السنة
يسكن عاشوراء متجهم كل أيام السنة، بدل العواطف
الزاخرة كتائب خرساء. رماد يخلف السنديانة. الوحشة
تعقب الألفة.

أحمد المهنا

كتابه «الإنسان والفكرة»

يقع بيتنا في نهاية الكمالية، ترتفع الأرض أمامه بما يشبه التل، كان أهلنا يسمونه

«إيشان»، في شماله تقع حسينية السيد محسن الحكيم، وأمامها تجري مراسم عاشوراء كل عام، كانت كرنفال حزن كبير، تتبدل فيه تفاصيل حياة الناس، يرمون ثيابهم الملونة، ويكتفون بالسواد، لا يتزوجون أو يخطبون أو يختنون صغارهم، يحل اللطم والبكاء بديلا عن الفرح، وأنا لا أتذكر من مراسم عاشوراء سوى مواسم قليلة.

«الإيشان» وعاشوراء في العام 1977 قصة يتقاسمها الفرح والخوف والحزن، فرحة ذلك العام صنعتها يد العلم والبحث، فقد قام فريق تنقيب أثري بالحفر في «الإيشان» ليستخرجوا منه كنوزا أثرية، فتحت للناس شيئا من تاريخ هذا البلد وتاريخ العالم القديم. كنت ومعني رفاقي من الصغار، نرقب رجال البعثة الأثرية كل يوم، نبدأ معهم عملهم ولا ننتهي حين ينتهون، فننظّل نتقافز فوق الجدران التي بانّت من تحت الأرض، نفرح بكنز اللهب الذي فتح أمامنا. ذهب، سكاكين، أوان، لكن مفاجأة وقعت وغيرت مسار نشوتنا بالمكان الى حذر منه، حين اكتشف المنقبون جثتا دثّرها تراب القرون، وحفظها من العبث، كنا نعتقد أن أهل هذه البيوت المدرسة، ماتوا أو قتلوا قبل أيام، رحلوا تاركين وراءهم كل شيء، وحين يجنّ الليل كان رعبنا من البيوت الغائرة في أعماق الأرض يمنعنا حتى من النظر الى «الإيشان»، وكأنّه لم يكن يهبنا كل هذا الفرح الغامر في النهار.

ليس سهلا إبعاد الأشباح من ليل البيوت الغائرة في أعماق الأرض، كان مشهد عظام البشر التي أزيح عنها التراب، وهي عارية من الحياة والبهجة، يثير خوفنا. لم أكن أعرف أهمية الذهب في حياة الناس إلا عندما وجد المنقبون بعضا منه في الموقع، يومها سمعت أمي وجاراتها، يتحدّثن بدهشة عن الثروة التي نزلت على هؤلاء المنقبين، «لو تجارة لو كلبت حجارة»، كان هذا المثل هو فحوى ما يتردّد على لسانهن وهنّ يحسدن من حفر الأرض ليصل للذهب، إنهم لم يفعلوا شيئا، لقد قلبوا حجارة صماء من مكانها، فقادتهم نحو المال الوفير، أسطورة العجائز تشبه أساطير العالم القديم، التي تقلب المستحيلات الى ممكنات.

كان قريبتنا «جحيل» يعمل مع فريق التنقيب أجيرا في نقل التراب الى السطح، كان يقضي بين فترة وأخرى شطرا من الليل مع أبي، كنت أسمع حديثهم، لم يكن يحكي عما اكتشف في «الإيشان». كانت تعوزني الشجاعة لأن أطلب منه الكفّ عن الحديث حول عشيرتهم، وزرعهم، وخلافاتهم قبل أن يستقروا في بغداد، كم تمنيت أن يتوقف عند الناس الذين وجدوهم تحت التراب، لماذا لم ينقذهم أحد؟ لماذا أهالوا عليهم هذا التراب الهائل؟ من دلّهم على الجريمة؟ أسئلة كنت أحر فيها، معتقدا أن جحيل وحده يمتلك إجاباتها، وأسرارها الدفينة، كنت أراه شخصا لا يشبه الآخرين بسبب عمله في الكشف عن الجرائم والجثث، وحين قادني الحديث الآن الى «الإيشان» اللغز، قرّرت أن أبحث عنه في المصادر التاريخية، فكشفت لي تلك المصادر عن أننا كنا نلعب على أرض حكمها حمورابي، وربما مرّ بهذا «الإيشان»، وتحدّث الى الناس الذين عاشوا فيه والذين كنّا نتقافز على هياكلهم العظمية وندخل غرفهم ونلمس أوانيهم، هل كتب قانونه على هذا التراب الذي نلعب عليه؟ لم أشعر بالفرق بين فرحة اللعب فوق «الإيشان» وأنا طفل صغير، وفرحة ما كشفته المصادر التاريخية عنه وأنا رجل كبير.

تقول مصادر هيئة الآثار أن التلّ الذي نسكن على حافته كان يسمى تل «العليمية»: «ويقع في منطقة الكمالية الى الجنوب الشرقي من مدينة بغداد، تم أواسط الستينيات التحري في أربعة خنادق تجريبية، فظهر أن قطع الفخار التي عثر عليها تعود الى العهد البابلي القديم، والفترتين الكشية والفرثية، كما عثر على صحن فخار منقوش بكتابات آرامية، وقد أكدت التحريات أن المستوطن يحتوي على ثلاث طبقات بناائية، وقامت الهيئة التي ترأسها السيد معتمد عبد الرحمن عام 1977 — 1978 باستظهار أبنية في الطبقة الثالثة، وعثر على أوان، ورأس سهم، وسكاكين ومنجل، وفخاريات هذه الطبقة لا تحوي فخاريات الطبقة الثانية، كما عثر على قبور أطفال، ومواد طباشيرية، ومعدنية، وعاجية، وأختام اسطوانية تعود للفترات المذكورة في أعلاه، كما جرى التنقيب في عدد من النقاط في التلّ، فكشف عن بعض الحجر والمداخل والمدافن،

وعثر على بعض الجماجم والجرار الفخارية، ومجموعة من رقم الطين، وأربعة أقراط ذهبية، ومجموعة من الخرز، وأقراص الغزل، وصحون من الفخار، على اثنين منهم كتابات آرامية، يعتقد أنها من العصر الساساني»¹².

وكما كان العام 1977 عام الفرحة، الفرحة كانت ترقد تحت أرض «الإيشان» تركها لنا حمورابي ومضى، فقد كان كذلك عام خوف زرعه السلطة في نفوسنا دون ذنب، تحت الأرض كان الفرخ وفوقها كان الخوف، أي حيرة عشنا؟ ففي الوقت الذي عنى عاشوراء للشيعية جزءاً من معتقدهم، وحياتهم، كان بالنسبة للسلطة طقساً مرفوضاً وممنوعاً، لم تصدق الشيعة قرار الحكومة بمنع عاشوراء بدءاً من ذلك العام، لكنها عرفت يوماً أنها ستعيش عصراً زاخراً بالموت والعذاب. منعت مراسم عاشوراء في الشوارع لكنها استقرت في أرواح الشيعة، منعوا منها، ومنعوا أنفسهم من نسيانها، اشتدّ كره الناس للسلطة واحتقارها، كنت أسمع الكبار وهم يتحدثون عن «حوبة» الحسين، التي ستحلّ بالبعث المجرم، كانوا يقولون إن البعثيين هم من جنود بني أمية، وتلك بنظرهم الكفر والرذيلة، بنو أمية قتلوا الحسين وسبوا أهله وداسوا جثته، والبعث منع أحبابه من استذكاره بالطريقة التي يحبون، هكذا تقول الناس.

كان قرار منع مراسم عاشوراء أكثر قرارات سلطة البعث حمقاً واستهتاراً، لقد حوّل بطش السلطة الملايين من الشيعة الى أعداء، ولم تقدر هذه الملايين أن تفهم دوافع قرار المنع، لقد أعطى هذا القرار لمشاعر الإحساس بالظلم على أساس طائفي طاقة كبيرة للبروز والنمو، أو على الأقل كان بداية تخندق السلطة طائفيًا، الكثير من زوايا النظر لهذا القرار كانت بالصدّ منه، توقيته الذي جاء مع بروز الشيعة في إيران وتأثيرهم في شيعة العراق، تعارضه مع مصلحة السلطة نفسها لأنها ضربت فيه نصف عدد مواطنيها، تقاطعه مع واجب الدولة برعاية شؤون الناس الدينية واحترام طقوسها ما دامت لا تتعارض مع السلم الأهلي.

١٢ . الكشاف الاثري في العراق / اعداد الدكتور قحطان رشيد صالح / ١٩٨٧ / بغداد / المؤسسة العامة
الاثار والتراث ص ١٣٨.

القرار كان طائفيا بامتياز، وحفر خندقا بين الشيعة والسلطة، ولكي يعاد ردمه وإصلاح أثاره يجب التنازل عنه أولا، ثم بعد ذلك التقليل من أثاره السياسية، لكن الذي وقع بالفعل أن السلطة تمادت فيه بشكل سافر، وعاقبت بقسوة أي خرق له، فكانت نتائجه وخيمة مع تقدم الأيام، فقد أعقبته بأشهر قليلة ثورة الخميني، فأعطى منح عاشوراء شيعة العراق المبررات الكافية للنظر الى السلطة باعتبارها ليس فقط ممثلة للسنة ومدافعة عنهم، بل باعتبارها عدوة للشيعة وتعمل على إقصائهم، وتهميش طقوسهم، وتضييق مساحة حريتهم الدينية لإذابتهم في النهاية، فلاذوا بالثورة الإيرانية ودولتها باعتبارها المنقذ لهم من سلطة تحتقرهم وتحاربهم. ومن جانبهم وجد رجال الدين في إيران بعد توليهم السلطة أن الأرضية في العراق مهياة تماما لتلقي فكرهم ولغتهم، لا أدري الى أي حد كان يمكن للسماح للشيعة بممارسة طقوسهم الحسينية أن يمنع أي تقارب أو إعجاب أو أمل بثورة الخميني؟

تضم الكمالية حيا صناعيا كبيرا، تصنع فيه مختلف المواد، كاشي، حدادة، ورق، منتجات تجميل، ومن بين معامل الحي، كان معمل «محمد حديد» أكثرها بقاء في الذاكرة، كان المعمل يعود للسياسي العراقي والوزير في عهد قاسم، محمد حديد، والد المعمارية الشهيرة، زها حديد، يبعد مصنعه عن بيتنا نحو 100 متر، ينتج مواد كيميائية، منها مبيدات الحشرات، وبودرة الأطفال، كان حديد في مطلع السبعينيات يزور مصنعه بشكل متقطع، ولأن شوارع الحي الترابية لم تعد على حركة السيارات، لذلك كنا نشاهد سيارته من مسافات بعيدة، يمنحنا الركض وراء سيارته، شيئا من اللهو البريء، كنا نقف في حالة الاستعداد للانطلاق جوار سيارته حين نلمحها من بعيد، وحين يقترب منا نركض ونحن نغني «أجا محمد حديد» ونعيدها حتى نصل به الى باب المصنع.

لم نكن نعرف أي شيء عن هذه الشخصية، ولسنا من أنصار الحزب الوطني الديمقراطي أو مؤيدين لشخص قائده محمد حديد، وبعد أن اختفى حديد من المشهد، عرفت أنه أحد كبار قادة التيار الوطني وتحديدا الحزب الوطني الديمقراطي،

الذي يتزعمه كامل الجادرجي قبل انشقاقه عنه، وهو مثل الكثير من الشخصيات السياسية، والصناعية المهمة، انكفأ بعيدا عن أي نشاط سياسي حين وصل حزب البعث الى السلطة.

قصة حديد التي التقطت يومها بعضا من تفاصيلها، كشفت لي عن أن هناك من يخافون سلطة البعث، ويلتزمون الصمت والانزواء، حتى وهم يتمتعون بمنزلة سياسية رفيعة في وقت من الأوقات، كنت أسمع ذلك من أحاديث الكبار، شخصيته التي تستحق الاحترام وقربه لفترة من الفترات من عبد الكريم قاسم، هي التي تقف وراء الحب والاحترام الممتزج بالإشفاق على شخصيته وتاريخه. وكان حبّ الناس البسطاء لعبد الكريم قاسم جارفا، ولا يخلو ذكر للسلطة يومها، إلا وكانت صورة قاسم، الزاهد، والمتواضع، والكريم، قد طفحت على ألسنتهم، كان بنظرهم قديسا خسره العراق، وحين عرفت أن البعثيين عارضوه وحاولوا قتله، ثم قتلوه في النهاية، كانت حيرتي لا تقف عند حدّ، ترى لماذا يقتلون حاكما له كلّ هذه الهالة القدسية؟ بين حبّ قاسم وبين غربة ورثته عن الأغلبية بدت هناك فجوة هائلة تفصل بين الناس والسلطة، وبدا كره الحكومة حادًا لا يلين.

حرب الكويت

لقد ملّ العراق من الحروب
صدام حسين
في حديثه مع السفارة الأميركية أبريل غلاسبي قبل
100 ساعة من غزو الكويت

العام هو 1990، واليوم هو الثاني من آب. كان عامان فقط قد مرّا على نهاية الحرب مع إيران، وهما لا يكفیان لمحو آثارها، فعشرات الآلاف من الأسرى لا زالوا في معتقلات إيران، والكثير من العوائل تنتظر معرفة مصير أبنائها المفقودين في الجبهات. أما الذين انتهت خدمتهم العسكرية من الجنود فقد عادوا للحياة المدنية ليجتثوا وسط ركاب الاقتصاد عن مصدر رزق يكفي لعيشهم بعد أن تركتهم السلطة دون معونة ودون عمل.

في السابعة صباحا وصلت الى عملي في صبغ البيوت الذي أمارسه أيام العطلة الصيفية، كان الأسطة قد تعاقد مع «ابو سمير»، وهو مقالول لبناني، تصيينا قلّة حياته بنوبات

ضحك مخنوق، فهو لا يتردد في إطلاق العنان لرياح بطنه في أي مكان أو زمان يشاء، كنا مندهشين من حرّيته، ربّما لم يكن معنا بمشاعرنا أو ربّما كان يسخر منها. البيت يقع في زيونة، الحي الراقي شرق بغداد، الذي خصّصه عبد الكريم قاسم لقادة الجيش، قبل أن يسكنه لاحقا وزراء، وتجار كبار، واساتذة جامعة، وصناعيون. زيونة، تعني لنا، نحن أبناء شرق القناة، مكانا يتنعم فيه المترفون، السيارات الأنيقة والأثاث الناعم والجميل، وهدوء الشوارع والبيوت، وأجهزة التبريد والتدفئة والغرف الواسعة، والطعام الوفير واللذيذ، والإطمئنان للغد وللسلطة، كانت صور زيونة البهيجة هذه تملأ خيالنا.

الشارع نفسه الذي يقع فيه البيت كان يفضي في نهايته الى منزل المرأة الوحيدة في حياتي يومها والأقرب الى روحي، زميلتي في الدراسة الجامعية، التي قبلت بقمع شغفي بها وتقبّلت حرصي على تفادي المزيد من الحُبّ، قبلت صمتي عن التصريح بحبّها، أحبّتي وهي تنتظر الصخب وأحبّبتها بصمت، وظلّت تتوسل في سرّها أن ألعب دور الحبيب الواضح الكلمات والنوايا والأفعال، تردّد حين تحاصرها رغبتها بأن تعيش مثل كلّ الفتيات، قصّة حبّ طبيعية، كلمات أغنية تتحدّث عن صفات من يفوز باللذات، فتغني قربي «فاز باللذات من كان جسورا»، فأهمس لها بأنني لم أجد لذتي حتى اليوم، كنت أسخر وأتألم في داخلي من دوري الذي أعبه وغرابتي واختلال روحي أو اعتلالها. أريد الحبّ وأخافه، وبقي سؤال الأمس يؤرقني حتى اليوم، لماذا كنت أعب ذلك الدور اللعين، دور الخائف أو الخجول أو البارد العواطف ظاهرا والمتأجج باطنا؟

والدها محام معروف وأمها تدير مدرسة ثانوية، عاشت معي لحظاتي لكنّها ظلّت مسكونة بمأضيبي وطفولتي. تسألني بخجل وكأنّ صوتها يأتيني من أراض قصية، تحدثت لي بفرح طفولي رائع عن بيتنا الذي مرّت من أمامه بسيارتهم التي تقودها أمها، باب بيتنا الأزرق المتهالك، والمعامل التي تشغل نهايته، والغجر الساكنين في بدايته، وجارنا حسن المعتوه وهو يجلس بدشداشته الرتّة أمام البيت، أرادت أن

تعيش قصة حب بطلها شابٌ فقيرٌ يسكن شرق القناة، وفتاة تسكن زيونة، لكن قسوتي، أو عبثي، أو جبني، أو مخاوفي منعت عن تلك الفتاة حلمها وأمنيتها. قصة الحب هذه لا تصلح للسينما الرومانسية لأنها لن تنتهي بفرح، وإن يخطف الشاب فتاته من عائلتها ليضع الجميع أمام القدر أو أمام الحقيقة، قرب منزل تلك التعيسة كنت على موعد مع حرب أخرى، لا مع صفحة جديدة في طريقة حبّ بليدة، حرب ستكون هذه المرّة مع العالم كلّهُ.

في ذلك النهار اللاهب وفي زيونة، سمعت خبر غزو الكويت، نقل موسى الشاب المصري، حارس البيت، بفرح ورضا خبر الغزو، رفع صوت الراديو الى أعلى درجاته، كان صوت المذيع مدويا، الغضب، والفرح، والشعور بالنصر والقوة يملأ نبراته، ورغم ذلك كان موسى المصري أشدّ فرحا من مذيع السلطة، يبدو أن ثراء الكويتيين سحق روحه وغدا إله غضب، ونبي حرب وعدوان. كان إنزال الكويت بالنسبة له نوعا من التعويض عن الحرمان والغربة، كان ردّ فعله نوعا من الإسترداد لكرامته التي أهانها فقره، في حين كان المقاول اللبناني ابو سمير نقويض موسى بالكامل، قال إن الغزو تهوّر لن يقبل به العالم، وسيجلب للعراق الخراب والدمار.

منحتني حياة الناس في زيونة فرصة لتفسير ردود فعل موسى، فقد كنت أعيش أجواء المقارنة بين عيشنا وعيش أهل زيونة، بين عالم الهدوء والراحة والثراء، وعالم البيوت المكتظة والفقير والحرمان، زيونة هي الكويت، وموسى هو أنا، وتقبّل ما جرى في آب 1990، كان نابعا من أرض الحرمان والفقير، من الحقد الذي تؤجج نيرانه المقارنة بين حياتين متناقضتين، حياة الفقر ودنيا الترف، حياة الخوف وحياة الأمن، الألم تحت حكم العسكر والرغد تحت حكم العقال.

كان الغزو نسخا للتاريخ، بل لأقدم صور اقتصاده وسياسته ومنطقه البسيط، القوي يأكل الضعيف، والفقير يغزو الغني، كان فرح الناس بالغزو كاسحا مثل فقرهم، وقليلون من أخافتهم تبعات ما جرى، والأقل منهم من استنكره أو انتقده، الكثير من الفرحين دفعهم لذلك التّشفي بالكويت لأنها دعمت صدام بلا توقف أو تردّد طوال

فترة الحرب مع إيران، ووقفت وراء قيادته وبطولته، وآخرون فرحوا بالمسلوبات لأنها فتحت لهم فرص الثراء، ومنهم من فرح فعلا بعودة «الفرع الى الأصل» كما أطلق صدام على احتلاله الكويت.

لم تمض أيام قليلة على الغزو حتى لبست أسواق بغداد ثوب ثراء بدا غريبا عنها؛ أجهزة الفيديو، والتلفزيون، والعطور الراقية، والدشاديش الرقيقة، والسيارات الناعمة الملمس والرخيصة الثمن، ملأت الأسواق، لم ينقص المشهد التاريخي سوى «الجواري»، ستمحو الكويت أحزان إيران، هنا في هذا البلد لا تمحو آثار الحروب سوى الحروب.

لكن هذه الصورة سرعان ما أخذت في التبدد، وبالتدريج وجد الناس أنفسهم في حرب أخرى لا تقل عن حرب إيران قسوة، وقد انقسموا الى فريقين، أولهما، يصرّ على أن الحرب مع إيران دمرت فينا وقست علينا أكثر من حرب الكويت، وثانيهما يقول خلاف ما يقوله خصمه، فيصف حرب الكويت بأنها أجهزت على النسيج الاجتماعي، وليس على الأرواح والأموال فقط .

كان حديثا يسمع كل يوم وفي كل جلسة أو لقاء، الناس مشغولة في تمييز فصلي الموت والخراب وليس في تلمس مستقبلها وأحلامها، إنهم يلعبون جراحهم ويتجادلون حول خرابهم، أعاد الناس قراءة تاريخ بلدهم من خلال الحرب وكأنهم وضعوا يدهم على كنز المعرفة، عادوا الى خراب سومر وبابل على يد الفرس والى فتح العراق على يد المسلمين وما وقعت فيه من دماء ووقائع مرعبة، ووصلوا الى جيوش هولوكو، وتيمورلنك وهي تحوّل دجلة الى نهر من الدم، ثم دلفوا إلى العثمانيين، وباشواتهم، واغاثاتهم، وعسكرهم.

الحرب في العراق جزء من هويته، وتاريخه؛ فكيف يمكن له أن يستقر ويهدأ وهو خلق من طينة الحرب؟ صورة لا تفارق العراقي وهو يمضي مخذولا ومختنقا بالعبرات الى حرب يراها قدرا لا فكك منه .

اتاح غزو الكويت فرصة للعراقيين لاكتشاف أشكال خراب لم يعرفوا مثلها ولقد قسم

الغزو الكويت على قسمين: الأول حرق بالكامل والثاني سرق بالكامل. ومثل غزوات قبائل العرب في العصور القديمة ونهبهم وسلبهم لأبناء جنسهم، دخلت مسلوبات الكويتيين الى العراق الخارج توًا من حرب حرقت أمواله وأوصلته الى المجاعة، وإذا كانت غريزة القتل والسلب تستعيد نفسها مع انقراط القوانين والرقابة؛ فكيف بها اذا خرجت برعاية السلطة وتحت إشرافها ؟

لقد دخلت «الحضارة» بأثاثها الحديث والمترف لعراق الموت والأسر والفقدان من خلال الحرب لا من خلال التجارة، دخل لهم الفيديو والسيارة الفارهة و«الموز» و«البيبسي كولا» على ظهر دبابة لا على سطح باخرة، كان مشهد زهول العراقي من ترف جاره يجرف معه بقايا الإيمان بحياة كريمة توفرها له السلطة.

165 يوما احتل فيها الجيش العراقي «شقيقته» الكويت، أخرج فيها كلّ غرائز الوحش البشري، القتل والإغتصاب والسرقه والحرق والإهانة وجرف الممتلكات، حتى أن كلمة «حوبة» الكويت ظلّت تدور على ألسنة العراقيين طوال سنوات أعقبت الغزو.

فرضت الأمم المتحدة عقب الغزو بأيام حصارا اقتصاديا على العراق، منعت بموجبه أي تعاط اقتصادي ومالي وتجاري مع العراق، لن يباع شيء ولن يشتري شيء، ولكن صدام لم يكن مهتما بهذا القرار، وهو غير معني بنتائجه على الناس وعلى مستقبل البلد، بدا تحديه للمجتمع الدولي وكأنّه غير خاضع لتبرير ولا يمكن تفسيره، يريد صدام أن يفرض بطشه على العالم مثلما يفعل مع العراقيين، ويعامل المجتمع الدولي وكأنّه ديكتاتوره أو حاكمه المطلق، وكلّما ازداد تعنتا كلما خسر البلد فرص الخروج من الكارثة.

بدأت بعد أسابيع قليلة آثار الحصار تبرز بالتدريج، ارتفعت أولا أسعار المواد الغذائية الأساسية، ومع تقدم الأيام فقدت العملة شيئا ليس بالقليل من قوّتها الشرائية، كانت ذيول الحرب الأولى لا تزال باقية تجر وراءها ملفات لم تطو بعد، الأسرى والمفقودون ينتظر أهلهم معرفة مصيرهم، لم تكف سنتان لإغلاق هذه الملفات، ولكن أسابيع

فقط أعقبت غزو الكويت كانت كافية للبدء بأوسع عملية تبادل للأسرى منذ الحرب العالمية الثانية، عاد الأسرى وبدأت روايات غريبة تنتشر بين الناس، فأحدهم عاد ليجد زوجته قد طلقت منه لتتزوج شقيقه أو قريبه، لأنهم عجزوا سنوات طوالاً عن معرفة مصيره أو أن أهله «دفنوه» شهيدا بعد أن أوصلت الحكومة «جثته» لهم، روايات لا تنتهي ولا يمكن التمييز بين تلك المنسوجة من وحي الخيال أو التي فصلت من قماش الحقيقة، ففي الحروب يتداخل الواقع مع الخيال، والأسطورة مع الحقيقة.

يريد صدام تسوية سريعة لمشاكله الملتهبة قبل أن يخوض حرباً جديدة، ويدخل في مشاكل جادة وجديدة أيضاً، وبالمقابل كان عناده للمجتمع الدولي صامداً للجميع، فهو يرفض الإنسحاب من الكويت ويعلن استعداداته للحرب أياً كان حجمها وطبيعتها الدول والجيش التي ستشارك بها، وذلك يعني أن على الناس أن تشد حزام الجوع والخوف من حرب أخرى لن تكون تقليدية هذه المرة. مضت شهور الترقب ولم يلبس موقف صدام، وفي الخامس عشر من كانون الثاني 1991، انتهت المهلة التي حددها الرئيس الأميركي جورج بوش الأب للخروج من الكويت دون قيد أو شرط .

في الساعة الثانية من صباح السابع عشر من كانون الثاني عام 1991 كان صوت منبه سيارة يضرب بقوة أمام باب بيتنا الواقع في حي الأمين الثانية الذي انتقلنا له عقب نهاية الحرب مع إيران بأشهر، لم يكن الأمر مفاجئاً بالنسبة لنا فنحن ننتظر وصول سيارة «الأولدز موبيل» الأميركية التي أهدتها الحكومة لشقيقي الأكبر، الضابط في الحرس الجمهوري، فتحنا الباب وأدخل ابن عمي وهو سائق أخي في الجيش، السيارة داخل الكراج، استلقى متعباً من رحلته التي بدأت من الرطبة في أقصى الغرب، وقبل أن نضع رؤوسنا على وسائدنا، دوت انفجارات القنابل، كان الموعد معها بالنسبة لنا معروفاً مثل موعد وصول السيارة، فقد انتهت المهلة التي حددها الرئيس الأميركي جورج بوش الأب لصدام حسين للخروج من الكويت، وكلاهما كان ضمن «برنامج» العائلة في ذلك اليوم، في لحظة وصول السيارة الأميركية ترمي الطائرات الأميركية بحمماً على المدن، سيناريو هوليوودي حاذق صاغه بحرفة ومهارة روائي كبير،

الموت والحياة يسيران في سَكَّة واحدة .

جلسنا على صوت الأسلحة الثقيلة وهي تهزّ الأرض والأرواح، كان المشهد مروّعا ومجسّدا لما قرأنا عن أهوال القيامة، وكأنّ صواريخ الحرب مع إيران لم تعلمنا ما يمكن أن تكون عليه أصوات القنابل وانفجار الحديد، كانت هذه قادمة من القرون الوسطى، فهي معزوفة رعب «بسيطة» ومن مقام يمكن أن يؤديه الهواة، أما صوت أسلحة تحرير الكويت فكانت «سمفونية» أهوال قادمة من عصر الحداثة، وخارجة من أرواح مطلقها الخائفين على مواردهم ومصالحهم ومجالهم الحيوي .

بدأت الحرب الأخرى أو قل بدأت الحرب في العراق فصلا جديدا، سيكون ألمه ودماره مثار عجب العالم، كانت تكفي قنبلة واحدة لأن تهزّ بغداد بكل اتساعها، وتضع حياة الناس على كف عفريت، الحرب هذه المرّة ليست على الحدود بل فوق رؤوس المدنيين وعلى أرضهم وبين بيوتهم .

قبل أن تبدأ حرب تحرير الكويت بأيام، ترك أغلب أهل بغداد بيوتهم، وانتقلوا الى أقاربهم ومعارفهم في محافظات أخرى، اعترض والدي على خروج عائلتنا، كنت أنا وإياه ومعنا زوجات أخوتي وأطفالهم الخمسة في البيت، أما أشقائي الثلاثة فهم وسط ساحة المعركة ورابعهم لا زال أسيرا في إيران، وحين بدأ القصف الجوي، أسقط في يده وعرف أن قراره لم يكن صائبا، فنيران الحرب ليست بعيدة عنه وعن أحفاده.

قرّرت أن أبحث عن طريقة للخروج من حمم الحرب، كان الأمر صعبا، فوقود السيارات تلاشى بعد ساعات، وبدا الحصول على لتر منه أشبه بالعثور على كنز، خرجت أبحث عن وسيلة للنجاة، وعلمت أن أحد الأصدقاء وكانت لديه سيارة حمل قد وصل للتوّ من محافظة الكوت، حيث أوصل عائلته هناك وعاد ليحرس بيته، طلبت منه أن ننقل العائلة الى قرية من قرى محافظة ديالى لدينا فيها أقارب ينتظرون وصولنا، حملنا متاعنا وكان بضمناها برميل نقط وخروفان؛ كان أبي قد اشتراها قبل الحرب بأشهر قليلة حين بدأ أسرى الحرب مع إيران يعودون للبلد لينحصرهما فيما لو عاد أخي من الأسر.

خرجنا بعد الظهر بقليل بسيارة صديقي «البيك أب» القديمة التي لا تقوى عجلاتها البطيئة على اللحاق بخوفنا ودقات قلوبنا، وصلنا ليلاً وكنا كمن نجا بروحه من وباء حلّ بمدينته، اكتشفنا أن الخراف توشك على الموت فقد تسرب النفط أثناء السير في الطرق الريفية الوعرة التي مررنا بها وامتصّه جسدها، كانت بلا حول حين أنزلناها من السيارة، رميت جانباً تنتظر الموت، فلحمها لا يصلح للأكل بعد أن أشبع نفطاً، وبعد ساعات أصبحت جثثاً، كانت إشارة بأن الأمل بعودة أخي تلاشى، هذا ما قاله أبي وهو يرمق جثث خرافه، امتلأ بيت مضيفنا بالأقارب والجيران من أهل القرية، بدأ أحدهم وهو رجل كبير في السنّ، وفيه شيء من البلادة الحديث معنا، متسائلاً عن مصير حي «الوزيرية» في بغداد، وهو لم ير بغداد سوى مرّة واحدة فقط ! كنت أحوج ما أكون الى ضحكة أبدد بها الخوف والترقب والقلق .

سألته: ليش الوزيرية ؟ امبين عندك ولف هناك.

قال: لا ، بس أخاف على الوزراء .

ضحك الجميع .

فقلت له مازحاً: لا تخاف لأن الوزراء يعيشون بحي العامل مو بالوزيرية.

ارتبك ورد علي: هاي شلون عمي ؟ وزير بحي العامل ؟!

رددت عليه: حجي، احنا دولة اشتراكية، الوزراء بحي العامل والعمال بالوزيرية .

أراد إحراجي فقال لي: لعد الرئيس وين يعيش؟

ولأنني كنت أعرف أنه يحبّ صدام حسين حبّاً بالغاً، قلت له: الرئيس يعيش بنص الكلوب، حجي.

بعد يومين تركت العائلة وعدت الى المنزل، كان القصف يزداد شدّة مع حلول المساء، تتناثر شظايا الصواريخ لتشكّل لوحة فناء ليس لها نظير، لم تفهم الناس لماذا تستهدف مدينتهم في حرب هدفها تحرير بلد يبعد مئات الكيلومترات، ما دخل شبكات الكهرباء في معركة التحرير تلك ؟ هل تعيق الجسور حركة الطائرات؟ لماذا تعاقب المدن؟ ومع تزايد القصف كانت ثقة من بقي في المدينة بسلامته وعائلته تضعف كل

يوم، فتحرير الكويت سيمرّ بجثث الناس ودمار بيوتهم. بعد أسبوع أو أكثر على بدء الحرب وصل شقيقي «صلاح» هاربا من وحدته العسكرية وسط الكويت، بعد أن حصل على وثيقة إجازة فارغة ملأها هو، تحدّث عن الحرب، وصفها بأنها تشبه «أفلام الرعب»، كان مصدوما، فرغم خوضه لمعارك لا تحصى في الحرب مع إيران، إلا أنه شاهد في ثمانية أيام «كويّية» ما فاق مشاهد ثمانى سنوات «إيرانية»، تحدّث عن الرعب الذي أصاب الجنود من حجم الأسلحة وقوّتها، وعن الجوع الذي أصابهم وفتّت أجسادهم وتركهم مثل الأموات. قال إن فرصة نجاة شقيقيّ الاثنيّن من الموت بعيدة، إنهم يضرّبون سيارات الجنود ومعدّاتهم بصواريخ تهدم مدنا كاملة، قال إن صاروخا واحدا يكفي لإنارة مدينة أو حرقها.

كان أفسى ما في تلك الحرب هو أن الكثير من الناس كانت ترغب بالمزيد من الصواريخ والرعب والقصف، أملا بإسقاط الرعب الأكبر، والخطر الأدهى. كانت عيونهم مصوّبة نحو صدام وليس نحو مصيرهم، ظنّوا أن الحرب كلّما اشتدّت وطالت فإن الأمل بنهاية صدام سيقترّب أكثر، وسيصيدونه حتما، الحرب التي تطيح بصدام هي في النهاية ليست حربا بل سعادة وهناء، اصطياح صدام يستحق أنمن الأشياء وأغلاها. كان رهانا هائلا، فإما النجاة من صدام وإما الخراب الأبدي والعدم، وفعلا وقع الهول، حرق البلد وبقي صدام هائلا وباسما ومنتصرا.

مضت أربعون يوما على الحرب، انسحب الجيش من الكويت، وتوقف القصف، وبدأت عوائل الجنود تبحث عن مصير أبنائها. المشهد بدا وكأنّه مصنوع من لحظات القيامة، الموت، والمأساة، والنار والعقاب الموجه، كانت ترسم مشهد العراق وهو ينكسر ويحترق.

في آخر أيام الحرب كنت أفق بين أهالي الحي في نقطة التقاء الطريق السريع بطريق قناة الجيش وهي تقع في بداية منطقتنا، لنشاهد الجنود والضباط المنسحبين أو المنهزمين، وهم يدخلون الى بغداد، كانت هذه النقطة في جنوب شرق بغداد هي أول ما يصل اليه القادم من الجنوب، المشاهد كانت مروعة بكل معنى الكلمة، لا يمكن

تكرارها أبداً، أفقد الإجهاد الجنود قدرتهم حتى على الكلام، تروي عيونهم المندهشة ما جرى لهم، الكثير منهم لم يكن يعي ما يقول، كانت ملابسهم ووجوههم ممزوجة بالأوحال، البعض منهم حافي القدمين، أحد هؤلاء الحفاة كان ضابطاً برتبة مقدم، جلس على الأرض وبدأ يسبّ صدام والحكومة بصوت مسموع والغريب في الأمر أنّ الناس كانت تخاف أن تسكته، كان غيظه مخيفاً.

التعاطف مع الجنود كان بادياً بوضوح على الناس الذين يرقبون المشهد، الكثير من النساء كانت تبكي بصوت عالٍ، يوزع الحاضرون السكائر بين الجنود، ويمدّون لهم أيديهم لينزلوهم من السيارات التي تقلّهم، تعكس هذه المشاهد العفوية تعاطفاً بين الجيش والمدنيين، الكلّ كان يتلمّس المأساة والهزيمة والذلّ، كانت تلك المشاهد هي أول وأصدق ما شاهدت من صور الشعور الوطني، لم يدان تلك اللحظات بعدها أي شعور طاهر ونقي، كانت أرواح الناس متعلقة بمصير البلد، وبأكية عليه، لقد خسر الجميع في هذه المعركة، كانت هزيمة ليس لها نظير، الجيش، الاقتصاد، الموارد، المستقبل، كلها غدت رماداً.

كان مشهد ما يجري أمامنا غريباً حقاً، فعلى جهة الطريق الذهاب إلى الجنوب كانت ارتال الجنود تمضي بسرعة وبكامل لياقتها، لتبدأ فصلاً دموياً جديداً تقتل فيه «العراقيين» هذه المرّة، في حين يرتسم في الجهة التي تصل إلى المدينة مشهداً آخر نقيض مشهد الذهاب، تحمل السيارات القادمة من الجنوب، جنوداً شبه أموات، ممزقي الملابس والأرواح، مهزومين ومنكسرين، بينما يمضي جيش آخر إلى الجنوب ليدخل في حرب مع شعبه هذه المرّة، سيقتل الناس ويحفر في الصحارى قبور جماعية لهم، وسيدخل الجنود المنهزمون في حرب الكويت إلى بيوتهم ليتلمسوا ويتأملوا ما جرى لهم، عن أصحابهم الذين احترقوا وتركت جثثهم نهباً للكلاب والذئاب في الصحارى والمدن والشوارع.

كنا نستقي أخبار الإنتفاضة من الجنود المنسحبين أو بالأحرى المنهزمين في الحرب، كانت كرة النار قد لفت البصرة أولاً، فكنا نسمع منهم تفاصيل ما جرى في المدينة

التي سقطت بيد الثوار، ومع سقوط المحافظات تباعاً، كنا نرصد نحن الجالسين على رصيف قناة الجيش الترابي، أخبار ما يجري هناك من ثورة وغضب، انبعث الأمل من رماد اليأس، فالنظام الديكتاتوري الذي فشلت أميركا في إسقاطه ستكون نهايته هذه المرة بيد الناس العزل، وحين اكتشفنا أن أميركا لم تفشل بل لم ترغب بإسقاط صدام لعنا مدنيّتها وعظمتها بكلّ صدق وبكلّ ما فينا من ألم، كانت النفعية والإنهازية التي تحلّت بها قد حولتها بنظرنا الى نظام بشع ومستهتر، كانت بلا ضمير، أو روح، أو شرف وهي تنهي الحرب وتدير وجهها لتتفرج على صدام وهو يحرق المدن ويقتل المدنيين بالقنابل والصواريخ.

بيت الأسرك

وقال القلب: ما فعلت بك الأيام يا دار؟
واين القاطنون هنا؟
وهل جاءتك بعد النأي، هل
جاءتك أخبار؟
هنا كانوا
هنا حلموا
هنا رسموا
مشاريع الغد الآتي
فاين الحلم والآتي وأين همو؟
ولم ينطق حطام الدار
ولم ينطق هناك سوى غيابهمو
فدوى طوقان

أيقظني من نومي صوت بكاء قريب مني، كان الوقت فجرا، فتحت عيونني، رأيت
أبي جالسا على فراشه، يلف رأسه بيديه، ويبكي بحرارة وصمت، وحين تسقط
الدمعة يتلقفها بيشماغه، يمسحها، ويعود مرة أخرى الى شهقته ليمنعها بقسوة،

كان يعتصر ما بقي له من روح، ثلاثة من أبنائه فقدوا، أحدهم يمضي سنته الثالثة أسيرا في سجون إيران تاركا له أربعة اطفال، والأكبر اختفى ولا يعرف مصيره، إن كان حيا أو ميتا، أسيرا أو حرا، تاركا وراءه طفلين، أما الأصغر، الجندي «الفقير» كما يصفه أبي والذي يقاتل في حفر الباطن، فالمخاطر التي تحيط به أكثر من البقية، فالوحدات العسكرية ومنها وحدته تعرضت لقصف كثيف من قبل القوات الأمريكية أو ما يسمى بالقوات الدولية، ولا يعرف مصيره، ربما احترق في موضعه، أو تمزقت أشلاؤه، أو تاه في الصحراء وهو يهرب من نيران الصواريخ وصوتها المخيف.

مصائر أبناء هذا الشيخ هدّت ما بقي له من حول وقوّة، هل فعلا تلاشى ثلاثة من

أبنائه بلمح البصر؟ هل يعقل ما يمرّ به؟ أي مصير ينتظر عائلته؟

ساعتها لم أكن أقوى على الحديث معه، كيف يمكن أن أمنعه من الحزن؟ هل سأدعوه الى وليمة صبر وتحمل وأنا أشاهده وهو يحسب بمسبحته ما فقد من أولاده وما بقي من أحفاده، وأحزانه، ولوعته؟ أغمضت عيوني ومضيت خلف دموعه.

وهي تنظر لمأساة الأسرى في إيران وكيف طالت فترة أسرهم وأصبحوا نسيا منسياً، كانت الناس تعتقد أن مصائر الأسرى في حرب تحرير الكويت ستكون مشابهة لما جرى مع الأسرى لدى إيران، فيحسبون أنهم سيبقون سنوات تحت رحمة المفاوضات، والمماطلة، والأخذ والردّ، لذلك كانت أحزان أبي أوسع من أن تجد لها نهاية، ومع الأسرى الثلاثة استحق بيتنا التسمية التي أطلقها الجيران عليه حين سمّوه «بيت الأسرى»، ورغم ذلك كان أبي في أعماقه راضيا بمصير أبنائه، فهم على الأقلّ أحياء وربما سيعودون له بعد سنة، أو اثنتين، أو ثلاث، كان يقول «بالعربان ولا بالتربان»، المهم أن الأمل يعودتهم لن يتلاشى، وفعلا لم تمض سوى أسابيع قليلة حتى عاد الأصغر من الأسر، في حين لزم الأمر سنة كاملة حتى عاد الأكبر، لم يبق سوى الأسير في أقفاص المسلمين وفعلا لم يعد هذا الأسير إلا عقب سقوط نظام صدام.

وقع شقيقي الأصغر صباح في أسر القوات الدولية قبل أيام من وقف إطلاق النار، كان جنديا في وحدة مشاة، هي من أكثر فرق الجيش بؤسا وضعفا، تسمى بفرقة

المشاة 21، كان موضعها في حفر الباطن، قال إنهم لم يأكلوا قبل وقوعهم في الأسر مدة يومين، وإنهم اكتفوا قبل ذلك بأسابيع بوجبة بائسة واحدة في اليوم، وحين اقتربت منهم وحدة عسكرية أميركية كانوا لا يقوون على الحركة، روى لنا وبروح ساخرة كيف أن ضابطهم أمرهم بالخروج من المواضع لتسليم أنفسهم للقوات الأجنبية، قالوا له: أنت الأمر وعليك الخروج أولاً، رفع المسكين الراية البيضاء وهي لباسه الداخلي، وحين اقتيدوا إلى السيارات لنقلهم إلى مكان آمن، كان ذلك الضابط أول القافزين إلى حوض السيارة.

أمضى شقيقي في الأسر ما يقرب الشهرين، تحدّث عنها وكأنّها وليمة مفتوحة، أفقدهم الجوع الطويل ثقّتهم بالحصول على اللقمة، فحولوا لحظات الأسر إلى أكل فقط، يطلبون المزيد منه، وحين اكتشفوا أن «مضيفهم» تعبوا من تهيئة الطعام اقترحوا أن يجهزوههم بالمواد الأولية! وهم يتولون أمر طبخ الطعام وتهيئته، سحق الجوع والبطش والهزيمة أي بقايا لكرامتهم فلم يعبأوا بالحرية التي سلبت منهم، كانوا فرحين بالأسر، ولا أدري ربما حزنوا على نهايته.

صدرت لشقيقي الأكبر، الرائد في قيادة قوات عدنان، إحدى فرق الحرس الجمهوري، أوامر بعد يوم واحد فقط من بدء الإنتفاضة بضرب مدينة التنومة في البصرة وقمع الثوار فيها، كان ابن عمي سائقه الخاص، قال له بعد نهاية اجتماع ضمّه مع قادة الحرس الجمهوري الذين كلّفوه بقتل الثوار، إنه سيسلّم نفسه للقوات الأميركية، كي يتخلص من عبء هذا الواجب الدموي، شدّ سائقه من أزره، وفعلاً كانا بعد ساعات أسرى لدى القوات الأميركية، تلقّى معاملة حسنة، وألقي به في قفص خاص بكبار ضباط الجيش، عرض عليه اللجوء إلى دول أوروبية عديدة لكنّه رفض ذلك، بقي سنة كاملة في الأسر وحين عاد إلى العراق في الثاني من آذار عام 1992، أُحيل على التقاعد لينتهي حياة عسكرية استمرت عقد واحداً من الزمن وسط الحرب والقتال.

انطلقت السيارة من حي أور حيث بناية الكلية باتجاه بغداد الجديدة عبر طريق قناة الجيش، توقفت قرب بناية وزارة النقل ونزل أحد الركاب. شعرت بيد تلمس ظهري برفق، مددت رأسي فشاهدت زميلتنا تمدّ برأسها قربي لتقول:

– صعدوا اثنين قبل ما تحرك السيارة وگالوا له أنت قاسم ؟ جاوبهم ونزلوه وياهم.

لم يكن عمر علاقتي به يزيد على عام، إلا إننا أصبحنا قريبين من بعضنا، تجمعنا الكثير من الأشياء، مقاعد الدراسة، المنطقة، الأفكار السياسية، المنحدر الاجتماعي، الخوف من السلطة وكرهها، جوامعنا الكثيرة طبعت علاقتنا بالألفة والحبّ، لم نكن نفترق، وبرغم صدمتي بالخبر وخوفي، إلا أن اعتقاله لم يكن مفاجئاً بالنسبة لي، فأنا أعرف أن «مجموعتهم» وقعت بيد أجهزة الأمن قبل أيام قليلة من اعتقاله، وعلى إثرها ترك المنزل وذهب الى بيت خالته في مدينة الثورة، ولم يكن مجيئه للكلية في اليوم الذي اعتقل فيه لحضور الدروس، فقد قرّر تركها منذ أن اعتقل أصدقائه وأقاربه، جاء الى الكلية ليعرف ما حلّ ببقية أصدقائه عن طريقي.

في عصر اليوم السابق كنت قد حدّرت من الذهاب للكلية، إلا أنني فوجئت به وهو يدخل باحتها، قال إنه سيتركها بعد قليل، ولكن ما إن وصل حتى بدأ عناصر الأمن بمراقبتنا، كنا نعرفهم، البعض منهم طلاب معنا، كانوا «وكلاء» للأمن، أحدهم طالب يسكن منطقتنا وآخرون هم عناصر أمن رسميون، المراقبة بدأت حين مدّ أحدهم برأسه لقاعة الدرس حيث نجلس أنا وقاسم، وصلت رسالتهم بكل وضوح، اليوم ستنتهي المراقبة والشكوك والحذر، وسيكون اعتقاله نهاية لكل محاولات الاختفاء، لم يتركوا لنا أي منفذ للهرب، لقد أطبقوا علينا، وحين صعدنا السيارة كنّا نعتقد أننا فلتنا من قبضتهم، كان الجو يوم الاعتقال مغبراً، يغطي التراب السماء والوجوه معاً، ترك هذا المناخ الكئيب حزناً وكآبة على خوفنا وانكسارنا.

وصلت البيت، جلست لدقائق فقط، خرجت شارداً الذهن تخنقني المخاوف والأسئلة والحيرة من القادم، ذهب لإخبار أهله بما حصل، كان الخوف من قمع النظام يكتسح

حياتنا ويسمح لنا أن نطلق لخيالنا حرية تصوّر المصير المؤلم لمعارضى النظام وطرق مراقبتهم، التي تصل الى حدود الاعتقاد أن متهما واحدا فقط يمكن أن تكلف مراقبته كل طاقات، ووقت، وجهد أجهزة الأمن، فهل يمكن مع هذه التصورات، أن اتوقع مثلا، أن الذين أعتقلوا قاسم سيتركوني دون مراقبة ومتابعة؟ أبدا، لم يكن خيالي يسمح لي أن اتصور أنني سأسلم من الاعتقال، كان الإفلات من قبضة الأمن أمرا شبه مستحيل في تصوري، خصوصا أنني أعرف مسبقا شيئا من «تحركات» مجموعته، كان قاسم قد تكلم معي بإيجاز وتلميح قبل اعتقاله بوقت قصير عن «معرفته» بنشاط عدد من أصدقائه السياسى المعارض للنظام، تحدّث بشيء من الحذر عن مجموعة قال إنه يعرفها، وهم شباب أبطال وشجعان ولديهم استعداد للعمل ضد النظام، خفت من الخوض في تفاصيل ذلك النشاط، لأن استرسال قاسم في حديثه يحملني تبعات سماعي له، فقد سبق لي مع صديق طفولتي رزاق أن خضت في هذا الحديث وأعرف مسبقا ما يعنيه معرفة نشاط سياسى معارض للسلطة.

كنت مهموما حتى بكيفية نطقي لكلمة واحدة فقط عن قاسم وأنا اتحدّث لأهله، اعتقدت أن قولى لهم إنه اعتقل، يكفي لمعرفة المصير الذي ينتظره وينتظرنا أيضا، لكنني وجدت نفسي أعيد لمرات عديدة حديثي أمام أهله، صعودنا الى السيارة، المكان والزمان الذي سمعت أو شاهدت فيه اعتقاله، الطريقة التي اعتقل فيها، ثم لومه على زيارته للكلية وهو يعلم أنه «مطلوب للحكومة». خرجت من منزلهم، كان شعورى بما يجري في الشارع ضعيفا، فلست معنيا بالناس، إلا أنني أحسدهم على الأمان الذي يعيشونه، فقط لأنهم ليسوا متهمين بمعارضة الحكومة، كنت غائبا عن الوعي، لا أعرف ما أفعل وأنا انتظر اعتقالي في أي لحظة، في المساء جاءني والد قاسم ومعه بعض أقربائه، ومن جديد سردت الرواية على الوجوه الجديدة، الذهول والخوف تركهم شبه أموات، أبناء عمه «موسى» و«صباح» اعتقلوا قبله، العائلة نكبت شرّ نكبة، وفي كل لحظة يداهمنى الخوف من تصوّر ما سيجرى لي، كانت افتراضات لشهد سيتحقق.

يُداي مكبلة، وعيونى معصوبة، والعصى وأسلاك الكهرباء ستترك أثرا لا يمحي على جسدي وروحي، المشهد يمضي بي حتى حبل المشنقة، وكلما حاولت إيقاف الخيال عن إخافتي كان يعيد رسم صورة أكثر بشاعة من الأولى.

مضت بضعة أشهر و تفاقمت قرحة الإثني عشري التي أعاني منها منذ وقت ليس بالقصير، شخص الطبيب، وهو أستاذ في كلية الطب وطبيب لصدام، عبر جهاز الناظور إصابتي بثلاث قرح كبيرة وفاعلة، وحين انتهى من الفحص قلت له إنني أصبحت صديق الله، فهم الطبيب مغزى كلمتي، فقد شبّهت صداقتي بالربّ بصداقة فرضها صدام حسين على من يحمل ثلاثة أنواع شجاعة، فقد اعتبرهم أصدقاء له، ومنهم أشياء من فتايت مائدته، راتب هزيل وهوية، هي مزايا أن يكون الإنسان صديقا لصدام حسين في عصر الجوع، أسكتني الدكتور فهو يعرف تماما ثمن السخرية من «مكارم» صدام، كان تفكيري وأنا أخرج منه منصبًا على مصيري على يد أجهزة الأمن، وليس على مرضي بثلاث قرح في الإثني عشري، كم تمنيت أن يسرع رجال الأمن الى اعتقالى، كان هذا الأمر أكثر رحمة بي من ما يجري لي، فهو ينهي خوفاً وقلقى، لم أكن أفهم جلد المناضلين والمجاهدين وتصبرهم، ولا أعرف شجاعة تحمّل الإهانة والتعذيب، كان الطريق قصيرا ومختصرا بالنسبة لي، اعتراف بكل التفاصيل وهي لا تتعدى «تلميح» قاسم لي بأنه يعرف مجموعة تعمل مع جهات معارضة للنظام، أنهى به خطأي في هذا الوجود أو خطأي في سماع حديث معارض لحاكم لا يعرف سوى لغة الموت والتنكيل، كنت أريد قيادة سفينة مصيري باختصار وسرعة، ولا داعي لإحتمال العواصف، أما أن أظل أرقب العيون واتشكك حتى بالمجانين فهو أمر أشدّ قسوة من أبشع طريقة يمكن تخيلها للموت، كيف يمكن أن تنتهي حياتي؟ طاردني هذا السؤال حتى قضى على أي أمل بحياة تحفظ كرامتي وتبقي شيئا من المودة تجاهها .

هل علي أن استمر بالدراسة بعد اعتقال قاسم أم أتركها للأبد ؟ أين أذهب ؟ هل أبقى في البلد لأجرع كؤوس الاحتقار والشقاء؟ كان علي أن اختار بين الموت جوعا أو الموت

شئنا أو تعذيبا، لم يشاركني أحد حيرة الإجابة. أين أمضي؟ بقائي في مقاعد الدراسة يكلفني مزيدا من الألم والرعب، وتركها يضيف لي مزيدا من الندم والحسرات، التَّشَبُّثُ بالحياة يمنح الإنسان المزيد من القوَّة، لكنني لم أجد أي قوَّة رغم تشبُّثي بالحياة وحرصني عليها.

المهم انتصرت الرغبة بالحياة على الاستعداد للموت، عدت للدراسة، لا رغبة بالعلم والشهادة، أبدا، لم أكن شغوفا بدراسة الاقتصاد ومنحنياته وجداوله، هو ترف أنا في غنى عنه، جلست لمقعد الدرس البارد وجفافة الموحش، واستمر زميلي في الكلية وابن منطقتي وريبب أجهزة الأمن وذراعهم في الكلية، في مراقبتي مثلما كان يفعل أيام مراقبته لقاسم، كان يمدُّ بوجهه الشمعي عليّ في كلِّ محاضرة، يفتح الباب أثناء الدرس ويترك عيونه متمسرة عليّ بضع ثوانٍ ثم يذهب فرحا ومنتشيا، يعرف اني أرقب الباب أكثر من انتباهي للدرس، وحين يمضي كان يتركني حبيس أسئلتي، وخوفي. هذا المسكين يهوى تعذيبي ويستلذُّ بإرهابي، إنه يبحث عن أي مجال يتمدّد فيه شعوره بالقوَّة والسلطة والأهمية، عيونه الباردة، وجسده المنتصب كتمثال، كانا يحملاني الى زنازين الأمن وسياط شرطتها وبرودة قضائتها التي اقتطعت من رطوبة ليل السجون وعذابها، ومن وحشية السلطة التي تتلذذ بالتنكيل بمخالفها، طالما حاورت الزميل ووكيل الأمن هذا في داخلي، استنكرت شذوذ لذته بتعذيبي، كنت أعرف أنه يفعل ذلك بناء على رغبته لا على رغبة رجال الأمن، وكثيرا ما تصوّرت فاقدا لقوته ومسكينا، كانت أمانينا بسقوط نظام صدام حسين تترك لنا حرية تصور مآل بطانته ووكلاء أمنه وضباطه وجلاديه، يضعني خيالي بسقوط صدام أمام صورة بشعة له، فهو سيجد نفسه يوما ما بلا صدام حسين وبلا سلطة تحميه من قسوتي ويطشني، يا إلهي، ما الذي سيحلُّ به؟ هل اكتفي بمراقبته من ثقب الباب ام أثقب رأسه؟ هل أعذبه مثل ما فعل؟ هل أسمح له بأن يكذب عليّ ويقول إنه كان مضطرا لأن يفعل ما فعل بي؟ وهو ما قاله بعد سقوط النظام، أعوانه ووحوشه وكلُّ من جعل نفسه أداة قمع ورعب، وبرغم شدة غضبي عليه، لست مهتما بالتأثر مما فعل بي، ولا

مهتما بمصيره، ولا أعرف أي شيء عنه حتى اليوم.

تعاطف أهلي وأصدقائي معي على محنة علاقتي بقاسم، كان يضيف لي حزنا وخوفا من لون آخر، فما ذنبهم حتى يحتملوا معي عواقب صداقتي، ومع مضي الأيام كان أصدقائي وزملائي يكثر من سؤالي عن أخباره، وأقول لهم، ما الجديد في أخبار معتقل بتهمة سياسية في زمن صدام حسين؟ هل يمكن، مثلا، أن يعفى عنه ويعود مرة أخرى للحياة؟ كنت أتوسل بهم في داخلي بأن لا يعيدوا علي سؤالا هم يعرفون مسبقا إجابته، لكنني كنت أكتفم غيظي من السؤال بالصمت أو بإخراج بضع كلمات تخلو من الروح، أعيد عليهم كلمة، لا جديد، أهله يبحثون عن واسطة تصلهم بأخباره.

الأيام الساكنة والجافة ترمى في سلّة النسيان، أما حين تشتعل بنيران الخوف من السجن أو الاعدام فنسيانها ليس سهلا، ولأنها لا تتكرر فهي تؤرخ لما قبلها وما بعدها، تلك كانت قصة الأيام التي مضت بعد اعتقال قاسم، يصعب علي نسيانها، كانت كل لحظة فيها تعيد علي شريط حياتي، مرّات عديدة كنت أقفز من فراشي بسبب كابوس جثم على صدري، فأقول مع نفسي، يوما ما سيفقدو الكابوس حقيقة، وبرغم رغبتني بأن «تحسم» قضية اعتقالي من قبل السلطة بأسرع وقت وبأي طريقة وإن كانت بإعدامي، إلا أن الحقيقة كانت خلاف هذا الغضب المتأجج، والعاطفة المحدودة، فبرغم خلوها من البهجة إلا أنني لا زلت محبّا للحياة ومتشبّثا بها بكلّ كياني، لا أريد أن تنتهي بالتعذيب والمشنقة.

كانت لحظات الترقّب وهي أشدّ قسوة من التحقق، ترسم نوعا من العلاقة المريبة بمحيطي، ربما كان جاري يراقبني، هكذا كنت أتوهم، وقد تكفي نظرات عابر سبيل لدفعي نحو الاختباء بين طيات روحي، بدا العالم بالنسبة لي أصغر من خرم الأبرة، كيف لي أن أنجو من ضيق الروح والمكان والمصير؟ ذلك هو المسار الذي مضت فيه أيامي، لكنني لم أندم على صحبة حيّة، ومليئة بالحبّة، جمعتني لوقت قصير بقاسم، لم استنكر خياره وقراره، كنت أعرف أي دافع يقف وراء مضيّه بمعارضة السلطة

لحدود العمل على الأرض وليس الاكتفاء باللسان والكلام، واليوم بت أعرف تماما أن روح الشباب الممتلئة لحدودها القصوى برغبات المشاركة في صنع الحياة وتغييرها، هو الذي حوّلهم في نظر السلطة الى مجرمين يستحقون الموت، كان حلم إسقاط صدام حسين هو المحرقة التي قدمت لنيرانها أرواح أناس صادقين، أو ربّما متورطين، ومن يا ترى يمكن أن يتورّط سوى الصادق في نواياه ؟

وحتى اليوم شغلني سؤال ظلت الإجابة عنه متردّدة: ترى لماذا استمر الشباب في معارضة نظام صدام حسين حتى وهم يشاهدون تعرّض آلاف سبوقهم الى التعذيب والقتل؟ لماذا يقدم قاسم بعد مذابح استمرت عشر سنوات ارتكبتها النظام بحق معارضيه على الدخول في طريق المحرقة نفسه؟ لماذا لم يمنع إعدام السابقين في إيقاف اللاحقين ؟ هل كانت الرغبة باستمرار معارضة النظام هي محاولة للحفاظ على الهوية الشيعية؟ هل يخاف الجيل الثاني على هويته الدينية لذلك أعاد مسار الجيل الأول ومصيره أيضا؟

وانا اتخيّل قاسم وهو يعدّب على يد الجلادين، كانت مشاعري تدور بين صورتين أرسمها له، الأولى هي خوفي وحنزي عليه، وهي الأكثر إلحاحا، أما الأخرى فكانت صورة البطل، المؤمن بفعله والمتقبّل لمصيره، وهي المستعارة من حماسة الإسلام السياسي وطاقته التي اشتعلت إبان فترة الثمانينيات والتسعينيات، فقد اختار مواجهة الاستبداد دون الاكتراث بالثمن.

بعد مضي بضعة أشهر على اعتقاله استطاع اهله اختراق حاجز دوائر الأمن وأقبيتها المعتمة، فقد اهدتوا الى حارس في السجن، وأعطوه بضعة أشياء ليوصلها له، نجحت المهمة وهدأت سورة الحزن والخوف عليه، عرفوا أشياء من قبيل مكان اعتقاله، وضعه الصحي، لكن تهمة لم تتضح بالكامل، فحارس السجن يعرف تماما أن الحديث عنها يعني نهايته، فامتنع عن توضيح التهمة، والعقوبة، هذا فيما لو عرف ذلك أساسا.

لم اتحدّث لمن يسألني عن قاسم، كان أهله أنفسهم لا يتحدّثون، فمصيره متعلق

باكتشاف عناصر الأمن لقصة وصولهم اليه، كانت هذه خطأ أحمر لا يمكن التغاضي عنه بالنسبة لمؤسسة الأمن ودوائرها، وقد يجر وراءه ضحايا، ليس آخرهم حارس السجن نفسه، كانت خبرة الناس في معرفة طريقة عمل أجهزة الأمن قد وصلت مع تقدم السنوات الى درجات عالية، فطالما أن أهله عرفوا عنه معلومة موثوقا بها، واستطاعوا إيصال بضعة أشياء له، فهذا يعني بصورة قطعية أن «جريمته» لا يعاقب عليها بالإعدام، بل بالعكس فالإفراج عنه في هذه الحالة هو الأقرب، وفعلا، بعد يوم واحد فقط على إكماله للعام الأول خرج قاسم من السجن. ذهبت له بعد ساعات من وصوله، كان قد خسر نصف وزنه ونصف روحه، لونه تغير نحو الأصفر، ونزلت عيونه في حفرة تحيط بها هالة سوداء، كان الجوع قد أخذ منه الكثير من اللحم، والنشاط، يتحدث بصعوبة واضحة، ولأنه قد ودع ضحكاته مدة عام من الزمن لم يقو على استعادتها بسرعة، كان يبتسم بشيء من التردد، أو ربما كان يقول لنا، إننا نضحك، لأننا «بطرانين» لا نعرف أي شيء عن مآسي صدام حسين ومعنى الوقوع بين فكّيه المتوحشين، لوعة السجن ومصائب أيامه وقصصه أطعمته مرارة فريدة، لكنه سرعان ما عاد لحياته «شبه» الطبيعية، وأكمل دراسته الجامعية.

لماذا يختار الشباب طريق مواجهة صدام برغم حجم العنف الذي يواجهون به؟ قد نجد لهذا السؤال إجابة، ولكن، كيف ينقلون الرغبة من نيّة الى فعل؟ وكيف يترجمون الفكرة الى قرار؟ كان صدام قد سدّ منافذ الأمل بالغد، صادر البلد وحوّله الى سجن كبير، لم يترك في الكثير من الأوقات أي فرصة «للهرب» من بطشه وعنقه، كان يعمل بالصدّ من قانون الطبيعة، فهو ليس جادًا فقط في خلق أعدائه، بل بدا هذا «الخلق» وكأنّه هو هدفه، هكذا كتنا نراه، فمنذ وصوله للسلطة لم يصنع صدام لنفسه سوى صورة إنسان خلا قلبه من الرحمة تماما، وأفرغه من أي محتوى بشري، أهدر كرامة الناس بشكل سافر، واختار العنف طريقا وحيدا لإدارة وترويض المجتمع، لذلك كانت معارضة حاكم من هذا النوع، متوقعة ومقبولة.

كنا نفهم لماذا يعارض صدام، ولكننا لم نفهم، كيف يجري تنظيم الشباب وزجّهم

في إتون المواجهة الدموية، وكيف نجحت أجهزة الأمن في كشف الخلايا المعارضة وضربها؟

في قصة قاسم مع الدخول في صف المعارضة السياسية لم يكن هناك أي جديد، الطرق نفسها، السرية والخوف نفسه، وضالة الأمل، بل وتوقع النتيجة أيضا هو نفسه منذ عشر سنين أو أكثر، ضحايا الثمانينيات يكررون نسخ مصيرهم مع ضحايا التسعينيات، أبناء ضحايا سابقين، كانوا ضحايا لاحقين، وفي النهاية لا جديد تحت شمس المعارضة. في شتاء العام 1989 تحدّث أحد أصدقاء قاسم معه، عارضا عليه الانتماء الى جهة سياسية معارضة، هي حزب الدعوة، وهو الذي يقول إنه قدم «قوافل من الشهداء» عندما يتحدّث عن تاريخ مواجهته لصدّام، لا أدري لماذا هذا الافتخار بهذه القوافل؟ هل هي صورة نادرة من صور البطولة أم هي شكل من أشكال انعدام الخبرة والتجربة؟ ومتى يمكن أن يوقفوا مسير هذه القوافل؟ استمرت القوافل ومرّت بكل المحطات التي مرّت بها، لكن الأمل وهو يتلاشى أمام الجميع، لم يمنعها من المضي في طريقها، جديدها قديم، لكنها عازمة على الاستمرار.

ذهب الصديقان الى ساحة التحرير وسط بغداد، وخلف نصب الحرية التي يبحثون عنها، تحدّثوا عن خيارهم ومستقبلهم، قال له صديقه الذي دعاه الى وليمة الخوف، إنهم سيلتقون بالشخص المسؤول عن قرار قبوله في التنظيم من عدمه، جلسوا ساعات طوالا، لكن أحدا لم يأت، وحين سأله قاسم عن تأخر صاحب القرار، ردّ عليه صاحب الدعوة:

— خلاص انتهى الموضوع، شاهدك المسؤول وسيقرّر.

لم يتحدّث قاسم عن طريقة القبول المريبة، فهل تكفي المشاهدة من بعيد لتمييز مؤهلات القبول أو تحديد أسباب الرفض؟ لماذا تشبه طريقة الدخول في تنظيم يواجه واحدا من أعتى طغاة التاريخ طريقة زواج أهلنا قبل عشرات السنين؟ لم يسأل قاسم أي سؤال، بقى مثل فتى مراهق يريد من الزواج أن يشبع نهمه الجنسي، روح شاب في الثامنة عشرة من عمره لا تبحث عن إجابات وتحليلات، هي تريد «الدخول» في معمعة

العمل، تريد أن يفتح لها الطريق دون تأخير، تكره التأني والحوار والاستفسار، يدخلون العمل المعارض ليس لأنه واضح بل لأنه مرغوب، لذلك لم يعترض قاسم على اكتفاء مسؤوله بمشاهدته من بعيد، ليقرّر بعدها صلاحيته في العمل مع التنظيم. بعد أيام قليلة جاءه الجواب، لقد قبلت عضواً في المجموعة، تسلّم النظام الداخلي للتنظيم، كان ثلاث صفحات فقط تشرح عمل التنظيم وبرنامج، الثلاث صفحات تكفي بنظرهم حتى تكون مقنعة تماماً في أن يقبل العضو الانتماء لصفوفها، أخفاها قاسم تحت جلد حافظة الورق التي يكتب فيها دروسه الجامعية، كان في المرحلة الأولى في كلية الإدارة والاقتصاد، ومع هذه الأوراق الثلاث دخل عالم السرية والخوف والترقب، طلب منه مفاتيح أشخاص يثق بهم، اختار أربعة من أصدقائه المقربين، ليدخلوا أعضاء في المجموعة، كانوا زملاءه في المدرسة الإعدادية وأصدقاءه في نفس الوقت، بدأوا أولاً بالـ«التثقيف» على أفكار التنظيم، أعطيت لهم مقدمة كتاب «فلسفتنا» لمحمد باقر الصدر، المرجع الديني الذي أعدم على يد صدام حسين، ومؤسس حزب الدعوة الإسلامية، كانت مقدمة الكتاب قد اختصرت في منشور حمل عنوان «أي نظام اجتماعي يصلح لقيادة العالم؟».

مساكين هؤلاء الشباب تتعدى أحلامهم واقعهم، يريدون تغيير العالم بل وقيادته، لا يتحدثون عن اللحظة التي يعيشونها هم، بل عن العالم بتعدده واتساعه وتعقيده، إنهم يمسكون بروح الحقيقة وبرقبة الحقّ، تمنحهم بضع صفحات في الفلسفة القوة لكي يغيروا العالم، مثلما تكتفي قياداتهم بنظرة واحدة من بعيد كي يقرروا قبول الشباب من عدمه وتكفي أيضاً في تحديد صفات وقدرات الشخص المنضوي تحت لوائهم وبرنامجهم، الفلسفة التي يريدون أن يعيدوا إنتاج العالم وفقها، هي التي أحرقت آلاف الشباب، وهي التي رملت آلاف النساء ويّتمت آلاف الأطفال، الأوراق الفلسفية هذه كتبت على سبيل الجدول ولكنها وجدت نفسها مشروع ثورة أو موت لا جدل فقط، ومشروع دولة لا حديث نخب في أبراج عالية، الفلسفة التي أوصلت قاسم إلى شفير الموت كانت قد وضعت نفسها أو وضعتها مسارات التقديس ومحرماته في

مصاف التنزيل الربّاني والفيض الرحماني. فمن يملك إزاءها من العقول الفتية شيئا آخر سوى أن يقدم روحه فداء لها؟

لم يطلب منهم أي نشاط في العام الأول، مكتفين بالتحقيف والتهيئة الفكرية، والأوراق الثلاث التي درسوا فيها طرق قيادة العالم، لم تفعل شيئا سوى أنها أعادت عليهم ما يعرفونه مسبقا، كررت محفوظاتهم ومروياتهم، وثلاث أوراق تكفي لتأكيد ما آمنوا به مسبقا. أحد عناصر التنظيم، كان محتدما، ويستعجل «المواجهة» مع النظام، أعدم صدام حسين أحد أشقائه مطلع الثمانينيات بتهمة معارضة النظام، وكان ذلك كافيا لأن يجعله أشبه بالجالس على الجمر، كل لحظة تمرّ به وهو العضو في تنظيم معارض لصدام دون أن يفعل شيء بمثابة طلعان روح، كان يكثر من لومهم وتقريعهم، ويردون عليه، بأن ما باليد حيلة، نحن ننتظر التنظيم ليقرّر ما نفعل، لكن «المحتدم» ارتكب في يوم ما حماقته المتوقعة، فحمل لبيت قاسم كيسا يحوي قنابل يدوية، ربما حدّد هو ساعة موت النظام ونهايته بهذه «الرمانات». لم يكن قاسم في البيت حين وصله صديقه حاملا كيسه، فسلمه للعائلة، ومضى. فأنكشف لأهل قاسم الطريق الذي يمضي فيه، استنفر والده أقرباءه، طالبا منهم الحديث مع ولده بأن يكفّ عن هذا العمل، لم يكن قاسم مهيبا لاستقبال حماقة صاحبه، فوجئ بالقنابل وهي تملأ منزله بالرعب، كان ذلك عقب انتفاضة عام 1991، ويومها كان النظام قد أذهل ليس العراقيين وحدهم بل العالم أيضا بحجم عنفه ووحشيته، لقد قتل في أيام قليلة أكثر مما قتل طوال سنوات حكمه، كانت إبادة جماعية لم يسلم منها حتى الأطفال والنساء والشيوخ، لذلك كانت قنابل صاحبنا قد فجّرت الرعب في عائلة قاسم، وفضحت نشاطه فاضطر الى حمل كيس الرمانات راميا إياه في مياه قناة الجيش، عاد الى المنزل واستعدّ لحرب جديدة مع أهله هذه المرّة، فبعد «يوم القنابل» هذا لا بد من أن تراقبه عيون أمه وأبيه بكل حزم وشدة .

لكن كيف نجا من الموت؟ حين وصل الى الأمن كان أول سؤال تلقّاه من المحقّق هو عن علاقته بمجموعة ينتمي لها ابن عمه وبعض معارفه وهي ليست مجموعته،

كانت أسئلة المحقق تدور حول شخص ملاحق من قبل أجهزة الأمن المعنية لا تتوفر لديها معلومات دقيقة عنه، كان قاسم يعرف المجموعة التي سأله عنها المحقق، وهي عملت مع نفس الجهة أو التنظيم الذي يعمل معه هو، ولكنها تركته بعد أن توسعت علاقاتها بجهات معارضة أخرى، وانكشف نشاطها للأمن بعد هذا الانتقال، كان المحقق يعرف أنّ قاسم لم يكن منتظماً مع المجموعة الملقى القبض عليها ولم يتطرق إلى مجموعته هو، كان مطمئناً أن القبض عليه هو للوصول إلى معلومات تتعلق بشخص مطارده، ولم يصلوا مع قاسم إلى شيء، فتركوه في السجن مدة عام وأفرجوا عنه « لعدم كفاية الأدلة » .

«الأمن» على الأبواب

السلام الذي يطرحه الحكام الدكتاتوريون لا يعني أكثر
من سلام السجون أو القبور.

جين شارب

كتابه «من الدكتاتورية الى الديمقراطية»

رفض شقيقي الأسير في ايران العودة الى العراق واختار الانتماء الى أحد الأحزاب
الشيعية المعارضة هناك، هذا ما عرفناه بعد سنة أو أكثر من نهاية حرب تحرير
الكويت، فلاح انتمى الى المعارضة ولن يعود للبلد، هكذا ببساطة شديدة ترك وراءه
أربعة «أوادم» ليقارع نظاما ليس في الأفق أدنى أمل بنهايته.
في نيسان 1994 عدنا لمنزلنا في الكمالية الذي تركناه لمستأجر عقب نهاية الحرب
مع إيران، وانتقلنا الى بيت شقيقي الأكبر في حي الأمين، وجدنا عقب عودتنا أن دائرة
الأمن التي تشغل الطابق الثاني في بناية مركز شرطة الكمالية فتحت لنا ملفا أمنيا،

باعتبارنا عائلة معارضة للنظام، وبعد عودتنا لمنزلنا بقليل أرسل لنا شقيقي أصدقاء له من إيران لينقلوا لنا رغبتهم بنقل عائلته اليه، بدأت الخطوات ولكن العملية لم تكن سهلة فقد استغرقت ما يقارب العام، انتقل خلالها ملف إرسال العائلة الى أكثر من طرف، منهم أكراد وعرب منتمون لأحزاب في إيران. وفي مطلع العام 1995 تقرّر تهريب العائلة الى إيران، كان ذلك العام هو أقسى ما مرّ بنا أيام الحصار الاقتصادي، الجوع كان مذلاً، باعت الناس أثاثها، وفراشها، وشبابيك بيوتها، لتأمين رغيف الخبز الأسود، ضرب الجوع أعماقهم، انتشرت السرقات وأعمال النصب والاحتيال. كان كلّ شيء مختلفا في عالم الحصار، القيم الاجتماعية المتلبّدة والمنتكسة، الانسجام تحوّل الى تعارض، التّعاضد الى تضارب، التعاطف الى تكاره. لقد أحرقت المجاعة أفئدة الأطفال والكبار وكانت الحصّة التموينية التي تمنحها الحكومة بأسعار مخفضة جدا، لا تكفي سوى لبضعة أيام وعلينا أن نتدبر قوتنا بأي طريقة وبأي نوع من أنواع الطعام .

وصل الشخص المسؤول عن تهريب العائلة، وحدّد يوم 24 كانون الثاني عام 1995 موعدا للعملية، ذهبنا مع العائلة الى البصرة أنا وصديقي حسين، وخال الأطفال ومعنا المهرب، وهو يقيم في إيران كلاجئ ومعارض للنظام، وصلنا الى محطة قطار البصرة صباحا، كان الموعد مع أشخاص آخرين يتولّون المهمة قد حدّد عصرًا، ذهبنا الى بيت أصدقاء لخال الأطفال، مررنا بالسوق لنشتري طعاما نمنع به حرج مستضيفينا، فشح الطعام لا يسمح بأن يقتحم ثمانية أشخاص مائدة عائلة فقيرة بحجة الضيافة، لم تقدم لنا العائلة أي شيء يزيد عن الذي اشتريناه نحن، كان شباب العائلة وهم ثلاثة، هاربون من الجيش ومطاردون، انتقلنا بعد الظهر الى محطة القطار وهو المكان الذي اتفقنا على تسليم العائلة فيه، جاء عدد من الأشخاص ليأخذوا الأطفال وأمهم، كانت الإشارة بيننا هي نصف صورة أحملها معي ويظهر فيها شقيقي والنصف الآخر يظهر فيه أحد أعضاء المجموعة.

نقلوا الحقائق الى سيارة بيك أب في دقائق قليلة، وقادوا الأطفال الى السيارة، رفض

محمد وهو الأصغر، الذهاب من دوني، أمسكني من يدي بقوة، بكى بحرقة، خاف الأشخاص المسؤولين عن نقلهم، فالأماكن العامة لا تخلو أبداً من مراقبة عناصر الأمن وخاصة في مدينة مثل البصرة التي لم تزل تعلق جراح انتفاضتها على صدام، استسلم محمد في النهاية تاركا يدي وهي تمتد لتخفي الدمع الذي انهمر من عيوني. ودعتهم وتركت لنفسي حرية الإبحار في مدى هذا الخوف والألم الذي نعيشه، ترى كيف يمكن الخلاص؟ ما شكله؟ من يقف معنا ليسمع أصوات انسحاق أرواحنا وأملنا بحياة كريمة وأمنة؟ طاردتنا اللعنة في كل تفاصيل حياتنا، رغيف الخبز، الأمان، بقايا الكرامة، لم يكن لنا حيلة في مواجهة هذا البطش والتنكيل، الاستسلام وحده لم يكن كافياً، كان هناك مدى آخر علينا الوصول له، ما هو؟ ماذا بعد الفقر والذلّ وفوقهما سلطة غاشمة؟

مضت بضعة أسابيع بهدوء وسلام، وفي نهاية نيسان وتحديداً في 28 منه، وهو اليوم الذي تحتفل فيه السلطة بعيد ميلاد صدام حسين، طرقت ضابط الأمن الباب علينا، خرج له والدي، سأله الضابط باستخفاف: أين أرسلت عائلتك؟ تلعثم والدي، فانهمر لسان الضابط بكل ما يملك من ألفاظ الإحتقار والإهانة. طلب منه ان يأتي شقيقي صلاح الى مكتب الأمن غداً صباحاً، خرجنا نلوذ بإنسان يمنع عنا سياط رجال الأمن ولعنات سجونهم وتعذيبهم، كان الرعب غمامة تغطي البيت والأرواح والعقول، لم تكن نقوى على الكلام، الصمت كان بليفاً.

هل نملك خياراً آخر سوى أن نترك شقيقي يواجه مصيره المؤلم؟ كيف يمكن النجاة من بطش رجال الأمن، ويبيدهم الموت والحياة؟ اتصلنا بأحد الأشخاص وهو يرتبط بصداقة مع الضابط المسؤول عن المكتب، قال لنا احضروا بعض المواد الغذائية، كيس رز، كيس طحين، علبه زيت، بعض الحبوب، وأشياء أخرى، الطعام في أيام الجوع هديّة لا تقدر بثمن، حملها له صاحبنا وطلب من شقيقي الذهاب دون تردّد، وفي الصباح كان في دائرة الأمن يتلقّى سيلاً من السباب والضرب والتخويف رغم الهدية، فقد منعنا الوسيط من أي حديث مع أي شخص حول الواسطة، قال إن عليه

أن يذهب وكأنه لم يقدم أي رشوة، قال لهم شقيقي بأن زوجة أخي تركت البيت ولا نعرف وجهتها، لا تثبت هذه الكلمات براءتنا، وربما ضحكوا منه لقد نجح الرز والطحين في «سد أفواههم» عن لحمنا وليس «كذبة» أخي المضحكة.

كان الحصار الاقتصادي قد فتّت شيئاً من قوّة وبأس دوائر الأمن، كانت روايت المنتسبين للأجهزة الأمنية شحيحة مثل بقية موظفي الدولة، فحطّم جوعهم سدود الإجراءات التي يتبعونها والقضايا التي يلاحقونها، وإصبح الإبتزاز مهنتهم التي يعيشون منها، كانوا يتركون الكثير من القضايا معلقة وغير مبتوت بها، فهي الطريقة المناسبة «لحلب» الناس، وهذا من حسن حظنا بالتأكيد، فلو كانت قضيتنا قد وقعت في الثمانينات لكنا اليوم عظاما في مقبرة جماعية، فتح لنا هذا الاستدعاء بابا لم يتوقف حتى إنهيار النظام، فكان كل ضابط جديد يستلم مهمة مكتب الأمن يعيد فتح ملفات العوائل المدانة بمعارضة السلطة، ورغم فقرنا الشديد لجأنا الى حيلة المضطر والدواء القديم والناجع، الرشوة.. نشترى حياتنا.

ما أثار انتباهنا في تحقيق الأمن مع شقيقي، هو دقة المعلومة التي لديهم، باستثناء خطأ وحيد، هو اتهام أخي صلاح بإرسالهم، أما بقية الرحلة فكانت منقولة لهم بشكل صحيح تماما، ظلّت ملاحقتنا بين مدّ وجزر، مثلما ظلّ الواشي مستترا عنا، وبعد أكثر من ثلاثة أعوام، حمل لي صديق له علاقة قرابة بضابط أمن وصل قريبا للدائرة، خبر معرفته بمن وشى بنا، كانت امرأة كبيرة، لي صحبة طويلة وعميقة مع قريب لها يعرف قصة ارسال العائلة، أوصلت هذه العجوز قصتنا للأمن، لإبعاد الأذى الذي تعتقد أنه سيصيبها من جراء تهريب عائلتنا، كان لنا فعلا نوع من الارتباط «شبه الحكومي» بها — يصعب علي كشف نوع الارتباط بشكل واضح، حفظا لأشياء لا أرغب بكشفها — إلا أن الأكيد هو أن احتمال تعرضها للمساءلة من قبل السلطة بعيد جدا، وعرفت حينها لماذا أبعدتني عن الموضوع برغم أنها تعرف بأنني من ذهب مع الأطفال الى البصرة وليس شقيقي، لم أخبر أهلي بالأمر وظلّ حبيس صدري، خوفا من مشاكل قد تحصل وتعتدّ وضعنا مع رجال الأمن، ومنها على الأقل أن يصل الى

ضابط الأمن «عتاب» أهلي لها، وخبر معرفتهم «بجريماتها» وحينها سأضع صديقي موضع اللوم وربما المساءلة من قبل الضابط نفسه، وأضع أهلي مرة ثانية بمواجهة أشدّ مع الأمن، فمعرفة «مصادر» الأمن ووكلائه حدث يرقى لمستوى الجريمة في نظر السلطة، لذلك اخترت الصمت دون تردد، وما ضاعف محنتي مع «سري» هو أنني كنت التقى بهذه المرأة بشكل يومي تقريبا، إلا أنني لم أشر لها بأي شيء يوحي بمعرفتي بفعلتها الخسيصة، خوفاً حملني على الصمت، لكنني كنت اتحدث لنفسي حين أراها، ترى هل توقفت ولو للحظة واحدة وأنت العجوز التي تنتظر الموت حين تحثين الخطى صوب دائرة الأمن لتشي بنا؟ هل التفت إلى ما سندفع من ثمن؟ وهل التفت إلى عمرك الذاهب إلى اللحد؟ كنت أرى فيها شهادة كبرى لنجاح صدام في تحويل الناس إلى دمي، مغيبتي الوعي والضمير، وإلى أدوات تجسس لا تتردّد في إيصال الناس إلى المشائق والسجون.

فتح فلاح لنا بابا جديداً من أبواب جهنم، ليس بتهديبه لعائلته إلى إيران بل كان هذه المرة من خلال التلفزيون نفسه، وهل هناك فضيحة تعدل فضيحة الشاشة؟ كان حظنا العاثر قد حملنا فوق ما نحتمل حين التقطت الناس بث التلفزيون الإيراني في بغداد، يومها كان بيت أسبوعياً برنامجاً تلفزيونياً، يستعرض نشاط الفصيل المعارض لصدام الذي ينتمي له شقيقي، وهو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وفي هذا البرنامج كان يظهر فلاح في التابلت وهو يقف على ظهر آلة عسكرية تستعرض أمام منضّة، ويظهر وجهه في اللقطة إلى الحدّ الذي تتبين فيه ملامحه بوضوح، ولا أحصي عدد المرات التي أخبرني فيها أحد من الجيران أو الأصدقاء أو المعارف بما شاهد في البرنامج، إلا إن أحدهم تمادى في السؤال، إلى الحدّ الذي يمكنني أن أقول عنه إنه كان أحقّ من شاهدت في حياتي، كان يعيد عليّ كلما شاهدني السؤال نفسه:

— شفت فلاح بالبرنامج مال الجماعة؟

نعم، أعيد عليه الجواب وأمضي، ولكنه يعيد الموضوع بأكثر من طريقة كلما اتحت له الفرصة، كانت رؤيته تصيبني بالضيق إلى الحدّ الذي أشعر معه برغبة عارمة

تدفعني الى الإطباق على فمه، أعيد له كلمة «نعم» وأنا أكظم غيظي كي لا يطفو فتزداد حينها حماقتي معه أو حماقته معي، ويحصل ما لا يحمد عقباه، في يوم ما قررت أن أنهي هذا الإسفاف والحمق، لم اتردد، قلت له:

— كافي، دمرت أعصابي، ألعن ابو فلاح، لا بو المعارضة، ولك خيلتني يومية نفس السؤال، ما ملّيت؟

كان المسكين يفتخر بشقيقي ويعدّه بطلا حين اختار هذا الطريق، وكنت ألعنه على ما جنى علينا بسبب بطولة لا تعني لنا سوى موتا بـ«التقسيط».

حين أوصلت عائلة شقيقي الى الأشخاص الذين نقلوهم الى إيران كنت هاربا من الجيش، ومع الهروب كان الوضع المعاشي والصحي والأمني الذي أعيشه لا يسرّ صديقا، كنت خاوي الجيب والأمل والصحة، وأعيش خلف جدران بلد نخره حصار اقتصادي أممي خانق، كانت هذه المسارات المؤلمة تشكّل في الحقيقة أقصى منحدر يمكن لإنسان أن يعيشه في ظلّ سلطة تقمع وتنكل بمواطنيها بتلذذ وإصرار غريبين، بين الداء والأعداء ابتدأت القصة أو ستنتهي لا فرق هكذا كنت أقول مع نفسي، وكأنّ كلّ ذلك لا يكفيني كي أشعر بالتهديد والرعب، فأضفت لقصتي نوعا آخر من الهمّ كان هذه المرّة بطعم تبدو معه الأشياء المريرة التي كنت أعيشها نوعا من التسلية، طلب مني الشخص الذي كلّفه شقيقي بنقل الأطفال اليه والذي ظلّ يتردد على بغداد باستمرار أن أعمل أو انتمي الى تنظيمه الإسلامي المعارض والمستقر في إيران.

كنا نجلس في حدائق ابو نؤاس وتحديدا في الجهة المقابلة للشارع المؤدي لسينما بابل، كان الوقت عصر يوم صيفي، ودار الحديث حول السياسة ومستقبل البلد، ما شدني اليه هو حيويته المفرطة وشعوره بالنشوة وهو يمارس دورا خطيرا ومهلكا، قلت له:

— ما المطلوب من المنتمي لتنظيمكم؟

فقال: نريد فقط أن ترسل لنا من الأخبار ما تعتقد أنه مهم لعملنا، مثل إعدام شخص، اعتقال آخر، تحرك حزبي واسع، أو أي شيء تعتقد أنه ينفذ المعارضة العراقية في

توصيل «مظلومية» العراقيين الى العالم.

بدت لي المهمة سهلة بل ربّما رائعة أيضا، وهي بحدّ ذاتها لا تخلو من نبل المقصد والمطلب، أعطاني بضع عناوين في أوروبا وتحديدا في هولندا والدانمارك وأرقام تليفونات فيهما وفي الأردن أيضا، دخلنا الى سينما بابل لنشاهد فيلما لم أعد اتذكر اي شيء حوله بل لا اتذكر حتى إن كان فيلما عربيا أو هنديا أو اميركيا، اذهلتني رغبته بدخول السينما، فحسب تصوري يعد دخول السينما مخالفا لما اعتقده من تشدّد ديني يمارسه أعضاء التنظيمات الإسلامية، ودعني صديقي عقب ذلك اللقاء، ولم تمض سوى أشهر قليلة حتى عاد الى العراق، وكنت حينها قد أرسلت الى العناوين الخاصة التي أعطاني إياها، رسالة أوصل لهم فيها بعض الأخبار، منها ما يعتقد أنه سجن سرّي، في مكان قريب من منطقتنا، كنت أكتب فيها عنوانا مغلوطا لي، وأرسلها، إبعادا للشّر من مركز بريد بعيد عن بيتنا، وتحديدا من مركز بريد شارع حيفا كون هذا الحي يسكنه أشخاص قرييون من النظام أو مرضي عنهم .

حين التقيته في المرّة الثانية طلب مني أن نذهب لنشاهد مقر منظمة مجاهدي خلق في ساحة الأندلس، أخافني طلبه الغريب هذا، لم يتردّد صاحبي حين سألني عن إمكانية الدخول الى بنياتهم، ارتبكت بشدّة من صراحته وزاد من ارتباكى حديثه المباشر عن الثمن الذي يمكن أن يعطيني إياه فيما لو نجحت في إدخاله الى البناية، وشاءت الصدفة أنني كنت قد فاتحت صديقا مقربا مني بعلمي مع الجهة السياسية وعرضت عليه فكرة الانتماء فقبل دون تردّد بل بتهور يزيد على تهوري برغم أنه متزوج وربّ عائلة كبيرة، وكان صاحبي هذا قد رست عليه مقالة لبعض الأعمال الإنشائية داخل بناية مجاهدي خلق، قلت لصاحبي المعارض إنني استطيع إدخاله الى البناية، كانت فرحته شديدة بالخبر، لكنني إمتنعت عن ذلك، عرض علي مبلغا من المال كان في نظري أكثر من جيد، وزاد تمنعي بسبب خوفي الشديد من العواقب، تركني طالبا مني أن افكر بالموضوع على أن نلتقي غدا، ومن جانبي ازدددت عنادا، وكنت كلما تصورت نفسي وأنا بين قضبان السجن أو على مشنقة الموت أجد نفسي وهي

تلوذ برغبتها الحقيقية بالابتعاد عن الشرّ والعذاب، يكفي ما أنا فيه، فلماذا أزيد على نفسي حملا جديدا، فضلا عن ذلك كان خوفي من تبعات إرسال الأطفال الى والدهم يغطيني بهوم وألم جمّة، قلت لصاحبي إني ارتعب كلّما تصوّرت نفسي بين جدران السجن، سخر مني فعلا، قال أنت الآن محكوم بالإعدام للكثير من الأسباب، هارب من الجيش، أرسلت أطفال أخيك الى إيران، تعاونت مع جهة سياسية محظورة، وعملت معها فعلا، فلماذا تخاف من نشاط آخر يؤدي الى الإعدام مثل بقية ما فعلت؟ رفضت عرضه ورجوته أن لا يزيدني عبثا ويكفيني ما أمرّ به، وفعلا لم أره بعد ذلك.

لم قبلت بعرض «المعارضة»؟ سؤال يتردّد في ذهني حتى اليوم، ما الذي طمأنني؟ لماذا كنت أدسّ رأسي بالتراب مثل النعام الخائفة؟ كيف قبلت بفكرة العمل السياسي المعارض وأنا الذي تجرّعت الكثير من الألم بسببها في الماضي برغم أنني كنت مستمعا فقط؟ لماذا كنت هشا وسريع القبول لعمل أعرف مسبقا انه لا يجرّ سوى الندامة والخسران؟ هل يمكن لي أن أبرّر قبولي بالعمل مع جهة سياسية معارضة لصدام؟ كنت اعتقد أن نوع العمل المطلوب مني كان واقعا بعض الشيء أو ربّما مثمرا، فلم يطلب مني الانضمام لتشكيل واسع، ولم يكن هناك مسعى حقيقي للعمل بطريقة حزبية تقليدية، ولم يدع صاحبي أن تنظيمه يعمل بجد على إسقاط النظام، أو يرغب بالعمل المسلح الفعلي، من تدريب على السلاح وإخفائه وإدامته وما الى ذلك، ربّما كانت فكرة اقتصار العمل على إيصال المعلومة الى جهات خارج العراق تكفي لفضح النظام وتوثيق جرائمه وهذه تأكل في النهاية من جرف صدام وتقوي صفوف ضحاياه وتكسب لهم تعاطفا عالميا، لكن طلب صاحبي مني الدخول الى بنائة مجاهدي خلق هدم وبطريقة فظة أي بقايا لصورة جميلة للمعارضة العراقية.

رفضت طلب صاحبي المعارض بإدخاله الى مقر المعارضة الإيرانية، ليس بسبب قوّة الشعور الوطني لديّ، أو أي معنى يدور حول هذه الصورة الوطنية. أبدا، لم أرفض إلا بسبب ندمي على ما جنيت على نفسي حين قبلت أن ألعب لعبة لست أهلا لها، كانت رغبتني الملحة والصادقة بمحاولة إيقاف الخوف الذي بدأ يأكلني كلّ يوم هي

التي دفعتنني إلى أن أرفض طلب صاحبي، كنت قد ندمت فعلا على قبولي للعمل مع المعارضة رغم بساطته، ندمت على استهتاري وتهوري حين رضيت بدور لم أحسب لعواقبه حسابا دقيقا، كنت ألعن نفسي وألعن إيران والعراق كل يوم لأنني تورطت وبدون تردد أو إكراه في لعبة لا تعود عليّ سوى بالخوف والرعب.

الهروب من الخاكي

أما أنا فقد عشت عقودا خرافية من الخوف، ومن الرعب،
في ظلّ الفاشية الصدامية، حتى أصبح الخوف عندي
ضربا من المتعة، ولا أعرف في الواقع كيف نجوت من
فكّ الماكنة القاتلة.

من رسالة للروائي جليل القيسي
الى صديقه مؤيد الراوي

في تشرين الثاني عام 1992 كان الطبيب قد شخّص إصابتي بثلاث قرح فاعلة في
الإثني عشري، بعد عملية فحص بجهاز الناظور كانت مؤلمة أشدّ الألم، بلغت خلالها
أنبوبا من البلاستيك خدش أحشاء رقبتني الداخلية، فاختلط الدم بالسوائل.
زيارتي للطبيب جاءت بعد أن أخبرت صديقي، الدكتور حمودي، أن أحشائي ترمي
سوادا داكنا ومتحجرا، تحدّثت معه في الليل، فأبدى تخوفه من هذه الأعراض، كان

يومها في المرحلة السادسة من الدراسة في كلية طب بغداد، ويكمل دراسته العملية في مستشفى مدينة الطب، طلب أن نذهب صباح اليوم التالي للمستشفى ليعرضني على الأطباء الاختصاصيين، مرجحاً دخول قرحتي مرحلة خطيرة من التدهور، قال إن أعراض مرضي تسمى في الطب «ملينة» - بفتح الميم وكسر اللام - ضحكنا على التسمية، فهي تشبه ما نحن فيه من ملل، وكان الملل يملأ حياتنا ويفيض.

فعلاً أكد الناظور تشخيصه، كان الألم في أحشائي فظاً ولا يتوقف، وفي مرّات كثيرة كنت لا أفقد قواي على المشي والحركة حسب بل حتى على الكلام، فمع كل حرف يخرج مني، كانت أحشائي تهتز وتتقلّص، حتى يصعب عليّ التنفس، وبسبب الإصابة، منحت مطلع العام 1993 من المستوصف القريب منا «دفتر الأمراض المزمنة». كان الدفتر محاولة من الحكومة لتأمين الأدوية الضرورية على الأقل، وفعلاً نجحت في مسعاها بشكل كبير، يومها كان الحصار الاقتصادي قد دخل سنته الثالثة، تاركا الناس في حيرة وخوف من تدبير أساسيات حياتهم من رغيف الخبز الى الدواء، ورأت الحكومة أن تسيطر على حركة الدواء وتقلّل ما أمكنها من استيراده.

كان دفتر الأمراض المزمنة عبارة عن كتيّب صغير يكتب فيه اسم المريض، ونوع المرض، وكمية الدواء التي يستلمها شهرياً، وعلى ضوئه يعطى المريض الدواء بأسعار رمزية، منح هذا المشروع المرضى بعض السكنية، وضمن لهم علاجاً رخيصاً، يمنحني «دفتر المزمنة» شهرياً ثلاثة أو أربعة أشرطة من حبوب «التاكاميت» أقلّ فيها من غضب الأحشاء وألمها، كانت حبّاتها القليلة مثل يد أم حنون، تلمس الجرح برفق وحبّ، فتعيد لي سكوني ورغبتني بالتواصل مع الحياة دون ألم .

كان الشائع حول مرض القرحة بأنه نتاج تدهور الوضع النفسي، والقرحة من جانبيها تزيد من تدهور هذا الوضع، مرض تتعاقب الأدوار فيه بانتظام، وكنت من «أنصار» هذه النظرية والمدافعين عنها، قبل أن تثبت فشلها كما يقول الأطباء، ويومها كنت كمن لم يضيف له هذا التفسير للمرض أي جديد، فوضعي النفسي والمعاشي كان في الهاوية، وترك أثره السيئ على صحتي، ومع المرض بت مستلباً من هذا العالم،

وأشعر بهوّة اغترابي السحيقة ، كان طعمها المرّ يدفعني نحو تخوم الحياة ويعيدني تشبثي بها نحو المركز، ففي الوقت الذي كنت أكمل دراستي الجامعية، إلا أنني لا أقوى على التواصل معها بشكل اعتيادي. «مركزي» المالي البائس كان يرميني بعيدا عن أبوابها، ويقف فقري عائقا حتى عن وصولي الى بنايتها، أيام كثيرة لم أملك فيها ما لا يكفي لدفع أجرة سيارات النقل العام، وأبقى حبيس البيت، أشاهد في عيون أهلي لومهم على هروبي من الحياة عبر الدراسة الجامعية التي أهرب منها هي الأخرى الى حيث لا أدري، كان شعوري باليأس يبني في داخلي حاجزا من الرفض والكآبة، بضعة أصدقاء فقط هم الذين منعوا هروبي النهائي نحو داخلي مانحين إيائي فرصة وفرحة البقاء على السطح .

أكملت دراستي الجامعية في سبع سنوات، رسبت في المرحلة الأولى، وكان ذلك عام 1988، لم أكن جادا في رسوبي ولا راغبا فيه، أما كيف يمكن لطالب جامعي أن يجتهد بالرسوب، فل هذه قصة يعرفها طلاب الجامعات إبان الحرب مع إيران، فقد منعت الحكومة الرسوب أكثر من سنة، بعد أن اكتشفت أن الطلبة يهربون من الحرب عن طريق الرسوب في الدراسة، فكلّ سنة يتأخر فيها الطالب عن إكمال دراسته تعني سنة أخرى من الحياة المدنية.

أما سنوات رسوبي الأخرى فلا زلت حائرا في تفسير سببها حتى اليوم، هل كنت أهرب من الحرب؟ أبدا، فقد رسبت في العام 1991 وهو الذي وقعت فيه الحرب مع المجتمع الدولي لكنّها لم تستمر سوى أربعين يوما، ألغت الحكومة رسوب الطلبة في ذلك العام وعدّته «عدم رسوب» ومنحتني فرصة رسوب مرة أخرى، وفعلا كرّرتها مرّة ثالثة. هل كنت كسولا وغير مجدّ الى هذا الحدّ؟ لماذا لم يدفعني تدهور وضعي المالي نحو الإسراع في إكمال الدراسة؟ غالبا ما فسّرت هذا الفشل الدراسي بأنه نتيجة ليس فقط لكسلي وعدم جدّيتي بل ربّما دفعني لذلك فقدان الأمل بالمستقبل، ليس مستقبل الدراسة فقط بل في مستقبل البلد. لم تكن الشهادة الجامعية يومها تحظى بأي تقدير، سواء من السلطة أو من المجتمع نفسه، كانت المقولة الساخرة: « خريج،

مريخ، الكلّ يشرب من البريج» تتردّد على ألسنة الناس وخاصة الفقراء كلّما سمعوا كلمة خريج، وهذه المقولة الشنيعة في استهتارها بالعلم والدراسة كانت نتاج الحرب الطويلة مع إيران، وقيل إن مطلقها كان عريفا يدرب خريجي جامعة التحقوا بالجيش، فطلبوا منه احترام شهاداتهم الجامعية على الأقل، فردّ عليهم العريف بهذه المقولة، فتداولها المجتمع تعبيرا عن تهكّمه بالدراسة، ما قاله العريف كان طريقة تفكير المجتمع، فالشهادة الجامعية لا تدرّ نفعا ماديا لحاملها، ولا تمنع عنه جوع الحصار وموت الحروب.

في العام 1994 أنهيت سنوات دراستي المتلكئة، وكان من المفترض أن التحق بالجيش مدة 18 شهرا وهي أقلّ من فترة الخدمة العسكرية الاعتيادية، كان وضع الجيش يومها يبعث على الإشفاق، بؤس الجنود والآليات والمعسكرات هو صورة لبؤس البلد بعد الحصار، قلّة الرواتب أوصلت الجنود الى حدّ الاستجداء في الأسواق وكراجات النقل، وكان منظر الجندي وهو يمدّ يده للناس مألّوفا الى حدّ كبير، الراتب الشهري لا يكفي سوى بضعة أيام، وعلى الجندي أن يبحث عن مصادر تمويل أخرى، ويتدبر أمره بالطريقة التي يريدها، منهم من لجأ الى الاستجداء، وبعضهم اعتمد على أهله، كان الجنود الذين يخدمون بعيدا عن مدنهم هم أكثر الذين تعرّضوا للجوع والاندلال، فراتبهم لا يكفي أجور نقلهم الى مدنهم .

في غروب يوم صيفي شديد الحرارة، كنا مجموعة أصدقاء، بيننا اثنان من الأطباء، هما دكتور حمودي ودكتور خضير نقف أمام بناية بريد بغداد الجديدة، شاهدنا على بعد أمتار قليلة منا جنديا يسقط على الرصيف، مشينا نحوه. كان جسده النحيل أكثر ما أثار حزننا ودهشتنا، كان ركاما وأطلالا، يحمل بيده كيسا يحوي أوراقا، إقتربنا منه، مدّ دكتور خضير يده ليجسّ نبض قلبه، مضت بضع ثوان، لكنها طويلة حقا، قال إن نبضات قلبه بطيئة، يبدو أنه لم يأكل منذ وقت طويل، تحرّك الجندي من مكانه، رفعناه بقوة من الأرض، لم يكن يقوى على الوقوف، وبعد أن استراح على الرصيف، عرفنا منه أنه يسكن محافظة جنوبية وسيق الى الجيش في بغداد،

والأوراق التي يحملها معه هي تقارير طبية، يريد عرضها على لجنة طبية تقضي بأمر استمراره في الجيش من عدمه، فتح الطبيب كيس الجندي وأخذ يقرأ، رفع عينيه اليئا، كانتا نصف مفتوحتين، تغطيهما غمامة حزن، قال إنه مصاب بالسرطان، تعمّد عدم إسماعه، وحين عرف الجندي أن الذي فحصه طبيب، قال وهو يسحب الكلمات من جوفه كالجثث. أنا جندي في مركز تدريب النهروان، واكتشف الأطباء مرضي بعد إلتحاقني بالجيش، وأنه بدأ يراجع الأطباء، ويواصل طريق اللجان الطبية الطويل ليثبت إصابته بالمرض، وأن الروتين أضر معاملته، كان يريد إنهاءها بسرعة كي يزيح عن نفسه تعب الجيش والفقير، يريد أن يكمل أيامه القليلة المتبقية في هذه الحياة بهدوء وسكينة، أعطيناها شيئا قليلا من المال، مضى ومضينا، لذنا بالصمت بعض الوقت، دخلنا الى أرواحنا، تلتسنا قسما حزنها ويأسها.

يشبه مصيرنا مصير هذا الشاب الذي يصارع السرطان وقمع السلطة، وجوع الحصار، ومراقبة الأمن والحزب، وفقر الحال، وقسوة الحياة العسكرية، هو مثل كل المساكين، يخاف أن تضيف السلطة ذلّا فوق ذلّه، فتسجنه فيما لو بقي في بيته ينتظر ملك الموت، يعرف أنه سيصبح «فرار» حين يترك معاملة إثبات إصابته بالسرطان، ولن يكمل بقية أيامه بسلام وهدوء، وسيلاحقه البطش الى السجن، لا أحد يعينه على بلواه، وعليه أن يمضي بما بقي من حياته دون خسائر أخرى تضاف لسلسلة خسائره الجسيمة، كان يريد إبراء ذمته مع السلطة والأهل، مع صدام والمجتمع، يريد إكمال رحلته القصيرة بالطريقة التي تنتهي بها حياة الأصحاء. من يعزیه في محنته ومصابه؟ لا أحد أبدا.

قبل استدعائي للخدمة بوقت ليس بالقصير، حسمت أمر هروبي من الجيش، كنت أعرف الثمن الباهظ لهذا القرار، فهو مدمر بكل الأحوال، السجن والمطاردة والخوف، كلّها كانت نصب عيني، وباختصار، كان هروبي في حقيقته صورة من صور الإنتحار، لعبت بورقة إصابتي بقرحة الإثني عشري، كانت بالنسبة لي فرصة ليس للنجاة من الجيش بل على الأقل تأخير التحاقني به، فاحتمال إعفائي بشكل نهائي منه وحسب ما

تحدّده قوانين الخدمة والإعفاء منها ليس سهلا، لكن القرحة تؤخر سوقي الى الجيش مدّة ستة أشهر ويتكرّر لمرة أو مرتين، وفيما لو أثبت الفحص الأخير بقاء القرحة على حالها، يمكن أن أعفى من الخدمة .

قدمت أوراقى الى مستشفى الرشيد العسكري محالا من تجنيدي، وبعد مراجعات تدمي القلب، بدأت من أيلول 1994، حدّد لي تاريخ عرضي على لجنة طبية معنيّة بالموضوع التي أحالني الى الفحص بالناظور، كان ذلك في نهاية تشرين الأول وقبل الفحص بأيام قلائل، نصحني أصدقائي من الأطباء بأن استخدم «الأسبرين»، لأنه يعمل على زيادة شدّة التقرح داخل الإثني عشري، مؤكدين أن العلاج بحبوب التاكमित ربما نجح في شفاء القرحة أو قلّل من أعراضها وبالتالي سيقلّل ذلك من إمكانية كشف القرحة بالناظور بشكل واضح ومميّز، وقد تكون النتيجة اعتباري معافي من القرحة وحينها سأساق الى الخدمة بلا ريب، وفعلا تناولت الأسبرين حتى يوم فحصي بالناظور، الذي منعني الطبيب اللجنة التي أحالني الى الفحص من تناول أي طعام أثناءه، أخذت في الصباح حبة اسبرين وتوجهت للمستشفى، قلت مع نفسي ستذوب هذه الحبة الصغيرة بفعل خواء المعدة وامتلائها بالحوامض، دخلت ردهة العمليات، وضع الطبيب أنبوبة البلاستيك في حلقي، هي نفسها التي مررت بها قبل سنتين، وعاد الألم نفسه، لكنه ألم الفرج ربما، لذلك كنت هذه المرّة سعيدا به، فهو بوابتي نحو جنة الخلاص من الجيش، كان الطبيب الذي فحصني كئيّبا وشديد الانكسار، أنهى عمله بعد دقائق، نزلت من سرير الفحص، مضى الى منضدة في نهاية القاعة، نظر لي بحدّة وقال:

— شارب اسبرين ؟

كنت أعرف أن أطباء اللجان العسكرية يورطون المرضى في الكلام عن طريق اللعب على وتر جهلهم بوسائل الفحص الطبي وثقتهم الواسعة بالأطباء. كنت أعتقد أنه يريد توريطي عبر هذا السؤال، فهو يعرف أن المرضى من الجنود مستعدون لفعل أي شيء من أجل إثبات مرضهم أو زيادة أعراضه حتى وإن وصلت الى حدود الخطر،

مئات الناس بسبب ما تعرّضوا اليه من تعذيب وضرب، كان مرعبا وخاصة في سنوات الحصار، ويصعب على من لم يذق مرارته أن يجعل من كلماته مرّة مثل حقيقة ذلك السجن، وبرغم أنه «موقف» أو سجن مؤقت تنحصر مهمته بإلقاء القبض على الفارين، أو المتغيّبين من الجيش، وإرسالهم الى وحداتهم، أو تجانيدهم، إلا أنّ الأيام القليلة التي يتوقف فيها من يلقي عليهم القبض، كانت كافية لأن تختصر كل ما يمكن أن يجري في أبعث دوائر الأمن.

لم أكن حتى لأفكر مجرد تفكير بأن «البطولة» هي الدافع وراء قرار رفضي للخدمة العسكرية، المخاوف من القمع الذي يمكن أن أتعرض له لم تكن عني وأنا أقرر الهروب من الجيش، لكنني لست معنياً بفكرة الشجاعة، ولا راغبا بها، وكان لتعرّضي ولو لمرة واحدة للاعتقال والإهانة كافيا لمنعي من الاستمرار بهروبتي، بل قد يشعرنني بالندم عليه. قامرت بالكثير من الأشياء حين هربت من الجيش. السجن، البطالة، الخوف، الجلوس في البيت، الألم الذي أسببه لعائلي، وهي أثمان باهظة دون شك، لكنني لم أتوقف عندها، المقامرة بكل هذه الأشياء، كانت أقرب الى الحمق منها الى العقل، فلماذا فعلت فعلتي؟

كان الغضب من المصير الذي وصلنا اليه دفعني مثل الآلاف غيري نحو الخيار الأكثر خسرانا، وهو خيار المواجهة العنيف والباهظ الثمن، وحين أنظر اليوم الى ما كان يمكن أن يكون عليه مصري، أمس بيدي حجم اليأس والغضب الذي عشناه تحت ظل سلطة صدام حسين، كان يأسنا كبيرا من إمكانية أن تغيّر السلطة سلوكها ولو بأدنى حدود التغيير، لذلك خرج قراري من صخب الغضب لا من هدوء العقل.

في آب من عام 1994 أصدر صدام حسين قرارا هو أحد أكبر الجرائم التي ارتكبت بحق العراقيين، وذروة الاستهانة بكرامة الإنسان، فقد أمر بقطع صيوان أذان الهاربين من الجيش، بشاعة هذا القرار هي في الحقيقة انعكاس لبشاعة روح صدام نفسه، أصاب القرار الجميع بالصدمة، يومها كنت على وشك الدخول في عش «الفرارية». ضرب قرار قطع الأذن عنادي وإصراري على الهرب في أساسه وأحبط

عزيمتي على الاستمرار فيه، لكنني سرعان ما عدت الى نفسي مذكرا إياها بأنه لم يعد هناك ما تخسره، أما تشويه الأذن فيمكن تفاديه بتغطيتها بالشعر، أذن تقطع ما المشكلة في ذلك؟! أعرف تماما أن البشر الأسوياء لا يفهمون لغة العدميين، ويصعب على من عاشوا في أجواء الحرية والكرامة الإنسانية أن يلمسوا ما يتركه الجوع والذل والخوف على أرواح أناس وجدوا أنفسهم عراة من الأمل والقوة، كنا ضحايا صراع مرير ودموي مع سلطة تقطع الرقاب والأرزاق والأذان، تسجن، تكيد، تتهم، تُهجر، تقتل، تتجسس، فأني خسارة يمكن لضحاياها أن يعدوها أو يتوقفوا عندها، شعرت يومها أنني مع هروبي من الجيش سأكون مستعدا تماما لأن أبصم على ورقة بيضاء أدفعها للسلطة لتكتب فيها شرورها وتدوّن عقوبتها.

في نهاية تشرين الثاني 1994 تحولت فكرة هروبي الى حقيقة، ومضيت خلف رغبتني وقراري بالهروب من الجيش، فكيف جرت الأمور؟ وكيف مضت سبع سنوات من الخوف؟ انتهت عامي الأول وأنا لا أحمل دفتر الخدمة العسكرية وهي الوثيقة الوحيدة التي تحدّد الموقف من الخدمة، وبقيت حبس بيتي وبضعة شوارع أنتقل بينها مشيا على القدمين، أعمل كأجير يومي في محل لبيع المواد الغذائية قريب من البيت يملكه صديقي الحبيب والمقرب حسين، وأعمل أيضا وسيطا في بيع الأسلحة كالمسدس والبنديقية، والسبب في اختياري هذا العمل هو وجود بضعة أصدقاء يتاجرون في هذا المجال، وبحكم علاقتي الوثيقة بهم، عملت وسيطا، إلا أن العمل كان شحيا الى أقصى حدّ.

نشاط منظمة حزب البعث في المنطقة كان يثير رعبي أكثر مما يثيره الانضباط العسكري، وحتى اليوم لا أعرف لماذا لم تلق منظمة البعث القبض عليّ؟ خصوصا أن لديها ملفا حول عائلتي لا يسرّ بعثيا.

في الخامس عشر من تشرين الأول 1995، كان العام الأول على هروبي من الجيش قد أوشك على النهاية، وكان خوفي من السلطة قد بدأ يأكل بقاياي بهدوء، في ذلك اليوم أدخل صدام البلد في أجواء حدث هو المضحك المبكي فعلا، كانت القصة تدور

هذه المرة حول صدام وقيادته، فقد حدّد ذلك اليوم كاختبار لشعبيته ولحبّ الناس له واختبار لقناعتهم به «قائدا ملهما»، الأمر كان مضحكا وغريبا، فلم يكن هناك منافس له، أو بطرانا يريد أن يزاخمه على الكرسي، كان الأمر نزوة لا غير، أراد صدام فيها أن يذلّ الناس أكثر مما يعيشونه من ذلّ، ففي أسوأ أيام حكمه وأكثرها مرارة وفجيرة وهي أيام الحصار الاقتصادي، أجبر سوط السلطة الناس على أن تصوّت، وتضحك، وترقص، وتحتفل، وتبايع لصدام بيعة أبدية، رقص الجوعى والخائفين لذة تنعش روح الطاغية وتمدّه بالفرح والشعور بالقوّة والزهو.

قبل أيام من بدء «يوم الزحف الكبير» وهي التسمية التي أطلقها حزب البعث على يوم المبايعة لصدام، فتحت باب البيت وشاهدت الرفيق «أبو حسان» يطرق باب الجيران ليوزع عليهم استمارة «جرد» لسكان المنطقة تثبت من خلالها المنظمة الحزبية سجلّها «الانتخابي»! كان شقيقه صديقا مقربا لي، وبحكم العلاقة بيننا يعرف «أبو حسان» قصة تهريب عائلة شقيقي الى إيران وما تلاها من مشاكل مع دائرة الأمن ويعرف بانتماء شقيقي فلاح لصفوف المعارضة في إيران، حين شاهدته بلباسه الزيتوني عدّت الى البيت ووقفت خلف الباب لاسترقّ النّظر اليه، أردت أن أعرف هل سيطرق علينا الباب أم لا، باعتبارنا عائلة «مشبوهة» سياسيا ومشكوكا بولائها للسلطة، وفعلنا اجتاز بابنا وطرق باب جيراننا، خرجت مبتسما له، وحين انتهى من تسليم الاستمارة للجيران قلت له ساخرا:

— ها أبو حسان ليش تحرمونا من فرحة التصويت؟
ردّ عليّ مبتسما:

— اچفونا «اكفونا» شرّكم وكلّ شي ما نريد منكم.

وسط هذه المخاوف كيف أمضيت أيامي؟ قلت إنني أنهيت العام الأول وهو 1995 وأنا لا أحمل وثيقة تثبت موقفي من الخدمة العسكرية، ولكن في العام الثاني، نجحت تجربة تزوير قمت بها وأنقذت وضعي بشكل سليم تماما، ومعها بدا طريق الهروب سهلا، كان شقيقي الأصغر قد أكمل الخدمة العسكرية وثبت ذلك في بطاقة الخدمة،

راجعت التجنيد لاستخراج بدل ضائع، وضعت صورتني في معاملة الاستبدال وليس صورة شقيقي، أفادني الشبه الكبير والعمر المتقارب، وفعلنا صدرت البطاقة باسم شقيقي وبصورتني، حملتها وتحزرت من عقدة الخوف من القبض عليّ، ومعها لم يعد منظر الانضباط العسكري يثير خوفاً، واستمرت حالي هذه مدة أربع سنوات. في العام 1999 حدث ما غير مجرى الحدث بشكل درامي، فقد استدعت السلطة مواليد شقيقي الى خدمة الاحتياط مدة شهر واحد، أكمل شقيقي هذا الشهر، وكان عليّ أن أوثق تسريحه في بطاقتي لأن بطاقته ملغاة في سجلات التجنيد باعتبارها بدلا ضائعا، كان ألمي على ما جنيته عليه يشعرني بالذنب، كنت قاسيا وأناانيا، فقد استحوذت للمرة الثانية على جهوده وجعلته ضحية لخيارتي الشخصي، فبرغم تسريحه إلا أن وثيقته غير معترف بها، كان عليّ أن أبحث عن حل لمشكلته، استعنت بأحد الأشخاص ممن يعملون في تعقيب معاملات التجنيد العسكرية، وهي مهنة راجت يومها بشكل لافت، وكعادة هؤلاء في طريقتهن المريبة لإقناع الزبائن، صور لي الأمر بأنه سهل مثل شرب ماء، كان يسخر من خوفاً على صحّة الختم الذي قال إنه سيحصل عليه من التجنيد، كان شكّي كبيرا بأقوال هذا المزور، وخاصّة مع ضالة المبلغ الذي طلبه ثمنا لهذا العمل، كان يستند الى مبدأ «بالفلوس كلّ شي ممكن»، وكنت اعتقد أن الثقة بمزور خرافة.

أعطيته بطاقة الخدمة والمال الذي طلبه، وبعد يومين أو ثلاثة جاءني بالبطاقة، كان الختم مشوهاً تماما، وحتى بالنسبة لي، أنا غير الخبير بالوثائق والأختام المزورة، كان شكّي كبيرا بصحّة الختم، تسلّمت البطاقة، دون أن أملك حلاً أو معالجة، فأنا الذي طرقت بابيه، طالبا منه مساعدتي في هذا الجانب، بلعت شكّي ولم أقو على بلع خوفاً، حمل شقيقي الوثيقة ما يقرب من عام، ولم يحصل طوال هذا الوقت أن أوقفته أي سيطرة للانضباط العسكري، حتى كان اليوم الذي وقع فيه بيد جنود الانضباط العسكري، كان ذلك قرب الشورجة، أُعتقل وأودع في مركز شرطة «العبّة خانة»، واستنفرتنا كل جهودنا من أجل إخراجه من ورطته الكبيرة، كان ينتظره السجن

لسبع سنوات، خوفي عليه سبق ندمي على توريطه بحماقتي، لقد فعلت به ما لا يستحق، يكفي أنه يعيل زوجة وطفلة صغيرة ويكدح بـ«العمالة» من الفجر حتى المساء في أيام الحصار والجوع، لماذا حوّلته الى ضحية؟ لماذا أضفت لعذابه صفحة أخرى لا ذنب له فيها؟

قصة إخراجه من السجن لا تخلو من تهوّر، فقد ذهب شقيقي الأكبر الى التجنيد، عاملاً بنصيحة صديق له يعمل قاضياً في إحدى المحاكم، كان شقيقي ضابطاً متقاعداً برتبة رائد في الحرس الجمهوري، استنفر علاقته وكلّ الأساليب التي يمكن أن تنفع في إخراجه، ولكنّ تشدّد ضابط التجنيد سدّ علينا كلّ منافذ الأمل، أخيراً، لم يجد شقيقي حلاً سوى العمل بنصيحة صديقه القاضي، دخل غرفة ضابط التجنيد للاستفسار حول ما وصلت اليه قصتنا مع المحكمة وحين جلس قال للضابط:

— أشكّ أن الوثيقة التي وقعت ببيدكم تعود لأخي فعلاً، لأنني أعرف أنه يمكن أن يدسّ أحدهم وثيقة مزوّرة في أوراقه.

طلب الضابط من سكرتيره أن يجلب السجل الذي يحوي صفحة الخدمة الخاصّة بشقيقي، وفي داخله كانت الوثيقة المزوّرة، وضع الضابط الوثيقة بيد شقيقي الأكبر فقام وبسرعة كبيرة بتمزيقها الى قطع صغيرة، ولم يكتف بذلك بل رمى من الشباك الذي يجلس بجانبه، الأوراق الممزّقة، وقال للضابط، ليس هناك وثيقة مزوّرة، وكلّ ما تقومون به هو محاولة لايتوازننا، كان فعلاً في غاية الجرأة، انتقل بسببه القانون الى جانبنا وخرج شقيقي من السجن، وبعد أيام قليلة ذهب الى التجنيد لإصدار بطاقة بدل ضائع وفعلاً صدرت وفيها ختم إنهاء خدمته صحيحاً هذه المرّة، أصبحت وثيقتي غير قانونية لأنها سجّلت في التجنيد كبديل تالف.

لم أجد مفراً من التذكير بالطبيب الذي ينصح باستخدام حبوب تضرّ بصحة المريض كما جرى معي، وبالقاضي الذي ينصح باستخدام طريقة غير قانونية لتفادي حكم القانون كما جرى مع شقيقي، هي أشياء قد لا تحدث في مجتمع تسوده العدالة وقوّة القانون وهي تدان من قبله، أما في بلد تسوده المظالم ويحكم على أهله بالذلّ

والهوان فيمكن فهمها وتقبّلها، المهانون يحاربون بوسائل إهانتهم، الحكومة التي تهين مواطنيها بضرب القانون سيواجهونها بضرب القانون أيضا.

وأنا في أجواء الحديث عن دوائر التجنيد، عليّ أن أكتب عن مفارقة مؤلمة، كنت استحضرها مع نفسي كلّما شاهدت أو سمعت باسم دائرة تجنيد، هذه المفارقة تتعلّق بالسرعة الملفتة للنظر في إجراءات تجنيد الشباب الى الجيش، كان يوما واحدا فقط يكفي لأن يساق المكلف بالخدمة العسكرية أيا كانت المشاكل والخلل في أوراق معاملة سوقه، وفوق ذلك تحدّد فترة زمنية لسوق كلّ المدعوّين الى الخدمة، وعادة لا تزيد على شهر واحد فقط، وإذا علمنا أنّ كلّ تجنيد يضم آلاف الشباب، ولكلّ واحد منهم موقف من الخدمة، بين سوق، وتأجيل دراسي، ومرض، وإعفاء، سنعرف حجم العمل وتعقيده. أما إجراءات التسريح فلم يكن هناك وقت محدّد لإنجازها، وفي أحيان كثيرة تتوقّف تلك الإجراءات تماما، حتى اضطر البعض الى تركها نهائيا أو تقديم رشاوى كبيرة من أجل إنهاؤها. في العادة يكون عدد المسرحين من الخدمة أقلّ من المساقين اليها. ماذا يعكس ذلك؟ سؤال طالما طرحته على نفسي، لماذا لا تتعامل الحكومة مع إجراءات سوق الشباب الى الخدمة مثل تعاملها مع إجراءات تسريحهم منها؟ لماذا تتركهم «دايخين سبع دوخات» حين تضطر لتسريحهم؟ في حين تسرع وبلهفة الى سوقهم للجيش؟!

كانت سنوات الهروب بالنسبة لي هي أقسى ما مرّ بي، يوما أطبق الحصار الاقتصادي على أرواح الناس مخلقا وراءه فقرا ينهش عظامهم، الجوع يعني الموت والجوع هو خوف من الغد، وكانت الناس في صراع مستحيل مع الموت والخوف معا، لم أكن أملك ما يدفعني لأن أشارك الجموع الجائعة في نشاطها أو بالأحرى في قتالها من أجل لقمة الخبز، لا مال يكفي لأن اتاجر ولو بالأسمال، ولا حرية تسمح لي أن أحصل على رغيف الخبز، ومن بين كل الأشياء التي خلفها هروبي كان حبسي في البيت هو الأشدّ وطأة. كنت أتمنى أن تتاح لي حرية «التنقل». فقط أن أخرج من باب المنزل دون خوف. كان ذلك بالنسبة لي حلما.

حصار داخل حصار، وجوع وسط مجاعة، وخوف في حلبة موت، لا أقوى على حصر الأذى الذي واجهني وأنا أصّر على خيارى برفض الالتحاق بالجيش، مثلما لا أعرف كم مرّة ندمت على قرارى، أو عدد مرّات رفضى لفكرة الندم، لا أملك يقينا أو حزما، ولا أملك شجاعة لجم نفسي عن التردّد أو عن الإقدام معا، ولكنى اكتشفت أنني كلّما ازدّدت تورّطا ازدّدت عنادا، وكلّما بدا لى الثمن باهظا كنت أمّنى نفسي بأن آلاف الضحايا ماتوا على وسائد العناد. انتهت سبع سنوات وأنا على حال البين بين، لم أخطُ خطوة ولو واحدة باتجاه العمل والنشاط المالى وتحسين الحال.

رسول

وجدت نفسي منفصما الى شخصين: الشخص الأول يحاول أن يعثر على أثر للجرائم التي يتهم بها فلا يجد، والشخص الثاني يخترع الجرائم حين يعجز الشخص الأول عن اختراعها، وفي هذا المجال كان ضابط التحقيق يقدم لي عونا لا يقدر بثمن حيث رحمت، أنا وهو، نخترع معا في عمل ثنائي ناجح، وهكذا حين كانت مخيلتي تعجز عن اختراع الجرائم كان المحققون يهرعون لنجدتي .

رسالة من المخرج المسرحي مايرهولد قبل اعدامه الى مولوتوف رئيس وزراء «الاتحاد السوفيتي» في عهد ستالين

من بين المئات من قصص المعتقلين بسبب هروبهم من الجيش، كانت قصة رسول، قريبي وصديقي، هي الأبعد أثرا والأكثر ألما والأقسى معنى. برغم قصر زمنها إلا أنها كشفت عن الأثر الذي يمكن أن يتعرض له الشباب حين يمسك بهم جنود الانضباط

العسكري. ألقى القبض على رسول، كان ذلك في العام 1994، يومها كان يؤدي خدمته العسكرية ككاتب ضابط بمعسكر للقوة الجوية يقع في معسكر الرشيد. يذهب الى عمله في الصباح الباكر، ويتناول فطوره في مسطر بغداد الجديدة، وهو المكان الذي ألقى عليه القبض فيه، كان يحمل هوية تسمى بـ «عدم التعرض أو هوية النزول اليومي» وهي تمنح للذين يخدمون في معسكرات قريبة من سكنهم كي لا توقفهم وحدات الانضباط العسكري بتهمة الهرب أثناء زهابهم أو إياهم. أوقف الجندي الانضباط رسول فأبرز له هويته، يتكرر هذا الأمر بشكل شبه يومي، يقرأ الجندي الهوية ويرجعها الى رسول، لكن في ذلك اليوم حصل معه شيء مخالف للمعتاد، فقد رفض الجندي إعادة الهوية وطلب منه الصعود الى سيارة الانضباط ملقيا القبض عليه بتهمة الهرب.

لم يصدق رسول هذه التهمة، وأكد للجندي أنه يكشف عن هويته يوميا لفرق الانضباط ولم يحصل أن قيل له إنه هارب، وتساءل عن الذي تغير اليوم، لم تنفع توسلاته وحججه، مضت الساعات وهو جالس في السيارة، وحين سارت بهم صوب معتقل الحارثية، بدأ جندي من الانضباط بضرب من في السيارة بعصاه، يمزّ وسطهم وهو يصرخ، ويشتم ويلعن، ولكنه صبّ جام غضبه على رسول، أصيب بوجهه، ورأسه، وسال الدم منه، وحين تعب الجندي وتوقف عن الضرب، كانت السيارة قد وصلت الى سجن الحارثية أو ما يسمّى بـ«الجلونات». أنزل منها رسول وأعيد عليه مسلسل الضرب حتى المساء، لم يتناول أي طعام ولم يعالج، وفي نفس الوقت لم يترك.

كانت حيرة رسول كبيرة وهو يرى الاختلاف في التعامل معه، فمن بين الموقوفين كان هو الوحيد الذي تعرّض لهذا الحجم من العنف، لم يعرف أي سبب يميزه عن الآخرين، كانوا يقولون له وهم يضربونه أنه مزور ومحتال. يقول رسول إنه صدّق بالفعل بأنه هارب من الجيش، وأن الهوية التي يحملها كانت مزورة، وكان يتساءل مع نفسه، لماذا هربت؟ ويعود ليصبّ غضبه على نفسه بسبب فعلته الشنيعة، وظلّ يتساءل، كيف يمكن لي أن أصدق أنهم يضربوني بكل هذه القسوة وهم غير متأكدين

من هروبي، ليس لي أي علاقة أو عداوة معهم، ولا يعرفون عني أي شيء، فضربهم كان بسبب عدم التزامي بعلمي وتجاوزي على الأوامر العسكرية، الضرب القاسي الذي تعرض له أفقده الثقة بنفسه، وهزّ بعنف كلّ ما يحمل من يقين، كان رسول يتيما، فقد أباه حين كان طفلا صغيرا، وربّته أمّه ولم تتزوج، أحيط بحنانها وحبّها، وكان خوفها عليه كبيرا، وحين تطوّع في الجيش وهو لم يتعد الثامنة عشرة من العمر، واجه قسوة حياة العسكرية أول الأمر بنوع من التصدي والثبات ولكن قواه خارت، ومع تقدم الأيام بدا حزينا ومنطويا، فمن دلال الأم الى سياط الخاكي، ومن وداعة كلمات الأهل والأقارب معه الى برودة وجفاف لغة الجيش وضباطه، الصورتان اللتان لا رابط بينهما تركاه معلقا بين عالمين، العسكر، والأم. الحبّ، والوحشية. الراحة، والإرهاق، بين ألم البقاء في الجيش والخوف من تركه مضت أيام رسول، وحين واجه الضرب الشديد على يد الانضباط العسكري لبس دور المجرم وعاش فيه فقد نجح في اختيار نوع مصيره، فبعد أن سلّمه الانضباط لوحده هرب فعلا من الجيش وبقي مطاردا حتى النهاية.

حمودي

نحن الذين غادرنا البلاد، كل حمل معه أسبابه وأحلامه،
كان وهم العودة يلاحقنا - سنة و تمرّ - لكن السنوات
تعاقبت ومعها صرنا مطمئنين لحياتنا، تكررت الأيام
كثيرا، جاءت الحروب وتوسعت المقابر والسجون على
طول البلاد، حتى صرنا نوجد الأعذار أمام وهم العودة.

الفنان التشكيلي
ضياء العزاوي

كثيرون لا يحبون اسمهم، ويتمنون أجمل منه، منهم من حمل أهله مسؤولية تسميته
باسم «متسرّع» يعبر عن حماساتهم لشخصية عامة، أو مناسبة خاصة، ومن بين
هؤلاء من حسم أمر تردده مع اسمه فاستبدله. وحمودي من هؤلاء الذين يتمنون لهم
اسما آخر، كان يقول إن اسمه ليس «جاذبا»، هو «تدليح» لا يجد له سببا، فهو ولد

في قرية من قرى محافظة الكوت عام 1968، ولم يكن لوالده أي صلة ببغداد، فمن أين جاء بهذه الروح البغدادية لاسمي؟ بدأ حمودي رحلة حياته وهو في خلاف مع اسمه، وكأنه لم يكن ينتظر خلافات أخرى أعمق وأكثر أهمية .

حين أكمل المرحلة الأولى من دراسته الابتدائية في العام 1975، انتقلت عائلته لبغداد، كانوا اثني عشر شخصا، لم يجد والدهم طريقة لإعالتهم في العاصمة سوى العمل بأكثر من مجال، تربية الأغنام، وبيع الشاي والبيض المقلّي وسط حي في طور الإنشاء، وأخيرا حراسة دائرة حكومية، ومن أجل كفاف عائلته ظلّ والده حتى آخر سنوات عمره يخوض حربا مع المدينة، وبالنسبة لفلاح فقير الكفاءة كانت بغداد صورة من صور جهنم.

أكمل حمودي مراحل الدراسة بتفوّق، نكاؤه وحرصه على درسه، وضعاه في المقدمة، لم يكن والده معنيًا بمسار ولده في الدراسة، بل ربّما كان ممتعضا من تأخره عن الدخول في سوق العمل، ربما كان يريد «أسطة» في مجال البناء، أو تصليح السيارات، أو أي عمل يساعده في توفير قوت عائلته. دخل حمودي الدراسة المتوسطة حين وقعت الحرب مع إيران، يومها كانت تصورات الآباء وخاصة أرباب العوائل الفقيرة حول إكمال الدراسة متناقضة، فهي في نظرهم تعطلّ الأبناء عن المساعدة في معيشة العائلة بعد أن أصبحت الشهادة الجامعية لا تدرّ عائدا مثل الذي يدّره العمل الحرّ ولا قيمة لها في نظر المجتمع. ولكن إكمال الدراسة كان في نفس الوقت نجاة لأبنائهم من الحرب فهي تؤخر التحاقهم بها، حيرة الآباء بين رفض الدراسة وقبولها، كانت محصورة بالعوائل الفقيرة فقط، لكن حمودي وتخلّصا من مشاق تحميل والده مسؤوليات وأعباء مالية قرّر إكمال دراسته الجامعية على نفقة وزارة الدفاع، فالتحق بالكلية الطبية العسكرية عام 1986 على أن يعمل طبيبا في الجيش ويمنح رتبة ملازم أول بعد التخرج، وحين انتهت الحرب مع إيران ألغيت الطبيّة العسكريّة وألحق طلبتها بكليات الطبّ حسب سكنهم، فدخل حمودي كليّة طبّ جامعة بغداد، وأكملها عام 1992، عين طبيبا في مستشفى الناصرية العسكري،

برتبة ملازم أول، كان عاماً واحداً فقط قد مضى على انتفاضة الجنوب، وتعيش الناصرية مخاوف وأحزان ما وقعت فيها من جرائم ارتكبتها قوات النظام وأجهزته الأمنية والحزبية، وكانت الجيوش قد استباححت المدينة، ودكتها بكل صنوف الأسلحة تاركة إياها أنقاضاً وخرائب .

كانت آثار الحرب التي دارت في شوارع الناصرية بين الأهالي وبين النظام قد ألفت بظلالها على حياة الناس. آلاف الشباب فقدوا ولم يعرف أثر لهم ، وآخرون هربوا صوب القوات الأميركية على الحدود مع السعودية وألقوا في مخيمات «رفحاء» وسط الصحراء. فضلا عن ذلك دخل جوع الحصار مراحل القاسية وضرب أحشاء الناس، الخوف من السلطة والخوف من الجوع يتقاسمان أيام المدينة وأرواح أبنائها، ووسط مدينة الخوف هذه اشتعلت في نفس حمودي جذوة قراره بالهرب، وكان عليه أن يبحث عن طرق لنجاته من هذه المحرقة، لم يرغب في الزواج تاركاً حمله خفيفاً، كأنه يقول «هكذا ينجو المخفون»، ولكن رغم أحزان العيش وسط أهوال العراق والرغبة المتأججة بالهرب، لم يكن حمودي عبوساً أو منطوياً، وتلك كانت أبرز مزاياه، صبره، وسعة صدره تبعث في نفس القريبين منه الكثير من الدفء والألفة، لم يكن معنياً بالحديث للآخرين عن معاناته، بل كانت شجونهم هي نقطة ألمه وهي بحر أحزانه. لذلك نجح بسرعة في بناء علاقات اجتماعية لا تزال إلى اليوم قائمة سواء في الناصرية، المدينة التي أحبها، أو في بغداد المدينة التي لم يعرفها تماماً .

كنت كلما شاهدته ببدلته الزيتونية ورتبته العسكرية لا أصدق أن هذا الإنسان الرقيق، منسجم مع هيئته ولباسه، رفته وقلبه الممتلئ بالنبل لا تنسجمان مع مهنة لا تحفظ عنها ذاكرتنا سوى صور الغلاظة والتكبر، هل يمكن لحمودي أن يلبس روح الضباط ويستخدم لغتهم وهو الذي لم يهن أو يجرح أي إنسان طيلة حياته؟ ومع قراره بالهرب كنت أظن أنه سيرتك لروحه وهي تعيش ليلتها الأخيرة في العراق فرصة الخوف والشكوى والبكاء من المأل الذي صرنا إليه، من شتاتنا المفجع، من عذابتنا المهينة، من مستقبل صادرته سلطة متطرفة في وحشيتها، وأنه سيبكي طويلاً ونحن

نجلس وحدنا. لكنه كان صلبا، فلم يرف له جفن، لم يكن الخوف من رحلة الهرب المحفوفة بالمخاطر ظاهرا في حديثه أو سكونه، كان أشبه بمسافر في رحلة قصيرة، ربما حجب ثقل آلامه عن عيونه البكاء والشكوى، بدا لي فارسا رفض المهانة واختار الحرية وإن كان ثمنها روحه، لقد قرّر أن يترك وراءه جولة نجاحه في الوقوف بوجه الفقر والذلّ في العراق ليبدأ رحلة جديدة مع فقر جديد محتمل، أراد البدء برحلة ما بعد الثلاثين من دون أب يشجعه أو صديق يساعده، كانت رحلته وحده.

كانت إيران أوّل محطات رحلته، وهذه وحدها قد تنهي آماله وتضعف من فرص انتقاله لبلد غربي وهو الهدف الأخير الذي يحلم به، بدت أولى الخطى مجازفة كبرى لكنه كان مضطرا لها بسبب منعه من السفر لأنه ضابط طبيب، وتمنع قوانين الدول المحيطة بالعراق وخاصة الاردن العيش والاستقرار فيها دون وثائق سفر وإقامة رسمية. أما إيران فكان له فيها معارف يمكن أن يساعده في مسائل السكن والهرب منها. فضلا عن ذلك فإن أجهزتها الأمنية لا تتشدد مع الهاربين لها وخاصة من الشيعة والأكراد ولا تدقق في وثائقهم. والكثير من العراقيين عاش فيها سنوات طويلة دون أن يحمل وثيقة سفر، مكتفين بما يسمى «بالكارت سبز» وهي وثيقة تصدرها السلطات تحدّد وضعا قانونيا للعراقيين الهاربين أو اللاجئيين فيها .

لم يكن تفصلنا عن نهاية العام 1996 سوى أيام قليلة، حين وصل حمودي الى بغداد في إجازته الشهرية الاعتيادية، قال إنه اتفق مع أشخاص يوصلونه لإيران مع صديق له وهو طبيب وزميل دراسته، مؤكدا ثقته بالمهربين، لم أكن أعرف كيف تحقّق من هذه الثقة التي تكفل له الطمأنينة. كان أي خطأ في مثل هكذا عمل يعني الموت لا محالة، وأعرف أن الدكتور قد يولي ثقته بناء على حسن نواياه بالناس لا على أساس التّحقّق والتّأني.

لم أكن قادرا على ثنيه عن قراره الذي اتخذه قبل سنوات، بتنا ليلتنا الأخيرة في بيتنا، لم يكن أحد يعرف بهروبه سواي، ألقى عليّ مسؤولية إيصال الخبر الى أهله، كان هو المسؤول الفعلي عن إعالة والديه وعدد من أشقائه، وليس له شريك في مهمته الجسيمة

هذه أيام الحصار، لذلك كان إبلاغ أهله بهروبهم مهمة صعبة بالنسبة لي، ومن بين عائلته كانت مشاعره ومخاوفه منصببة على والده، قال إنه سيضيف الى والده حزنا جديدا فوق أحزانه. كان والده قد فقد اثنين من أبنائه في الحرب مع إيران، أحدهما، وهو أكبر الأبناء، قتل تاركا لهم ثلاثة أطفال، أما الثاني ففقد أواسط الحرب ولم يعرف مصيره. كان حمودي يعرف أي ألم سيسببه لوالده في رحيله، لقد تلمت الحرب روح والده الصلبة ولم تعد تحتل ضربة أخرى يسببها له رحيل ابن آخر.

طلب مني إيصال الخبر وتسليم مسدسه العسكري الى أهله، كانت مشاعري حول رحيله ملتبسة، ومتناقضة، أحزن له وأفرح، أسعد وأشقى، أرغب وأرفض، فتحت أي ظرف يصعب عليّ تقبّل فكرة هروب إنسان تربطني به وشائج وصلات ومشاعر حبّ وتقارب، لكن الأمل والكرامة اللتين سحقتهما سياسة البطش والإرهاب جعلت من ملايين العراقيين أسرى لهذه المشاعر المتناقضة، بين الهرب من البلد وبين البقاء فيه، بين تحمّل مشاق الحياة وسط أهوال الحروب والموت المجاني وبين الشعور بنضوب طاقة التحمّل وأعباء البقاء، ظلّت أفكار العراقيين ورغباتهم أسيرة لهما، لكن ثمن النجاة من أهوال العراق ليس سهلا وهو بالتأكيد يمرّ بكلّ هذه المشاعر الملتبسة والمتناقضة، الخوف من القبض عليه، والأمل بنجاته، حزني على رحيله، وقبولي بهذا الرحيل، أسئلة وشكوك تركت روحي بين أنقاض الخوف والألم، لم نكن نعرف درجة نجاح أي خطوة تلي الهروب، كانت قفزة في المجهول.

في صباح السادس من كانون الأول 1996 ودّعته، وهو يذهب الى حيث يعتقد أنه النجاة من هول الحياة في العراق. لم أكن أعرف في أي يوم سينتهي مهمته، كان كلّ شيء مرتبطا بظروف المهريين أنفسهم، قد يستغرق ذلك يومين، أو ربّما أكثر، ليس هناك حسم حول توقيت عبوره الحدود. طلب مني أن اترتّب لبعض الوقت قبل أن أخبر أهله، فقد تتعرقل المهمة أو تفشل، قال إنه سيتصل بي حين يتأكد أن هروبه قد تأجّل وفيما عدا ذلك فانها ماضية بطريقها.

أمضيت اليومين اللذين أعقبا زهابه في البيت، وفي اليوم الثالث تحدّثت مع شقيقه

«فاضل» حول ما جرى، أتاح لي قربي من فاضل وارتباطي العقلي والروحي به وقربه الشديد من حمودي ومعرفته بنواياه وقرار هروبه، أن اتحدّث له باختصار شديد عن الخبر، كنت أشبه بمراسل حربي، أنقل ما وقع أمامي من مشهد قاس، بطريقة واضحة وصریحة. لم يكن فاضل متهيناً للموضوع، كنا نمشي في الشارع حين وقفت لأسرد الخبر دون مقدمات، عجزت عن اللمة واللغة والمفردات، فقلتها باختصار وفجاجة، كانت مشاعر فاضل مزيجاً من الارتباك، والحزن، والخوف، كان مشتت الأفكار فلاذ بالصمت لبعض الوقت، وحين أيقن أن رؤية حمودي مرّة ثانية غدت حلماً بعيداً، أعاد مع نفسه شريط حياته معه، كانا أقرب إلى الصداقة منهما إلى الأخوة، أو هي أخوة بلباس الصداقة وروحها وعفويتها، لم يتمالك نفسه فبكي.

مضت ثلاثة أيام أو أكثر، حين توقف قبل انتصاف الليل بث تلفزيون الشباب المملوك لعدي صدام حسين، ليقرأ المذيع بصوت يفتعل الحزن نبأ تعرّض عدي صدام لعملية اغتيال في شارع 14 تموز وسط حي المنصور، ذهبت روحي باتجاه حمودي، وذهب خيالي إلى إيران، فقتلة عدي أتوا منها بكل تأكيد، تصوّرت حمودي وهو يقف على الحدود في اللحظة التي تملأها جيوش صدام لتغلق بوجه قتلة عدي طريق العودة من خلالها. كنا نعرف أن صدام حسين لن يدع البلد يعرف طعم السكينة والهدوء عقب هذا الحادث وأنه سيخوض «حرباً» مصغرة أخرى مع الناس، وأن أوّل ما سيفعله هو إغلاق الحدود ورصدها ومراقبتها. أيام قلائل فقط كانت تفصل بين موت حمودي وبين حياته، بين أمله بحياة كريمة وبين حبل المشنقة، اشتعلت الظنون، هل نجا؟ هل أمسكوه؟ هل مرّ به قتلة عدي وهم ذاهبون إلى إيران أم وهم عابرون صوب بغداد؟ مضت الأيام بين تلك الظنون. لكن نجا حمودي بدت هي الحقيقة، أما كيف عبر الحدود؟ أي ألم وأي خوف وأي أمل كانوا رفاق رحلته؟ هذه أسئلة لم تعد مهمة بالنسبة لي أو لأهله، فالهمم أنه لا زال حيّاً يرزق .

مضت ستة شهور قبل أن يتصل حمودي في نهار حزيرانني عبر الهاتف، من اليمن هذه المرّة، كان يتحدّث من مطار صنعاء، بدا سعيداً بهذه المحطة، كان حائراً بين

الحديث الطويل عن رحلته الشاقة والمميّنة الى إيران وبين رغبته بأن يختصر الاتصال على طمأننتنا فقط، لقد نجا من هول محرقة العراق ومن ظنك وعسر إيران، التي عاش فيها شهورا قليلة فقط لكنها مؤلمة ومحبطة، رحلة الشهور الستة الإيرانية والسنتين اليمينيتين انتهت الى حيث يحلم هو، على أرض استراليا هذه المرّة التي عبرها في قارب متهالك قد يرمي راكبيه في أي لحظة وسط مياه المحيط، لكنه نجا أيضا من أهوال المحيط، واستقرّ طبيبا ناجحا في بلد غربي، حفظ كرامته وإنسانيته وحقق فيه أحلامه التي ظلّ يبحث عنها دون جدوى في بلده .

اعترف أن سؤالاً قد لا يخلو من السذاجة ظلّ يؤرقني منذ سنوات طويلة وتحديدًا منذ أن أصبح الهروب من العراق هو النجاة، والحلم، والأمل. هل عليّ أن أفرح بهروب أناس أحببتهم وسعدت بمعرفتهم أم عليّ أن أحزن؟ أعرف أن الهروب ليس طارئا أو مؤقتا أو محدودا بسنوات وأيام ، فماذا لو هرب كلّ الأحبة؟

لا شكّ أنهم نجوا بأرواحهم، وكرامتهم، ومواهبهم، لكنني حتى اليوم أسأل نفسي، ما الذي خسره الهاربون من العراق؟ هل وجدوا في شتاتهم ما يمحو كلّ أثر لبلد ولدوا وعاشوا وحلموا وكبروا فيه؟

الحصار الاقتصادي

يقرّر أن تمنع جميع الدول ما يلي:

أ- استيراد أي من السلع والمنتجات التي يكون مصدرها العراق أو الكويت.

ب - أية أنشطة يقوم بها رعاياها أو تتم في أقاليمها ويكون من شأنها تعزيز أو يقصد بها تعزيز التصدير أو الشحن العابر لأية سلع أو منتجات من العراق أو الكويت وأية تعاملات يقوم بها رعاياها أو السفن التي ترفع علمها أو تتم في أقاليمها بشأن أية سلع أو منتجات يكون مصدرها العراق أو الكويت.

فقرات من قرار مجلس الأمن الدولي 661 في جلسته 2933 في 6 آب 1990

ليلة 20 آب 1990، كانت أمي تنتظر نهاية شريط حياتها بين يدي حفيدها «محمد»، ومع دموعه رمت في تنور أحزانها آخر عيدان خطبها، باتا معا ليلتهما الأخيرة، كنا شهودا على وداعهم الصامت، والشديد الألم، على بساط الموت تحتضن الجدة حفيدها،

تكتفي به من دون كلِّ ما مرَّ بها من أناس وأحبة، وعلى ميراث الحزن هذا، كنا ننتظر أفولها بعيون حائرة وخائفة من الغد.

معاناتها الشديدة من السرطان ولحظاتها الأخيرة في حياة طويلة الألم، كانت تنقضي بين يدينا في تلك الليلة. ليس هناك أحد يمسد رأسها سوى. أبنائها الآخرون كانوا يعيشون مثلها لحظات موت بطريقة أخرى، اثنان منهم يختبئون في الصحراء ويستعدون لمواجهة نيران حرب على الأبواب، وثالثهم يقضي بين جدران الأسر في سجون إيران سنوات شبابه، يمحو كلَّ ليلة شيئاً من عمره ويضيف لكتاب أحزانه على فراق أطفاله ورقة أخرى. أنا وأبي وبناتها الثلاث نحيط بفراس موتها، طحنها المرض وجعلها عيوننا فقط بين كومة عظام.

في الفجر ضاق نفسها، وتوقَّف قلبها، وأغمضت عينيها، لم تمض سوى لحظات قليلة على وداعها الأخير حتى وصل ابنها البكر من الكويت، جاء مسرعاً لعلَّه يلحق بآخر أنفاسها أو بآخر أمانيتها. رحلت «ام اسماعيل» وبدأنا طقوس العزاء، نصب الجادر، وتهيئة الطعام، والجلوس لاستقبال قبلات العزاء وعبارات الموااساة. كانت أربعة عشر يوماً فقط قد مضت على صدور قرار الأمم المتحدة بمحاصرة العراق، لذلك كان سلوكنا الاجتماعي وخاصة في المناسبات على حاله، في الصباح ذهبت لشراء مستلزمات العزاء، أكياس الرز والسكر والشاي، واللحم، كانت في متناول اليد، ولم يطرأ على ثمنها أي تغيير، ولم نكن مضطرين الى تقليل النفقات، «الخير وفير» وأخبار الحصار لم تشكل بالنسبة لنا مبعث خوف وقلق.

أيام قليلة فقط وينسحب صدام من الكويت بعد أن يحلب دول الخليج، ويعطونه المال وهم صاغرون، لينتهي كلُّ شيء، التهديد بالحرب، والحصار، وغيرها من مقدمات الحرب، هكذا بدت لنا الصورة، وإلا فكيف يمكن خوض حرب مع العالم بجيش لا زال يلحق جراح حرب لم تنته تبعاتها بعد؟ كيف يقوى اقتصاد خرج للتو من حرب مدمرة على الدخول في أخرى دون أن يعيد ترتيب نفسه؟ كيف يمكن لمجتمع خضَّته الحرب بشكل عنيف أن يواجه حرباً أخرى؟ كلُّ هذه الكيفيات كانت تبعث الاطمئنان

بأن حرباً أخرى لن تقع، وأن الحصار سيكون ورقة تهديد لا غير. لا أحد يعرف ما بعقل الطاغية، أو يقوى على الاقتراب من مراده، لكن هكذا كنا نحلم أو نحسب أو نتوقع. ولكن مع مضي الأيام بدأ الحصار يفعل فعله، تجلس الناس في الصباح لتجد نفسها عاجزة عن دفع ثمن ما اشترته في المساء، الأسعار ترتفع بالدقائق وليس بالأيام، وقائمة المواد الغذائية التي تستهلكها الأسرة تتناقص كل يوم، ألغيت فقرة اللحم من برنامج العائلة، وكيلوات الرز الذي تمنحه الدولة عبر البطاقة التموينية لا تسد حاجة الأسرة ورغم ذلك تكفي بها، البقوليات بدت ترفاً لا داعي له. كان «وحش الطاوة»، وهي التسمية التي أطلقتها الناس على الباذنجان، هو المادة الأساسية في المائدة، تحوّل الباذنجان الى نكتة ومن دون الكوميديا لا يمكن تحمل المساءة، الفقر المرّ يخفف عن نفسه بالسخرية.

الأسعار التي تغيرت غيرت معها شكل العملة وقوتها الشرائية ودرجة الثقة بها، بدأت الدولة بإصدار النقود في مطابع محلية كانت تستخدم لطبع الوثائق الرسمية، كان عمر الورقة النقدية لا يتعدى الأسابيع، وكأنّ الحكومة تعرف أن حاجة الناس الملحة وفقهرهم الشديد يمنعهم من الإحتفاظ بها، يصعب تمييز ورقها عن الورق العادي. وحسب القاعدة الاقتصادية «العملة السيئة تطرد العملة الجيدة من التداول» انسحبت العملة القديمة التي تسمى بالسويسرية من السوق. في أيام معدودات انهارت ثقة الناس بالعملة، كانت تتآكل شيئاً فشيئاً، وفي نفس الوقت بدأ الحصار يأكل الناس، انتشر تزوير العملة، فكان دخولها للسوق سهلاً مثل دخولنا الى الكويت، وسرعان ما تتحوّل النقود المزوّرة الى بضاعة، وتنافس العملة الورقية الرسمية الرديئة الصنع أساساً. كنّا نلمس جنون الأسعار لمس اليد، بدأت العوائل الحرب على المدخرات، باعت ما لديها من ذهب، واستنفدت ما في مخزونها من نقود، ثم التفتت نحو الأساسيات، واتبعت ستراتيجية الاستبدال، التلفزيون الملون استبدل بالأسود والأبيض، والثلاجة السليمة بيعت بأخرى «نص عمر»، صحنون «الفرفورى» حلّ محلها «القافون»، وانسحبت السيكاارة أمام «التتن اللف»، ومع مضي الوقت فرغت البيوت من أي ملمح

من ملامح الحياة الكريمة. وفي الليل تجتمع الناس لتحدث عن أساتذة الجامعة الذين يفترشون الأرض ليبيعوا السكاثر، أو السكر، أو الفاصوليا، أو عن المدرس الذي ترك مهنته ليتشغل حمّالا في السوق، أو عن الضابط الذي اشتغل عامل بناء.

مرّ الحصار بمرحلتين، الأولى بدأت من يوم السادس من آب عام 1990 حين صدر قرار الأمم المتحدة 661 القاضي بمحاصرة العراق حتى الثاني عشر من كانون الثاني 1996، حين قبل العراق بتطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم 986 الصادر في 14 نيسان 1995 (النفط مقابل الغذاء). وفيها يكون قد مرّ ألفا يوم على الحصار، كانت سوداء حالكة، «انترتت» الناس فيها، لقمة الخبز، قطع الملابس، الدواء، أثاث البيوت، الوجوه، استحالت رمادا، كنا نلوذ بالأشياء التي تقينا من الموت فقط، نكتفي بالقليل الذي يسمح للدم بأن يجري في العروق، أيام الجوع هذه تركت وراءها ذلا ليس له حدود. يا آلهي مالذي مات فينا حتى تجرعنا ما جرى لنا؟

في كانون الثاني 1996 قبل صدام حسين بما سُمّي ببرنامج النفط مقابل الغذاء والدواء، أطلق الشارع على ذلك القبول تسمية «النزول»، فبعد لحظات من قبول العراق بالقرار انخفض سعر صرف الدولار من 3000 دينار للدولار الواحد الى أقل من 700 دينار، وانخفضت تبعا لذلك الأسعار لحدود تصل الى 80 بالمئة، وتحدّثت الناس عن انتحار تجار ومضاربين في سوق العملة، أو وفاتهم بسبب الصدمة من الخسارة التي منوا بها، وبالمقابل وقف الحظّ أمام الكثير من الفقراء، فقد باع أحدهم تلفزيونا ملونا بـ 400 الف دينار قبل يوم من موافقة صدام وفي اليوم التالي كان يركب سيارة تاكسي اشترأها بثمن التلفزيون، استطاعت الناس أن ترمم عظامها ببعض اللحم والحبوب.

أما المرحلة الثانية فهي التي استمرت من كانون الثاني 1996 حتى سقوط النظام، لم تكن أقل تدميرا لاقتصاد البلد، لكنها شهدت استقرارا نسبيا للأسعار قياسا بما كان يحصل في المرحلة الأولى. كانت رواتب موظفي الدولة تثير سخرية وعجبا، فهي لا تتعدى 5 دولارات شهريا، وعلى الموظف أن يتدبر معيشته بأي طريقة، لم يكن

الراتب الشهري يكفي لسد أجور النقل لأيام قليلة أو شراء كيلو لحم، ولذلك انتشرت الرشى في دوائر الدولة بشكل ملفت، ثم تحولت الى نشاط علني ومصرح به ومقبول. لم يكن أي من الناس ليمتعض من موظف أوقف معاملته من أجل علبة سكاثر أو سندويج فلافل، وفي أحيان كثيرة كان الراشي متعاطفا مع المرتشي. لقد ساد التعاطف مع الجلاذ أو ما يسمّى بـ «متلازمة ستوكهولم» حيث يفرح الضحية برضا جلاذه عنه و يدافع عنه ويتقبل فظاظته وأنانيته. لم يعد هناك أي حاجز في اللغة أو في طريقة مفاتحة الموظف بالرشوة، كان يكفي أن يشاهد المواطن درج الموظف مفتوحا ليرمي به شيئا من المال لتنجز معاملته.

من أغرب الرشاوى التي دفعتها كان كتاب (جامع السعادات) وهو كتاب أخلاقي يتحدث عن العقاب والثواب الأخروي، ويوضح عبر الأحاديث النبوية طرق نيل رضا الرب بترك الرذائل وعن الدين كاخلاق وحسن تعامل مع الناس لا كفقهِ وصلاة وصيام فقط. طلبه مني (هدية) الجندي أركان الذي يعمل كاتباً في التجنيد أيام مراجعتي له بعد إكمال دراستي الجامعية. كان أثر السجود باديا على محياه، وتبدو عليه شدة تمسكه بالدين والصلاة. وقبل أن يطلب مني الكتاب تعمّد تأخير معاملتي لبضعة أيام حين عرف عن طريق المصادفة أنني أهوى القراءة، كنت سعيدا حقا حين طلب هديته فهذا هو السبيل الأسلم للإسراع بإنجاز المعاملة، وحين وضع يده على الكتاب كان «جامعا للسعادة» من أوسع أبوابها. فتح الكتاب بيننا نوعا من الصداقة المؤقتة فطلب مني أن انتظره لحين انتهاء الدوام لنتمشي الى الشارع العام، حدثني عن تمسكه بالعبادة وعن إيمانه وتقواه، كنت أضحك في أعماقي من هذه المفارقة بين اللسان والفعل. بين حديثه عن حسنات الصلاة ونسيانه سيئات العمل، لا يشعر بأي غرابة وهو يحدثني عن روحانيته وهو يمسك برشوة حصل عليها اغتصابا وإكراها مني بل بالعكس كان يرى فعلته لا تمسّ جوهر إيمانه.

كان الحصار الاقتصادي هو أعنف ما مرّ به العراق، كان أقسى من الحرب والخوف، ضرب إعصاره كلّ مؤسسات البلد الاقتصادية والمالية، وأعادنا الى عصور قديمة،

فطوال سنواته ابتعدنا عن ما يجري من تطوّر وتقدم، وفي الوقت الذي يعيشه العالم كُله واقع القرية الكونية من حيث التواصل والاتصال، كنا أبعد ما نكون عن مجرى التاريخ وروح العصر.

بين يدي العجم

يقول لي منزلي: لا تهجري، فما هنا يقيم ماضيك.
ويقول لي الطريق: هلمّ وأمض في إثري، فإني لك
المستقبل .

وأقول لهما معاً، منزلي والطريق: أنا لا ماض لي ولا
مستقبل، وإذا ما أقمت هنا ففي إقامتي رحيل، وإذا ما
رحلت ففي رحيلي إقامة، الحب والموت وحدهما يبدلان
الأشياء كلها.

جبران

كنت قد اتفقت مع الدكتور حمودي الذي وصل الى استراليا، أن أهرب الى إيران،
ثم منها الى اندونيسيا، ومنها عبر البحر الى استراليا، بلاد الكنغر والكرامة، هذه
كانت خطط هروبي، فالدكتور «سوف» يدخل اختبار الطب، و«سوف» ينجح فيه،
ثم «سوف» تتحسن أحواله المالية، وأكون أنا مع وصوله الى العمل كطبيب متهيئاً في

إيران لبدء الرحلة الى استراليا، هكذا كان حديث الورق.

سبقت رحلتي الى إيران اتصالات كثيرة جرت مع حمودي ومع شقيقي في إيران الذي تكفل بمهمة إرسال من يهربني من العراق، تحدّثنا حول أكثر من سيناريو وتوقيت، وكلّها مرتبط بمدى ثقة شقيقي بالشخص المكلف بنقلي، وللثقة في مثل هكذا أحوال أكثر من شرط أو زاوية، فعليه أن يتأكد من أن «القحّقي» ليس «وكيلا» أو متعاوناً مع نظام صدام، «والقحّقية» في كلّ عصر ومكان هم أضعف الناس قدرة على كسب ثقة الآخرين، هم أشبه بمنقذ الغرقى، يسحب يده مع أول شعور بخطر الغرق، وربما «يبيع» سلعته الى أي زميل آخر، هروبا من التعب أو الخوف أو أي سبب يراه وجيها للبيع.

أما الشرط الآخر في القحّقي فهو معرفته بكل تفاصيل الطريق ومخاطره، كان هذا التشدّد غير مبرّر في نظري، فقد كنت أعرف أن الآلاف بل الملايين من العراقيين هربوا وحدهم، أو ربما مع أشخاص لا يعرفون عنهم أي شيء، ولم يتعرّضوا لأذى، لكن يبدو أن المسؤولين عن رحلتي كانوا «حنابلة» لا يشقّ لهم غبار، ومع مرور الأيام كان شقيقي قد اختبر أكثر من شخص قبل أن يرسل لي من يأخذني، ولأن البحث عن شخص بهذه المواصفات ليس سهلا، لذلك تأخّر هربي بعض الوقت.

في آذار عام 2001 طلب مني حمودي الاستعداد لبدء الرحيل، بعث «أملاكي» وهي عبارة عن محل من «الچينكو» أبيع به البهار والنكهات الغذائية في سوق الكمالية، كنت قد اشتريته بـ 200 دولار استندنتها من أخي الأصغر، ومكتبة هي حمل خمس «كوانسي» جنفاص، بعث أملاكي بـ «400» دولارا وجلست في البيت، بانتظار لحظة الهرب. وللمزيد من الحذر اتفقنا أن يتمّ التواصل مع المهرّب عبر هاتف منزل شقيقتي الكبرى في حي الأمين. مضى شهرا نيسان وأيار ولم يتصل بي أحد. وفي أواسط حزيران اتصل بي الشخص المعني، وحدّد اللقاء في بغداد الجديدة، كان شابا وسيما، لا يبدو عليه أي أثر لجهد، أو تعب، أو فقر. قال إن اسمه «جميل» ولعلّه اسم حركي كما حسبت حينها، وهو كردي، ولد وعاش في بغداد، واستقر في السليمانية

عقب انتفاضة 1991، واستقلال كردستان.

اتفقنا أن تكون الرحلة بعد أسبوع عبر السلیمانیة، حدّد يوم 24 حزيران 2001 موعد «العملية» التالية لرحلة خوف استمرت عشرين عاما، اتفق صاحبي مع سائق قال إنه يثق به ويتعامل معه منذ وقت طويل، بتنا ليلتنا في بيت شقيقتي، غطّ هو في نوم عميق، تاركا إياي نهباً للقلق، لم أنم ولو للحظة واحدة، يشدّ توتري كلّ جسدي، ويمنع عني لذّة النوم، فإغماض العينين يحتاج الى شيء من الهدوء والأمن، وكنت أحوج ما أكون لكليهما. هل فعلا سأترك أحبتي الى الأبد؟ كيف سأزرع روحي في أرض أخرى؟ هل سأقول وداعاً لكلّ ما مرّ بي؟ وفي الوقت الذي كان عليّ أن أفكر بالغد، الذي يلفه الضباب والغموض، كانت الغرابة أن فكري انشغل بالماضي، وبالذكريات وحزن فراق الأحبة، كان المستقبل متروكا للحظ، للصدفة، لعطف الغرباء؛ أما الماضي فلم أجد مكاناً ألقيه فيه وبقيت حائراً معه، لم تكن مقامرتي عادلة، سأراهن بما أحببت من أجل نجاة يصعب الإمساك بها أو الرهان عليها، فقد أعود مرّة أخرى للأحبة وأنا سجين، أو مقتول، أو ربما مجنون.

وصل السائق فجراً، نظرت في عيون من أحاطوني، كنت أتصورهم يبحثون عن معنى لما يمرّ بنا، عن إجابة لأسئلة ليس لها نهاية، فأشعر بحيرتهم التي تشبه حيرتي، هل أنا سعيد بهذا الذي يجري؟ هل سأندم على ما فعلت؟ كنت في نظرهم أشبه بمن نجا من طاعون ضرب المدينة، فرحين بهربي، وتعساء أيضاً، راغبين، ورافضين. وضعنا الحقائق في صندوق السيارة، كم تمنيت أن يقول لي أحدهم ترّجّل، عد، ربما سأرمي حقايبى بوجه مخططات الهروب وأحلام النجاة، السائق كان متعجلاً، فهو يفترض أن عواطف الوداع الأبدي قد انتهت في الليل، وأن لحظاتها قد مرّت منذ وقت، أغلقت صندوق السيارة، وإستدرت كي أنطق آخر الكلمات، عن الحبّ، والوداع، والحزن، والموت، واليأس، والأمل، إحتضنتني شقيقتي وبكت، لم أشاهد بكاء بهذا الهدوء، دمعتها الغزير ينزل بصمت، كان خوفها من أن تسمع الناس صوت بكائها يلجم حنجرتها، شعرت أنها ترغب بان «تنعي» وداعي بما تحفظ من شعر، البكاء بصمت

يخفق أسأها ولوعتها، تريد أن تفعل ما فعلت أمها مع أولادها حين يحاصرهم الموت في جبهات الحرب، من قال إن وداع الأحياء أقل أذى من دفن الأموات؟ أليس «دفني» هو ما كانت تفعله تلك المسكينة في تلك اللحظة؟

مضت بنا السيارة الى جلولاء، شددت عيوني صوب الناس الذين يمرقون من النافذة، أراقبهم، أودعهم، أتحدث لهم في داخلي، أتمنى لهم السلامة بصدق، كان هواء الفجر يبعث الطمأنينة، وينسيني شيئا من خوفي وقلقي، أعدت شريط حياتي، شاهدت الأصفار التي تملأها، فهي تقفز من الصفر ثم تعود له، حتى اعتادت نظام التصفير، أحبتي، رغبتني في العيش بسلام، مدرستي، شوارعي، فراش نومي، بعض قصص الحب وبعض الكتب، كانت كلها قد صفرت، وعلي البدء برحلة بحث عن كل الأشياء التي فقدتها، أين سأجد حياتي التي تركتها؟ هل سيكون هناك بديل للنجاة غير الهرب؟ في أي واد ستستقر الناس؟ أسئلة لاحقتني وأنا أتذكر من هربوا، لقد وجدت نفسي بينهم، عرفت خوفهم، وحزنهم، وآسهم، عرفت أي طعم علق في لسانهم وهم يتركون سنواتهم وراءهم، تمنيت أن أكون آخر المودعين، كنت أرعد خوفا وأنا اتصور أن آلاف آخرين سيحملون حقائبهم، بعد أن سدّت بوجههم أبواب الأمل، هاربين بكرامتهم، وأرواحهم من لعنة بلدهم، لا أدري لماذا أيقنت أن شتاتنا لن ينتهي، وأن علينا أن نعيد رسم بلدنا في أماكن أخرى والعيش مع تلك الرسوم.

في أقصى مدينة «جلولاء» وعند الخط الفاصل بين حدود الحكومة العراقية وحكومة إقليم كردستان، وقفت السيارة، لا تبعد نقطة التفتيش سوى أمتار قليلة، كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا، تركني جميل ذاهبا الى «كلر» وهي أولى المدن التي تقع تحت سلطة الأكراد، قال إنه سيرسل لي شخصا لينقلني اليه، لم يكن هذا جزءا من الاتفاق، ولم نتحدث به، لكن ما باليد حيلة فأنا طوع إرادته. جلسنا في السيارة أنا والسائق وهو كردي من سكنة حي الشعب ببغداد، بانتظار أن يصلنا مبعوث جميل، مضت الساعات بطيئة، كان سائقي هادئا، فهو معتاد على هذا الوضع كما يقول، خرجت من السيارة ودخلت مطعما صغيرا وبائسا، يشرف على ساحة مطلة

على نقطة التفتيش ومليئة بالمهربيين، البعض يحمل قناني الغاز، وآخرون يحملون أكياس الحليب، ومنهم من يضع فوق رقبته سجادة، خلية النحل هذه أذهلتني، واعتقدت لحظتها أن الخوف من السلطة كان مبالغاً فيه، وإلا لما كانت هذه الأعمال غير القانونية تجري بوضوح النهار وعلى مرأى ومسمع الجميع، حركة التهريب هذه أثارت فضولي وأنستني قلقي على ما سيكون عليه الحال مع صاحبي « القجججي ». في طاولة المطعم جلست مستريحاً، اقترب مني صاحب المطعم، وبدأ الحديث بيننا، بعض أسئلة، وشيء من التذمر من الوضع، وريبة متبادلة، وفجأة طلب مني أن أترك المطعم، قال إن الرفاق الحزبيين وعناصر الأمن يراقبون الناس، ويبدو عليك أنك ذاهب الى السليمانية. هل كنا مكشوفين الى هذا الحد؟ تساءلت مع نفسي. عدنا أنا والسائق الى السيارة، لم تمض سوى دقائق قليلة، حتى بدا وكأنّ شيطاننا دخل لدماغ السائق، قال إنه يريد زيارة أخته في خانقين التي تبعد ما يقرب من ساعة عن جلولا، توسلت به:

— يعمود اترك اختك لخاطر الله هسة مو وكتهة ... ابو الغيرة خلي يجي صاحبي وروح الله وياك..

توقفت أذانه عن سماع صوتي، حتى بدا لي كتمثال، قلت له:

- كردي وعاند ماكو چارة.

مددت ببصري صوب الشارع ولذت بالصمت، حرك سيارته، ومشينا، وبعد أقل من ساعة وصلنا خانقين، ولم أتركه يهنأ برؤيته لشقيقته، ألححت عليه، وعدنا الى جلولا، لكننا لم نشاهد صاحبنا، ومع كلّ دقيقة تمضي كان قلقي يأكل شيئاً من روحي، وفي الرابعة عصراً، وكان ما يزيد على 10 ساعات قد انقضى منذ وصولنا، حلّ «جميل» وحلّت عليه لعنتي، كنت أرعد وأنا اتكلم معه، وتزيدني برودة أعصابه مزيداً من الغضب، قال سنعود لبغداد ونأتي غداً.

لم أعد أطيق سماع صوته، عدنا الى بيت شقيقتي، دخلت البيت يغطيني التعب، وبعد حديث مختصر حول ما جرى، بتّ ليلتي مثل سابقتها، لكن فجر اليوم الثاني لم يشبه

سابقه، كان باهتا، ساذجا. وصلنا الى جلولاء، ومضينا مباشرة الى نقطة التفتيش، لم أترك لجميل أي فرصة لأن يعرض علي أي اقتراح رغم محاولاته المتكررة، قلت له لن أذهب مع أي شخص ترسله لي، إما أنا وأنت وإما العودة، كنت أعرف أنه لا يريد أن يتعب حاله مع أسئلة نقطة التفتيش العراقية، كان معروفا لديهم بأنه قججي نشيط، وهذا وحده كاف لأن يبتزه الجنود ويأخذوا منه رشوة تتناسب مع حجم ما يهربه، ولو ذهب وحده فانه سينجو من دفع الرشوة، أما لو كان معي فسيتعرض لابتزاز كبير وربما يلقي القبض علينا.

نزلنا من سيارتنا وركبنا سيارة أجرة ذاهبة الى كلر، جلس جميل قرب السائق وجلست أنا في الخلف وبقواري شيخ كردي، مدّ شرطي شديد السمرة برأسه الى السيارة وحين شاهد جميل ضحك، وقال له:

— وين مَنْ السما؟

إعتذر منه جميل وقال له سأعود بعد يومين وسأحمل معي «مَنْ السما» هذه المرة، دون أن ينسى القسم بالله على ما قال، ثم التفت لي وقال لجميل: مبین هذا ویاك، قال له جميل، نعم، هو تاجر من بغداد ويطلب مبلغا من المال من أشخاص في السلیمانیة، وهو ذاهب لهم لیسترده، قال له:

— حرّك ایدك.

طلب جميل مني أن أعطيه 2500 دينار، وهي لا تتعدى ثلاثة دولارات، أخذها الجندي بفرح، مضينا وأنا لا أكاد أصدق السهولة التي انقضت بها أمر ظلّ يشغل بالي وقتا طويلا، فكيف يمكن أن نعبّر سيطرة تشرف على مناطق خارج سيطرة صدام، هي أشبه بنقاط تفتيش حدودية، ليس سهلا اجتيازها من دون إجراءات تفتيش، وتدقيق وأسئلة، ما جرى في نقطة التفتيش كان فألا حسنا، قال جميل، الأمور تسير بصورة جيدة، وصلنا مدينة «كلر» ومضينا مباشرة الى مركز للأمن «الأسايش». وحسب الخطة، كان جميل قد اتفق مسبقا مع شخص كردي، بان يحضر معنا ليخبر الأسايش بأنه يعرفني وبيننا علاقات تجارية وديون وعمل، مضت الإجراءات

بالصورة المتفق عليها ولم يحدث ما يخلّ بخط المسير، انطلقت بنا السيارة الى السليمانية، وصلنا الفندق ظهرا، وعليّ أن أذهب في الصباح الى «اسايش» السليمانية، وهي التي ستمنحني ورقة تمنع عني إجراءات التفتيش حتى الحدود، وهو المطلوب، وصلت صباحا الى دائرة الأسايش؛ تحدّثت مع موظفة وموظف في الاستعلامات عن سبب مجيئي الى السليمانية قلت لهما، إنني أريد الذهاب الى إيران، وطلبا مني الانتظار بعض الوقت، وبعد وقت قصير طلبا مني الدخول الى غرفة وحدّدا مكانها، دخلت واستقبلني أحد الموظفين، فتح ورقة تضم أسئلة طويلة وشائكة، وحين فرغ من ملئها بإجاباتي، وبعد دقائق أدخلني غرفة أخرى، ويبدو أنها تعود لضابط كبير وليس موظفا عاديا، وأعاد عليّ الأسئلة التي سألني إياها زميله، ولكنه كان محتدّا وعصبيّا، قال لي:

— دزوك مجاهدي خلق؟ احچي.

استغربت من سؤاله أشد الاستغراب، قلت له لا دخل لمجاهدي خلق في هروبي، وأنا لا أعرف عن ماذا تتحدّث، نهض عن كرسيه، وأعاد عليّ سؤاله بطريقة أكثر غضبا وانفعالا، أعدت عليه الإجابة مرّة ثانية، رفع يده لضربي، لكنني تفاديته بسرعة، ولم أقو على السيطرة على انفعالي، قلت له:

— مجاهدي خلق يعرفون شلون يدخلون لبلدهم وما ينتظرون واحد مسكين مثلي يخدمهم بالدخول.

طلب مني الخروج، وبعد لحظات خرج من غرفته، ومضى. بقيت حائرا، لا أعرف كيف أخرج من هذه الورطة، مجاهدي خلق هذه المرة دخلوا على الخط والخطة، يعني أنني عايز؟ قلت مع نفسي.

صاح بي الضابط المنفعل، طالبا مني مرافقته، ذهب بي الى طابق آخر من طوابق البناية، أوقفني أمام غرفة ودخل إليها، خرج بعد قليل وقال لي ادخل، كانت الغرفة واسعة جدا، وأنيقة، يجلس فيها رجل كَثَّ الشارب بشكل ملفت، طلب مني الجلوس، وتحدّث معي بلطف شديد، وقال لي كيف عاملك الاخوة، ولم أصدق هذا السؤال،

فقلت له يشبهون جماعة علي حسن المجيد، ضحك بصوت عال.

وقال: ليش هل حجي؟

وذكرت له قصة مجاهدي خلق التي فاجأني بها الضابط، والطريقة العنيفة التي قابلني بها، قال إن الضابط ليس جادًا في سؤاله. قلل هذا المسؤول من قلقي وخوفي، وخرجت منه، وأنا أحمل ورقة إذن بالتجوال لمدة 48 ساعة فقط، وفي الفجر تلقفني «حجقجي» آخر كان قد أتى للفندق يوم وصولي واتفق مع جميل على إيصالني الى الحدود، وفعلا مضيت معه الى بنجوين، وأوصلني الى سائق سيارة أجرة لينقلني الى «باش ماخ» وهو مركز حدودي بين العراق وإيران، وفي نفس الوقت كان مركزا كبيرا للتهريب، وقال له أوصله الى شخص سمّاه له، وهو ينتظرنا هناك.

في «باش ماخ» تلقاني شاب إيراني نحيف البنية في نهاية العشرينيات من عمره، وهو الذي اتفق معه صاحبي المهرب، كان المركز الحدودي الإيراني يقبع وسط منخفض، لا يبعد عن المكان الذي نحن فيه وهو عبارة عن مسقّفات مبنية من الأخشاب، سوى مسافة قليلة، تلقّف الشاب الإيراني حقيبتني، مشى وكأنّه متّجه صوب المركز الحدودي، بدأت أول المخاوف، ولكنّه بعد خطوات قليلة استدار، فصعدنا الى طريق مرتفع جوار المركز الحدودي، وبعد خطوات اقتربت منا سيارة حمل، توقف السائق وركبنا، كانت تضمّ عددا من الناس بينهم عائلة، لم تسر سوى مسافة قصيرة، نزلنا منها واتّجهنا صوب مزرعة كثيفة الأشجار داخل الأراضي الإيرانية، وجدنا بضعة أشخاص جالسين بين الأشجار وهم يرمقون الطريق، جلسنا لبعض الوقت ثم طلب مني صاحبي المشي معه، وبعد ما يقرب من النصف ساعة، وصلنا الى تلّ يطلّ على شارع عام، فهتمت من صاحبي، والحديث بيننا كان يدور بلغة الإشارات، أنه سيذهب ليجلب سيارة، وأشار لي بان انتظر خلف التلّ، لكي لا يشاهدني أحد.

اختفى صاحبي بين التلال، مضى ما يقرب الساعة وأنا جالس في مكاني، سمعت صوت منبه السيارة، مددت برأسي لأشاهد صاحبي خلف المقود، ركبت معه وانطلق مسرعا، مررنا بأكثر من نقطة تفتيش لكنها لم توقفنا، أو بالأحرى لم تدقق في أمر

السيارة ومن فيها، ووصلنا بعد ساعة أو أكثر الى قضاء مريوان أحد أقضية محافظة سنجندج. وصلنا لحي يمتدّ على مرتفع ويطلّ على المدينة، ثم الى بيت ارتقينا سلماً اليه، وأدخلني الى عائلته، كانوا يتناولون طعام الغداء، وهم زوجته وثلاثة أطفال، أجلسني في غرفة واسعة للضيوف، ثم بعد دقائق، استقل السيارة ومضى، تركني وحدي، بعد ساعتين أو أقلّ بقليل، دخل رجل يقارب الخمسين من عمره، وبعد قليل سمعت صوته يرتفع، وكأنّه في شجار مع الزوجة، ثم مدّ رأسه عليّ ليرمقني بنظرة حادة، قبل أن يخرج، ملأني الخوف وتيبّس دمي، قلت سيأتي بالشرطة، مضت الدقائق ثقيلة ومدماة، لم يحدث شيء، امتدت الدقائق لتصبح ساعات، وأنا حبيس خوفي وأستلتي وحيرتي، ترى من يقوى على إخراحي من هذه الورطة وأنا بين يدي العجم، لا أفهم منهم شيئاً، ولا أعرف كيف أبعد عن نفسي التفكير بالفصل الأخير بين يديهم، وقبل الغروب بما يقرب الساعة، دخل عليّ شاب قصير البنية وممتلئ الجسم، سلّم عليّ بلغة عربية فصيحة وسليمة، يا الهي، أي رحمة هذه التي أنزلتها من سمائك، رددت عليه السلام بحرارة طبعاً، قلت له:

— شنو القصة ، تره اني حاير وخايف.

طلب مني الحديث باللغة الفصحى؛ ضحكت وقلت له:

— چنّك على فصحة يمعوّد.

قال إنه شقيق الشاب الذي نقلني من الحدود، وإن الرجل الكبير الذي دخل عليّ حين مكوثي مع العائلة وأثار بصوته خوفي، كان خال الزوجة وهو قد منع الزوج من العمل في تهريب الأشخاص، وغضبه هو بسبب عصيان نسيبه لما طلب منه، قال إن الحكومة الإيرانية لن ترحمهم اذا عرفت أنهم يهربون الأشخاص لا السلع، ولحسن الحظّ اكتفى الرجل بتهديده ولم يفعل شيئاً. أخذني الشاب «الفصيح» الى السوق، تناولنا طعام العشاء، ثم قال إنه سيوصلني الى أخي، شكرته على كرمه وطيبته، سألته عن معرفته بالعربية فقال إنه تعلّمها من خلال دروس تلقّاها في الجامع القريب من بيتهم، وهم أكراد سنّة.

في الليل عدنا الى بيت شقيقه لنجد عددا من أقاربهم رجالا ونساء يجلسون في غرفة الضيوف، تحدّثنا حول مواضيع كثيرة، كان بينهم خال الزوجة الذي أثار رعبي قبل ساعات من جلستنا هذه، ضحك الحاضرون حين قلت لهم عبر مترجمنا:

— حين رأيت صاحبنا يصرخ قلت مع نفسي. حظّي أسود فعلا فسيلقي القبض عليّ أول شخص إيراني أراه وفي أول متر في إيران..

عرفت أنهم يخافون من السلطة كثيرا، بسبب ما تعرّضوا له من عنف عقب الثورة، وحينها عذرت خال الزوجة على صراخه، أخذني صاحبي الفصيح الى بيته، وفي الفجر خرجنا متّجهين الى قم التي تبعد ما يقرب من 800 كيلومتر عن محافظة سنندج، وبعد رحلة شاقّة ومضنية لم تخل من مخاطر نقاط التفتيش، وصلنا عصرا الى مدينة قم. مع مضي الأيام حلّت إيران ألغازا كبيرة، وخاصّة بالنسبة لحياة العراقيين فيها وما يواجهونه من عنت وضيق طوال فترة وجودهم التي امتدت الى ما يزيد عن عقدين من الزمن.

عراق في إيران

لقد حكم علينا أن نشهد كيف يموت أهلنا وأجدادنا
عبر رسائل البريد، وكيف يولد أبناء الأخوة والأخوات
عبر المكالمات التليفونية.. ومع ذلك، يبقى الألم الأكبر
هو أن نرى وطننا يبتعد كالمدّ والجزر البعيد والغريب
عنا، وكيف أن أجسادنا تبدأ رحلة التآزم والإنهاك باحثة
عن متكأ ما: أجسادنا تبدأ - رغما عنها وربما إلى الأبد -
الاعتیاد على بلد لم تختره بإرادة حرة ..

ليون غرينبرغ

كتابه «التحليل النفسي للمنفى والمهجر»

حين وصلت لإيران لم أكن أفهم طبيعة حياة العراقيين فيها؛ ماذا يعملون؟ كيف
يعيشون؟ ما هو الممنوع وما المباح لهم؟ كيف يمارسون نشاطهم السياسي الذي كان
سبب هجرة الغالبية منهم من العراق؟

حملت معي الى قم فهمي وتصوّري عن العلاقة بين قوى المعارضة التي تستقر في إيران، كنت اعتقد أن المجازر التي ارتكبتها صدام حسين بحقّ الناس، وخصوصا الشيعة، وما لاقوه من عنف وإرهاب وخراب، ستفضي في النهاية الى نوع من التّعاقد والانسجام يجمع قوى المعارضة ويمدّها بالكثير من عوامل القوّة. إن مواجهة صدام حسين ووحدة الدين والمذهب والقومية ترسم صورة، ولو أوليّة، عن نوع العلاقة وطبيعة الاختلاف والجدل، فالذي يوحد العراقيين أو على الأقل يمنع عنهم الشقاق والاختلاف العميق، هو أكبر بكثير مما يشنّتهم ويمزّقهم.

لكن لم تمض سوى أيام قليلة حتى انهدم البناء الرومانسي الذي كان يعيش فيه فكري مستريحا. كانت الصورة التي تشكّلت عن العراقيين في إيران قد نسجت من خيوط الأمانى أو الأوهام، في حين كان الواقع أكثر تموجا وأشدّ تعقيدا، فلا الدين ولا المذهب ولا الهدف الأسمى، ولا المعاناة الواحدة، قد وحدت الشّتات العراقي في الصقيع الإيراني، وبدل ذلك كانت هناك حياة سياسية هي مزيج من التّخاصم الحادّ والعدوانية والاحتراب بين الفرقاء، فالثقة فقدت بالكامل والاتهامات بين الحزبيين وصلت الى حدود مخجلة.

إن منابر معارضة صدام التي كانت صورتها في العراق زاهية ونقيّة وتمنح شيئا من الأمل في النجاة من قبضته، أو على الأقل الأمل بأنّها ستنتجح في بناء العراق بعد سقوطه، لم تكن ذات حيلة بالواقع. كانت صورة متخيّلة من قبيل التفكير بالتّمني. كان المعارضون ممزقين وأقرب الى الاحتراب منهم الى العمل السياسي المشترك. كم هم مساكين أولئك الذين يجلسون في بيوتهم، أو يقبعون في سجونهم، أو يختبئون في الأهوار والصحارى وهم ينتظرون أن يأتيهم الفرج من هؤلاء الذين يتقاتلون على فئات بائس ورخيص، ويشعلون حروبا، ويعيشون وسط بحر المكاسب والمنافع الشخصية. كم من الشباب من ينتظر حبل المشنقة ليلتفّ حول عنقه بسبب قبوله العمل مع معارضة لنفسها قبل أن تكون معارضة لصدام؟

أذهلني نجاح صدام في تحويل العراق الى سجن حقيقي، نقبع فيه ونحن نجهل

كيف يعيش مئات الآلاف من العراقيين ولعشرات السنين في بلد مجاور. لقد تركنا سجن الشمولية أسرى تصوراتنا وافتراضاتنا، وحين لمست بيدي الاختلاف بين واقع العراقيين في إيران وبين تصوراتي عنهم، عرفت مدى البطش الذي وقع علينا، كنا مخلوقات صيغت من سواد ذلك السجن الرهيب، وكان كل ما نعرفه خارج ذلك السجن خاطئا أو عاريا عن الصحة، لم نكن نعرف بقدر ما كنا نأمل، كانت معارضتنا بالخارج وليدة رجاء ليس إلا.

في يوم ما كنت أقف قرب حسينية حزب الدعوة الإسلامية التي تسمى بحسينية الشهيد الصدر، ومرّ على الجانب الآخر من الشارع رجل دين كان معارضا لصدام ونجا من قبضته هاربا الى إيران، أشار لي بيده ومضى كمن يريد العتاب واللوم، وبعد ساعة أو أكثر كنت أقف أمامه في سوق العراقيين القريب من الحسينية، قال لي برفق ولين:

— لماذا تقف أمام كنيسة الجماعة؟

والكنيسة في فكر ذلك الشيخ تعني رمزا منبوذا ومحترقا، قلت له ليس لدي مشكلة معهم مثلما لديك أنت، أنا متفرج وأنت ضحية، أنت سياسي وأنا مستقل، قال لي إنهم ضالّون مضلّون. ومن كثرة سماعي لروايات الضلالة، والانحراف، وأوصاف الذم الأخرى التي يتبادلها الخصوم عرفت أن الشتات مزق أرواحهم، وطحن بعنف ما بقي لهم من بصيرة أو من أمل، فقرهم، وتيههم، حملهم فوق ما يحتمل البشر، ضاقوا بمصيرهم التّعيس، كانوا مخلوقات سياسية، متشكّكة، ومرتابة، يتبادلون الاتهامات حول ما يلاقون من مصير سيئ، وأيقنت أن الناس حين تقذف بهم الظروف الى أقصى تخوم اليأس والألم سيكونون عرضة للدخول في مزادات الكذب والأناية، هناك حيث يبيعون ما بقي لهم من متاع العقل والضمير.

وصلت الى إيران في مرحلة كانت جثث الأحزاب الشيعية قد تفسّخت، كانت بلا ملامح حيّة، ماتت في سجن ولاية الفقيه وتحت نير مخابراتها ومؤسساتها، هرب أعضاؤها أو ضحاياها، من سجون البعث ليجدوا أنفسهم في سجون «السيباه» و«الإطلاعات»، سجنهم الإيراني أमत نفوسهم، فخرجت الأناية كاشفة عن الكثير من الأمراض

والسموم، كان أكثر ما يثير في موضوع العلاقة بين الأحزاب الشيعية التي تعيش اليوم صداقة السلطة ومصالحها، اقتسامها كعكة الكراهية والشكوك والأكاذيب والتشهير.

لم يكن مضمار المنافسة بينهم متعلقاً بهدفهم الأسمى المفترض وهو إسقاط نظام صدام حسين، فذلك الهدف قُبر الى الأبد وأصبح نسياً منسياً، كانوا يتنافسون على أشياء أخرى ذاتية ورخيصة. تحول مبدأ معارضة صدام الى «دكاكين» يعتاش عليها القادة وحاشياتهم، المتاجرة بمأساة العراقيين، في إيران أو في العراق، أصبح شغلهم الشاغل، خطبهم، مؤتمراتهم، صحفهم، سخّرت لبيع أوصال المساكين وعرض حاجاتهم في سوق التمويل.

إذا حملنا مسؤولية التدهور المريع الذي أصاب المعارضة العراقية في إيران لقادة المعارضة أنفسهم، أو الى الظروف الحياتية القاسية التي عاشوها في المهجر، فإن ذلك لا يعفي الحكومة الإيرانية التي حولتهم ومنذ الأيام الأولى لوجودهم على أراضيها الى مؤسسة حكومية أو منظمة أجنبية تخضع في عملها للسلطات الإيرانية.

شاهدته يجلس على كرسيه متدفئاً بشمس الشتاء، كان شيخاً كبيراً، سألتني شقيقي هل تعرف هذا المعمّم؟ تمعّنت فيه لكنني فشلت في تشخيصه، فردّ عليّ أنه الشيخ صادق خلخالي، يا إلهي، هذا الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في سنتين فقط من سنوات سلطة رجال الدين، هل فعلاً لا يفصل بيني وبينه سوى الرصيف، كان حظّي حسناً، فمحلّ تصليح التلفزيون الذي حملنا له جهازنا، يقع أمامه تماماً، وقفت أتأمل وجهه، قلت، هل فعلاً هذا هو القاضي الذي حاكم آلاف الناس ملقياً بهم في السجون أو الى المشانق؟ رويسبير الثورة الإيرانية يعيش أيامه الأخيرة، منبوذاً ومهاناً، أي صورة هذه التي ترتسم أمامي؟

فتحت عيوني على سعتها، لأشبعها منه، شعرت بتعاطف كبير مع لحظته، لا أدري لماذا تصوّرت أنني أستطيع أن أقرأ كل صفحات الندم التي تسكن روحه في تلك اللحظة، وهو الذي لم يكتب في مذكراته أيّ كلمة توحى بندم أو استغفار، كنت اتصوّره مكابراً

حين رفض الندم على الدماء التي سفكها، رفعت يديّ للسلام عليه من بعيد، قابلني بالتحية، كان خائر القوى، ومنهكا، كم تمنيت أن أجلس أمامه ليحدّثني ليس عن ما قام به، بل عن لحظته هذه، هل يؤمن بأن الدم الذي سفكه مهد الطريق لدولة العدل والحقّ كما كان يقول هو ورجال الثورة الآخرون؟ كان خلخالي صاحب المقولة الشهيرة التي يبرّر بها ما كان يجري في محكمته التي أعدمت آلاف الناس «المظلوم الى الجنة، والظالم الى النار». كان مجرد سماع اسمه يثير رعب الناس، وها هو اليوم بلا كرسي محكمة، أو منصب، أو جاه، أو سلطة، ينتظر لقاءه بعزرائيل ليقف أمام محكمة الربّ، عشت ما بقي لي من اليوم وأنا أتأمل صورته.

بعد أيام وجدته أمامي، كان يتكئ على عصاه ويجرّ نفسه ببطء، خارجا من مرقد معصومة ومتّجها الى الشارع المؤدي الى منطقتة. كان معي شخص لا يتوانى عن ارتكاب الفظاظة، حين شاهده بصق على الأرض وكأنّه يسبّه، لم تكن حواس الشيخ الكبير تسمح له بفهم ما فعل هذا الأحمق، أو ربما لم يره، التفتّ له ولته على فعلته الخسيسة، شعرت أن الكراهية أفقدته شيئا ليس بالقليل من إنسانيته.

ما لاقاه خلخالي من رفاقه يشبه ما لاقاه ضحايا معارضة صدام حسين في إيران مع فاروق جوهرى هو أنّ ضحايا المعارضة لم يكونوا سفّاكي دماء بل كانوا سافحي دموع، كانوا ضحايا شرفاء ومساكين.

معمل الترب

كان سريري في الثكنة ثلاثة ألواح من خشب وذلك هو المكان الوحيد الذي كنت أستطيع التصرف فيه والتمتع به.

دستويفسكي

« ذكريات منزل الاموات »

فرص العمل في إيران بالنسبة لغريب اليد والقلب واللسان مثلي صعبة، إن لم أقل إنها منعدمة، أعيش على المعونات التي يبعثها لي الدكتور حمودي من استراليا، وهي تكفيني وتزيد، وبرغم ذلك سعى أخي وأصدقائه الى البحث لي عن عمل، وبعد جهد وصبر حصلت على فرصة العمل «حمالاً» في مصنع للورق في أطراف قم، وصلته فجراً، استبدلت ملابسني، وبعد لحظات بدأت بنقل رزم أغلفة كارتونية تحملها شاحنة واقفة أمام المصنع. العمال كانوا خليطاً من عراقيين وإيرانيين وأفغان، في استراحة الغداء دخل ربّ العمل غرفة الاستراحة ومعه والده وهو رجل كبير في السنّ، تبدو عليهما

إمارات الثراء والنعمة، تسكن عائلتهم في منطقة راقية في طهران، بدأ الرجل الكبير الحديث معي، عرفت أنّهما جاءا الى غرفة الاستراحة خصيصا للحديث معي، كانا قد عرفنا من أصدقاء عراقيين في المعمل، أنني أحمل شهادة البكالوريوس في الاقتصاد، تكفل أحد العراقيين بمهمة الترجمة، كانوا مندهشين من عملي كحمّال وأنا أحمل شهادة جامعية.

ما الفرق؟ قلت مع نفسي فانا أحمل «ورقة» لا قيمة لها في العراق ولا تعني شيئا، واليوم أنا أنقل أوراقا لا تعني لي شيئا أيضا، الاستغراب كان سيد الحديث، كنت أنظر لدهشتهم من المفارقة بين عملي وشهادتي وأقول مع نفسي لماذا تغافلوا أو نسوا أن حكما دكتاتوريا يقبض على السلطة ثلاثين عاما لن يقود سوى الى خراب وفاقه. لكنني اعترف أنني لم أذق طعم مشاعر تلك اللحظة من قبل. هي مزيج من حزن، وضيق، ولعن للحظ والسلطة والمصير. وحين انتهى يوم العمل المرّ هذا كنت قد حسمت أمري على ألا أعود لهذا المكان أبدا، مكتفيا بما حدث في اليوم الأول، ومكتفيا أيضا بمشاعره.

وبعد أسابيع قليلة حصلت على فرصة عمل أخرى، كانت هذه المرّة في «معمل» لإنتاج «تربة» الصلاة، هو عبارة عن فرن وماكنة فرش وتقطيع وحوض تخمير، تشغل بيتا مستأجرا في حيّ سكني وسط قم، يملكه «سيد مهدي» وهو عراقي في الأربعينات من العمر، يرسم مصير عائلته صورة مؤلمة عن ما جرى في عراق صدام، تسكن العائلة في منطقة العطيفية ببغداد. يملك والده محلاّ لبيع جلود وأدوات الحقائق والأحزمة في سوق السراي، عاد من المدرسة وهو لم يزل طالبا في المرحلة الاعدادية وكان ذلك عام 1980، ورغم مرور السنين يتذكر مهدي أن والدته كانت تهين لهم اله التمن والبامية» للغداء، حين سمع طرقا على الباب. خرج مهدي ليجد حشدا من الرجال يقفون أمام المنزل، عاد مسرعا الى أمه، خرجا معا ليكتشفا أنهم «رفاق حزبيون» جاؤوا لترحيلهم من العراق، وشاء القدر أن يصل والده في اللحظة نفسها، تحدّث «الرفاق» مع الوالد بغلظة وتهديد، قالوا لهم إنكم من أصول إيرانية وإن الوقت

قد حان لترك البلد، لم يملك الرجل حيلة فهو أمام سلطة غاشمة ومستهترة، دخل الجميع الى البيت، وقف «الرفاق» وسط غرفة الاستقبال وهم ينتظرون أن تنتهي العائلة من حديثها وهي تبحث عن مخرج لمازقها المؤلم، أخذهم الرفاق الى المنظمة الحزبية ومنها الى الأمن العامة، يقول سيد مهدي إن قدور الطبخ ظلت على النار حين حملتهم سيارة «الرفاق». تركوا وراءهم كل شيء، أثاث البيت، السيارة، الدكان، الأموال، الذكريات، المستقبل الذي صنعوه من عرقهم وكدهم سنوات طويلة، وبعد أيام كانت العائلة تسكن في خيمة على الحدود.

في إيران كان الخيار الذي مضى فيه ربّ العائلة هو الأكثر مدعاة للاستغراب، فقد عمل الرجل ببيع الفواكه والخضراوات في عربة وسط سوق بدأ العراقيون المهجّرون يؤسّسونه في قم، رفض الرجل أن يشتري بيتا أو أثاثا، متعذّرا بان عودتهم الى العراق ستكون قريبة وقريبة جدًا، لذلك كان والده يرفض حتى شراء الخبز بكمية تزيد عن استهلاك اليوم، وحين تطلب منه زوجته أن يشتري كمية أكبر، كان يضحك من طلبها متعللا بأنهم لن يلبثوا سوى يوم أو يومين فقط وسيعودون بعدها الى بلدهم وبيتهم، مضت الأيام لتصحو العائلة على خساراتها الفادحة، فهم لن يروا العراق مرّة أخرى، لن يعودوا الى بيتهم، هم الآن في عالم آخر تقطعت السبل بهم مع أحلام العودة.

عملي مع سيد مهدي كان مبهجا رغم التعب والارهاق وأثار الطين، بهجة العمل متأتية من طبيعة صاحبه الهادئة والرقيقة، فهو وبرغم ما مرّ به لم يكن حقودا أو كارها، روحه صافية ونقيّة. كان زميلنا في العمل «أغاوي أكبري رشتي» الشاب الإيراني «الحوزوي»، المرح، والحيوي، يضي على يومنا نوعا من الفرح يحبط تعبنا الجسدي، رشتي يدرس الفقه والعقائد في مدرسة دينية في الصباح الباكر ويكمل يومه في العمل معنا لكون المعمل يشتغل بنظام القطعة.

كان مرحا بشكل ملفت، مرن الجسم وخفيف الروح، يحبّ النكتة، سريع التعلم، وفي يوم ما طلب مني أن أحفظه شعرا عربيا يقرأه أمام أستاذه في الحوزة، حفظته التالي «آية الله خوش آية .. شيلة وذبة وية المطايا». لم يكن يجيد اللغة العربية لكنّه ردّه

كريم

دائما في عصور التعصب يبقى الإنسان المحتفظ
بإنسانيته، عاجزا ومنعزلا تماما وسط الفقهاء
المتحمسين المتشاجرين فيما بينهم.

ستيفان زفايچ
«عنف الدكتاتورية»

تجاوز الستين من العمر، اختفى سواد شعره ليحلّ بدله بياض ناصع مثل روحه،
يحمل مسبحته التي يؤمن بقدرتها على تخطّي حجب الغيب، يستخير بها حتى في
اختيار «الدربونة» التي يسلكها، أو في شراء قميص أبيض اللون أو أزرق، أو في ركوب
سيارة بدل المشي على الأقدام. المحطات التي مرّ بها حملته مآسي وانتكاسات، فبدأ
وكأنه مطارّد يستبد به الخوف، المسبحة وحدها تخفّف عنه رهبة المجهول.

هرب كريم الى إيران نهاية العام 1980، حاملا اندفاع الثائر، وتاركا وراءه زوجة
وطفلين، اعتقلت أجهزة النظام الأمنية الزوجة ومعها صغيرها الذي لم يتعدّ الثالثة
من عمره، ونجت ابنته التي كانت تبني في منزل أحد أقاربهم ليلة إلقاء القبض على

ألمها وشقيقتها، اختفت الزوجة والطفل الى الأبد، غيَّبوا في السجون وأزهقت أرواحهم بين جدارنه، لا أحد يدري كيف أهدمت الأم وكيف قتل طفلها هل بحبل المشنقة، أم بالمسم، أم بالجوع، أم بآبرة سريعة العطب رفعت روحه البريئة بصمت ودون دموع أهله؟

أكمل كريم دراسته في جامعة بغداد، كلية الآداب قسم اللغة العربية عام 1971، كان أحد مسؤولي حزب الدعوة في محافظة كركوك منذ عام 1975 حتى 1980، وصل الى إيران بلباسه فقط، وحين عرفته بعد عشرين سنة على هروبه، كان يسكن غرفة لا تتعدى خمسة أمتار في بناية مدرسة دينية في أقصى حي «دور شهر» وفي الجزء القديم من الحي.

يومها تحوّلت حياته الحزبية الى ماضٍ فقط، فضّ عن نفسه أعباء الالتزام وبرودة الجهاد، ألقى من على روحه كل الأوزار، وبكلمة تختصر ما آل اليه مصيره، قال لي أحد أصدقائه: من يدخل غرفته ولا يبكي ليس بإنسان.

حين وصل الى إيران كان يعتقد أن أيادي كثيرة ستمتدّ له، لن يجوع أو يعرى أو يعطش، حزبه، والدولة الإسلامية التي هرب لها، سيطعمانه ويؤمّناه. مضت الأيام ولم يلتفت له أحدٌ، جاع وتعزّى، بكى وتألّم، ولم يسمع صوتا يحنو على حاله، عاش وحيدا، لكنّه مثل كلّ المحاربين الشجعان لم يكن يعبأ بالكثرة، فواجه بصبر غريب الأحاديث التي تلوك بعقله وتشكّ بصفاء تفكيره التي أشاعها عنه أصدقاء الأمس، وهم يحاولون الانقضاض مسبقا على أي كلمة يقولها يمكن أن تعرّي فقر أرواحهم ونزواتهم وأنانيتهم.

برغم أنه نادرا ما تحدّث عنهم بسوء، إلا أن صمته كان مؤلما وكاشفا وفاضحا، كان منزويا لكنّ غرفته أصبحت كتابا يفضح ما يجري معه، قد أكون مبالغا في وصفه بأنّه كان حكيما في صمته أو في حديثه، ولسنت معنيًا بتقييم قواه العقلية والفكرية، أو برسم صورة عنه أرمي من ورائها الى تهويل مشهد نكران الجميل الذي قوبل به، لكنني أجد نفسي هنا معنيًا بالمصير الذي يلقيه من يسدل الستار على ماضيه السياسي،

أو يتركه زاهدا به، أو رافضا له، أو مقلّلا من قيمته.

يكره منطق الغاب والغلبة، ويرفض أن يشتري لقمة خبزه بالسؤال أو المنّة، كان صدقه هو أشدّ ما يقربني منه، كان صادقا سواء في العراق وهو يجاهد نظاما باطشا ووحشيا، مقدّما روح أحبته ثمنا لمعتقده، أو وهو في إيران يجاهد من أجل فراش يأوي إليه أو لقمة خبز أو لباس نظيف، كان صادقا حدّ أنّه لم يختر لقباً أو كنية مثلما فعل أصحابه في إيران لكي يستتروا على شخصياتهم الحقيقية خوفاً من متابعة أجهزة الأمن البعثية لعوائلهم وأقاربهم، بقي اسمه الثلاثي وكنيته على حالهما، كريم جبر الحسن، أبو أمانة، لم يكن صدقه موضع شكّ أو متاجرة أو مناورة، مضى خلف معتقده السياسي وتحلّم من أجله ألوان البلاء، لكنه لم يطلب من قيادته الحزبية ثمنا حتى بالدرجة التي يحفظ بها كرامته، كان زاهدا بكل ما يرى في معيشة نخبته، لذلك لم يطلب منهم ما يسدّ به رمقه.

أصيب بالجزع مما يجري، فقرر الانتقال الى سورية نهاية العام 1988، كان يبحث عن كرامته التي أهدرت في المهجر الإيراني، وفي سورية كان لديه صديق قديم، احتضنه كريم أيام عملهم السياسي في العراق وقربه منه، وحين وصل الى سورية ذهب اليه، أسمعه صديقه أول نصيحة أو طلب أو أمر؛ لست مستعدّاً لاستقبالك أكثر من ثلاثة أيام، أجابه كريم بأنّه لن يبقى في بيته حتى يوما واحداً. قال له، ما قلته أنت هو نفسه قراري قبل أن أطرق عليك الباب، وجئتك طالبا مساعدتك في البحث عن غرفة للإيجار، وحين تلمّس جفاف روح صديقه وخشونتها، خرج منه ليستأجر غرفة في فندق رخيص، وعاد لصديقه ليطلب منه فراش نوم بعد أن شاهد قذارة أفرشة الفندق، فأخرج صديقه بضع ليرات سورية ليشتري بها بطانية، تركه، وخرج، روى لي حكايته هذه دون أن يذكر اسم ذلك الصديق، كان تركيزي منصّباً على المفردات التي يستخدمها في تصوير المشهد، والطريقة التي يطرح بها ما جرى، كان هدوؤه مذهلاً، تلمّس من دون رياء العذر لصديقه، وعاد ليوم نفسه على زهابه له، لؤم ذلك الصديق قابله كريم بتسامح ومغفرة.

محنته طويلة وشتات منافيه لا يقاس بالأسابيع والأشهر، وهل يقاس الألم بالسنوات وحدها؟ عاد الى إيران بعد أن أمضى في سورية بضعة أعوام. في هذه «البضعة» الطويلة لم يجد طينا ينحت منه أصنام أمله، نفث تراب منفاه العربيّ وعاد مثل طير جريح الى منفاه الأعجمي، عاد الى غرفته، ووحدته.

ما بين الخوف من بطش السلطة والعمل على إسقاطها، وبين الخوف من ضخامة التضحية والاستعداد لها، مضت عشر سنوات من حياة كريم في عراق صدام حسين، لكن، وسط جزع من المهانة والجوع، وضياح الحلم والعمر والعائلة، مضت عشرون عاما من حياته في إيران، وحين عاد الى العراق الذي يقوده رفاق دربه وأصحابه، كان متعبا، ومنهكا، أصاب جسده وهن السنين الطوال، لم يستعد بيته الذي فقده أيام جهاده، استعاد وظيفته في التدريس في كركوك، وتوسّل بالذين يعرفهم في السلطة، فقط، لكي ينقل الى بغداد، وكنت شاهدا على طلب نقله الخجول الذي قدمه لمسؤول كبير كان رفيق جهاده، كان يحمل ورقة فيها اسمه واسم مدرسته والمحافظة التي يعمل فيها، وحين أدخلها أحدهم الى مكتب ذلك الكبير، كان كريم قد تلاشى عن الأنظار، لم يسمع الإجابة، شاهدته من الشباك يمشي ببطء كعادته، ويمسح العرق الذي يتصبّب من جبينه، أو ربّما يمسح ذلّ الطلب من وجهه ليبقى نقيًا وناصعا، نقل الى بغداد، وخصص له أحد القياديين الإسلاميين ما يكفي للزواج واستئجار بيت لكنّه رفض أن يأخذ المبلغ، يكفي راتبه الذي يتقاضاه في سدّ حاجاته البسيطة، لم يعد يحلم بشيء، خبت جوارحه، وسكنت عاصفة الرغبات في نفسه، يقضي أيامه متنقلا بين بيوت الأصدقاء، متفرّجا على مصيره ومصير بلده بروح تلوذ بخالفها دون زيف أو رياء، كان الثمن باهظا بالفعل هذا الذي دفعه الصادقون في معارضة صدام، لقد نهشت شيئا فشيئا أرواحهم، وأعمارهم، ولحمهم، ومصيرهم، دفعوا مرتين ثمن اختلافهم مع السلطة، وفي كلّ منهما كانت الفاتورة باهظة.

صالح

لقد عرفت أن الحرب لن تنتهي أبدا، طالما ظلّ ينزف في
مكان ما، جرح سببته الحرب .

هاينرش بول

زارني بعد أشهر من وصولي لإيران، جلسنا حتى وقت متأخر من الليل، بدأنا الجلسة
بفكاهة سيظلّ صالح يتذكرها طويلا، فقبل وصوله عرفت أنه يرغب بالزواج من
امرأة عراقية، بعد فشل زيجتين سابقتين له من إيرانيتين، وأنه يملك روح دعابة
ونكتة، وحين طرق الباب طلبت من عائلة شقيقي ان يهيئوا لي ملابس نسائية وأن
يخبروه أنهم وجدوا له امرأة عراقية بالمواصفات التي يريدونها وأنها خجولة جدا،
وقليلة الكلام. ارتديت الملابس ووضعت نقابا على وجهي وجلست في غرفة مجاورة
للصاله، دخل صالح على العائلة وبعد السلام والتحية أخبروه أن امرأة عراقية ترغب
برؤيته لتتحدثا عن الزواج، أدخلوا صالحا وجلس قرب باب الغرفة، كان يتصبّب

سكائره الفارغة، وأعقابها التي كان يحرقها بلهفة يشبهان ما تلاشى من أيامه، كنت أتبعه بأسئلتني وذكرياتني القليلة عنه.

كان آخر عهدي به منذ 18 عاما، في الرابعة من عمره فقد أمه، وتكفلته هو وشقيقته زوجة أبيه، وهي شقيقة والدي الكبرى، وكان ذلك مطلع سبعينيات القرن الماضي، عاملته بالحسنى وخففت من وطأة يتمه، لم ينقطع عن الدراسة رغم عمله منذ الصغر في مهني يمتلكه أخوه الأكبر، وفي العام 1983، وكان يومها طالبا في الخامس الإعدادي، أجبره حزب البعث على الالتحاق بقاطع للجيش الشعبي أثناء العطلة الصيفية، أرسل الى جبهات الحرب ولم يلبث أن وقع في الأسر، كتبت الحرب للصبي اليتيم مصيرا آخر لا يقل قسوة وأذى عن يتمه المبكر، في تلك الأمسية استحضر صالح تجربة الأسر المريرة، تحدّث عن الجوع وهو يفتت كبده ويسلبه قدرته على الحركة والنشاط، وعن العقوبات الشديدة التي تعرّض لها في برد تصل درجته الى ما دون الصفر بكثير، وعن حيرته من الخلافات الحادّة بين الأسرى حول حبّهم أو كرههم لصادم والخميني، والحرب وحزب البعث، وفي أحيان كثيرة وصلت الخلافات بينهم الى حدود الاعتداء الجسدي والمعارك الطاحنة، وبالنسبة لفتي في السابعة عشرة من عمره كان قفص الأسر أشدّ من كلّ ما مرّ به من يتم وجوع، وأقسى من أن يحتمله ويتفادى مخاطره وآثاره على نفسه وصحته.

خرج بعد أربع سنوات من قفص الأسر لينخرط في صفوف المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وهو أكبر فصيل سياسي معارض لنظام صدام حسين. لبس صالح ثوب الجندي المجاهد ليعيش في غربته المضنية على راتب لا يكفي سوى أقلّ الأساسيات من مفردات الحياة، في حديثه معي استعجل الكلام عن حياته بين أقفاص الأسر، وانشغل بالحديث عن تجربتي زواج فاشلتين، استمرت الاولى ثلاث سنوات أخذت منه طليقته اللحظة الأولى «المأساة»، كانت فكانت أسرع وأقلّ خسارة، لم أعرف أسباب فشله في الزواج إلا بعد أيام، فقد ترك الاكتئاب الحادّ روحه حطاما، وهشم الكثير من قوّة شبابه وشهوته، وفي حديثه عن الزيجات الفاشلة كان يقف عند علة يزعم أنها هي

التي سلبته روحه وقوّته، قال إنه ومنذ سنوات يصارع «الجن»، وأنهم حطموا حياته، وهدموا صحته، وهم يلاحقونه في كلّ زاوية ولحظة، كان يتحدث عنهم وكأنّه يراهم ويلمس أجسادهم الاثرية، يردّد عبارات من قبيل، يقولون لي، أقول لهم، استحلفهم بالله، اتوسل بهم، أعاتبهم، اردّد بحضورهم سورا من القرآن، لم يتهاون أبدا في عرض نفسه على كلّ من يعتقد أنه قادر على طرد الجن من جسده، يدخر شيئا من راتبه لحربه مع «الجن»، التي دخلها قسرا بعد أن انتهى من حرب الأنس، تشبّث بكلّ الأوهام لعلّها تضعه في مسار آخر غير ما يمضي فيه، لكنه ظلّ في قفص المرض أو في قفص «الجن».

لا يتمسك صالح بأي يقين، ولا يعرف لغة الجزم والحماسة، تركته الحرب في «الأرض الحرام»، ولم تسلمه الى أي فرقة أو جهة يركن إليها، كان العراق بالنسبة له ماضيا فقط، ليس له فيه سوى ذكريات عمر لا يتعدّى السابعة عشرة، وإيران ليست سوى منفى قاس، لا يستطيع تصوّر نهايته فيه. يحمل سجنه معه ويعيش على هامش البلدان والعقائد والآمال، يؤدي التزاماته الحزبية بروح مليئة بالشكّ واليأس، يصلي ويتعبّد ليمنع أذى مطارديه من الشياطين، يمضي يومه وسط عشرات الناس لكنه بلا صديق، ليس في حياته سرّ حتى تلك الأشدّ خصوصية، لكنه يعيش مثل أي ثوري متوارٍ عن الأنظار، يأتي مسرعا ويذهب دون ضوضاء، يطارد المستقبل وهو يلمس حاضره المحاصر بمرض لا يفضي معه العلاج الى نهاية.

حياة صالح الرمادية، مأخوذة من رماد الحرب التي تجرّعها وهو صبي، كلّ ما مرّ بصالح بعد الأسر بني من طابوق أقفاصه، وبرد ساحاته وفراشه، في تلك الأقفاس تلمّست يداه الغضتان مصيره، لم تتوقف معه دقائق الأسر حتى وهو يعيش بين الناس، صوت الجنّ الذي يطارده ويقضّ مضجعه، هو بالأحرى صوت المدافع التي ألقي وسط أتونها بسرعة وخشونة، ولهفته في البحث عن حلّ لمأساته ومرضه هي محاولة بحث عن حياة أخرى فقدّها منذ الصبا، أو هو مسعى لردم ماضيه وأمسه، يعيش يتمه في كبره مثلما عاش الرجولة في طفولته.

حين شاهدت صالح عرفت معنى أن ينتحر الجنود العائدون من الحرب، أن من يمتلك حساسية تجاه مآسي الحرب، يصعب عليه تماما أن يزيح عن أنفه رائحة الدماء التي أريقت على أرضها وخنادقها، أو ينسى صوت تحطم عظام بشر كانوا قبل لحظات يتقاسمون معه يومه، وطعامه، ويشاركهم أحلامهم ومخاوفهم وحكاياتهم. من لا يقوى على نسيان الحرب لن يجد ما يجده البشر العاديون من لذة ومطامح، فالحرب تحطم منطق البشر والطبيعة، ليس فيها معنى للموت أو للحياة أو للأمل، أو للغزى البناء والنماء، وحين تتساوى المعاني والمصائر سيجد أولئك المعذبون أنفسهم أسرى لفكرة نبذ الحياة والهروب منها. متى يرى ضحايا الحرب نهايتها وهم يلمسون جراحهم كل صباح؟

الصدريون

لا تستميل الحركة الجماهيرية الصاعدة الأتباع وتحفظ،
بولائهم اعتمادا على عقيدتها أو وعودها، ولكن لأنها
تتحول الى ملجا يأوي اليه الأفراد الهاربون من مشاعر
القلق والخواء والضياع.

إيريك هوفر

كتابه (المؤمن الصادق)

بعد وصولي لقم بأيام قليلة بدأت البحث عن صديقي الشيخ عباس الزيدي، صاحب
كتاب (السفير الخامس) المشهور بين أتباع السيد محمد صادق الصدر في العراق،
الذي صدر قبل أشهر قليلة من وصولي لإيران. ساعدني شقيقي فلاح في مهمتي،
فأخذني الى «براني» السيد كاظم الحائري المرجع الديني وأحد تلاميذ السيد محمد
باقر الصدر، الذي من المفترض أنه تولّى مهمة رعاية أتباع السيد محمد صادق الصدر

بعد هروبهم لإيران. وصلنا الـ «براني» قبل صلاة المغرب بوقت قصير، سألنا أحد الموظفين في المكتب عن عنوان الشيخ، فطلب منا انتظار إقامة الصلاة مفترضا وصول أشخاص يمكن أن يرشدونا الى منزل الشيخ.

جلسنا في باحة المكتب الصغيرة، وبعد لحظات دخل الحائري تحيط به مجموعة من الرجال، تلك كانت أوّل وآخر مشاهداتي له، أسمر اللون، قصير القامة، وممتلئ الجسد، يرتدي نظارات كبيرة الحجم، ويلبس دشداشة بيضاء تحت عباءته، تقدّم له عدد من الأشخاص للسلام والتحية. سمعت بعضا من حديثه، أثارت لكنته الفارسية استغرابي، فالرجل ولد في العراق وتركه وهو كبير في السنّ فلماذا شابت الفارسية لسانه؟ أو بالأحرى لماذا لم يستطع تجاوزها وهو المرجع العراقي الذي ظلّ لفترات طويلة فقيه حزب الدعوة الإسلامية قبل أن ينفصل عنه ويتعرّض لقادته في كتابه «قرار الحذف»؟

جلس على سجادة الصلاة وصلى وحده قبل أن يؤمّ الحاضرين في صلاة الجماعة. وحين انتهت عدنا لموظف المكتب لتذكيره بطلبنا، خرج للباحة وتحدّث مع أحد الشباب بعيدا عنا، وطلب منا أن نذهب معه، مشينا في أزقة أحياء قم القديمة والمتهالكة، دخلنا حيّا سكنيّاً في طور الهدم بعد أن ابتاعت الحكومة الإيرانية بيوت من يرغب بالبيع وهدمتها لإنشاء طريق عام يخترق قم من مركزها حيث مرقد معصومة بنت الإمام الكاظم، حتى جنوبها ليصل الى مسجد جمكران الذي يبعد خمسة كيلومترات عن مركز قم، والذي أصبح مزارا كبيرا بسبب حلم تراءى لرجل، يأمره فيه المهدي المنتظر ببناء المسجد، فتحوّل مع مرور الأيام وخاصة عقب الثورة الإيرانية الى معلّم ديني من معالم قم.

كان البيت في منطقة «معلم» قريب من بيت الخميني الذي تركه عام 1963 ولجأ الى تركيا ومنها الى العراق، طرقتنا الباب وفتح لنا شاب نحيف البنية، وقادنا الى الشيخ عباس وهو جالس في سرداب. تحدّثنا لوقت طويل. كان كلام الشيخ مفتاحا مهما بل أساسيا لمعرفة مجريات حياة العراقيين في إيران وتحديد اوضاع الأحزاب الإسلامية

عموما ووضع الصدرين خصوصا، كانت كل كلمة وفكرة ورواية أسمعها تفتح لي أبواب معرفة لا تقدّر بثمن. قبل الاستطرد في وضع الصدرين في إيران سأترك لنفسي حرية الحديث عنهم في العراق.

شكّل الصدريون في وضع المعارضة العراقية في إيران إضاءة بالغة الأهمية، فهم آخر المجموعات المعارضة الهاربة الى إيران، وآخر قوى الإسلام السياسي التي تشكلت في عهد صدام. كانوا أبناء مواجهة خاطفة ودموية مع النظام، فقد اختلفوا عن جميع فصائل المعارضة بأنهم تشكّلوا بطريقة وظروف تختلف عما جرى قبلهم، فأغلبهم شباب، صغار السن، لا يحتفظون بأي علاقة أو تواصل مع القوى الشيعية المعارضة، وليس لديهم مؤسسات حزبية، أو مكاتب متخصصة، أو نظام داخلي، أو تنظيم يوضح طريقة صنع القرار أو العمل. أكثرهم كان جنوبيا أو من أصول جنوبية، خرجوا للتوّ من مذابح انتفاضة آذار 1991 التي أحرقت مدنهم وبيوتهم ليجدوا أنفسهم أمام مرجعهم الصدر ليدفع بهم نحو حراك سياسي عاصف النهايات، لكنّه مآكر النشأة، فقد مهدّ الصدر لحركته بهدوء فلم يكشف عن نواياه بمواجهة النظام بل بالعكس ربما اتبع طريقة المداهنة.

ولدت حركتهم بعد أن لمسوا اليأس من سقوط نظام صدام. فحملوا المعارضة الشيعية مسؤولية الفشل بل الانهيار الشيعي أمام النظام. لم يعرفوا راحة بال أو عيشة هانئة، كان الحصار الاقتصادي وما خلفه من جوع وفقّر قد غطّى روحهم بلونه القاتم وطعمه المرّ، كانوا أبناء فجائع، لا أصحاب جدل سياسي هادئ، أبناء قمع مروّع لا ذوي مشاريع تطبخ على نار هادئة. صحا الكثير منهم على أن كلمة (شروكي) التي تطلق عليهم تحتقر صدقهم وطبيبتهم ورغبتهم الأصيلية في العيش بسلام، شاهدوا صورتهم وهي تقتزن، لا، بل تلتصق بصورة الضحية الساذج، أو الجندي الأبله، أو الوسخ المنعدم الكرامة، «الشروكي» لم تفقره السلطات المتعاقبة وتهينه وتجرح كبريائه عن قصد وسابق إصرار حسب، بل حلت عليه لعنات أهل دينه، ومذهبه، ومدينته. «الشروكي» ذبيح السلطة والأهل. والصدريون (الشراكوّة) كانوا

يعتقدون أن احتيالا واحتقارا تاريخيين مورسا بحقهم من قبل رجال الدين، وخاصة أولئك «المتنعمين» في النجف وكربلاء، ومن قبل أبناء مدن تعتقد أنها متحضرة، وتمدنية، ومتقدمة. ومثلما فقد «الشراكية» الثقة بـ (المدن)، فقد الصديرون الثقة بالدين المتعالي الذي يمنحه لهم رجاله المتعالون، فأسسوا لهم مدرسة سياسية خاصة تختلف عن مدارس الإسلام السياسي الشيعي، مدرسة متفردة في صراحتها، وعنفها، وصخبها. مدرسة تستحضر ماضيهم المليء بجراح الأقربين والأبعدين.

كانوا مسحورين بلسان محمد الصدر غير الملحون بلكنة فارسية الذي يستخدم الـ «چا» في كلامه ولا يרטن بقاموس الفقه المعقد، المرجع الذي يوظف أبناء الجنوب في مكتبه ويجعل منهم أصدقاء مقربين. كانوا مشدودين لتواضعه حيث يمشي في الشوارع، ويتسوق من باعة الخضار، ولا يحبس نفسه بين جدران غرفته، ويرفض أن تقبل يده بل يضرب بعصاه من يفعل ذلك، يصلي بهم جماعة وجمعة ويخطب بهم من دون تعال. منبهرين بشجاعته وهو يتحدث بجرأة شديدة عن النظام وعن المراجع الآخرين، أخذوا قداسة كل المراجع وألقوها على سيدهم، وأخذوا شجاعة كل المعارضة وألبسوها إياه، «الشجاع المقدس» فتح لأنصاره الأبواب الموصدة أمام نقد مراجع الدين، فأسقطوا هالة قدسيتهم، أهانوه في أوقات كثيرة، نشروا عنهم ما كان محرما، اقتحموا أسوار الحوزة وهم يلبسون لباس الجند، وفي أول يوم لهم في المدينة المقدسة والمحطمة خاضوا معركتين، مع أنقاض حوزة دينية هدها قمع النظام، ومع النظام نفسه. لم يكن قتل مرجعهم مفاجئا بالنسبة لهم بل كانوا يتوقعونه كل جمعة حيث يخطب بهم بعد صلاة عاصفة في مسجد الكوفة. وحين وقع ما هو متوقع تحركوا ضد النظام بعفوية وغضب ودفنوا ثمنا باهظا فقد أعدم بعضهم، وهرب آخرون بجلودهم لبلاد الغربية.

كان كل شيء فيهم غريبا، لا يشبهون ما كان سائدا في العلاقة بين الحوزة ورجالها وبين المتدينين، ولا ما هو سائد في مواجهة النظام. وحين وصلوا لإيران كانوا غرباء عن جسد المعارضة ولكنهم قريبون من لغتها وخطابها، ففي الوقت الذي تدين

أحزاب المعارضة، وخاصة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، لإيران بالفضل في إيوائها وحمايتها، يحملها الصدريون جزءاً من مسؤولية ما حلَّ بهم من قتل مرجعهم إلى إعدام أتباعه إلى تشتت حركته، فهي التي أعطت، برأيهم، صداماً الضوء الأخضر بقتل الصدر، حين أغلقت مكتبه في قم، فتلقّى صدام بحسّه السياسي رسالة إغلاق المكتب بأن إيران لا شأن لها بما يجري في النجف ولا يهتمها المصير الذي ينتظر الصدر وأتباعه. إيران بالنسبة لهم صديق غادر، وهي بالنسبة للفصيل المعارض الأكبر كانت صديقاً مضحياً وكريماً.

الطريقة المأساوية التي انتهت بها حياة أكبر مرجعين عراقيين، محمد باقر الصدر ومحمد صادق الصدر، كان من المفترض أن تدفع نحو تقارب ولو سطحي بين التيار الصدري وحزب الدعوة كونهما ينتميان إلى ذات العقيدة السياسية للمجتهدين القنيلين القريبين فكراً ودماً. وكلاهما يحمل إيران بشكل خفي جزءاً من مسؤولية مقتلتهما، حزب الدعوة يلمح بطريقة وأخرى إلى مسؤولية إيران عن مقتل السيد باقر الصدر بسبب الرسالة الإذاعية الشهيرة التي وجهتها الحكومة الإيرانية لباقر الصدر وتطلب منه البقاء في العراق وقيادة الثورة على صدام وإسقاط حكمه، الرسالة التي سرعت بشكل كبير قتل باقر الصدر كما يقول الدعاة، ومن جانبهم يرى أعضاء من التيار الصدري أن إغلاق مكتب محمد صادق الصدر في إيران كان له نفس مفعول الرسالة الإذاعية الإيرانية لباقر الصدر فمهّد لقتل مرجعهم.

الكثير من الصدريين لا تزيد معرفتهم بوضع المعارضة العراقية في إيران حدوداً تتجاوز الأساسيات أو العموميات من قبيل الاسم وبعض المعلومات التاريخية فقط، أما التغييرات والانقلابات الفكرية والتنظيمية التي وقعت داخل تلك الأحزاب، أو نوع العلاقات التي تربط كل طرف بالآخر أو بينها جميعاً وبين الحكومة الإيرانية فقد عرفوها حين أصبحوا ضحايا لائذين بإيران. وقد أضافت لهم الصدمة من واقع المعارضة العراقية في إيران مزيداً من الحذر والابتعاد والشكوك، عرفوا حياة المعارضة على الأرض لا على الورق، لمسوا جسدها خلفاتها وفهموا ما الذي يجري حولهم. لا يثق

الصدريون مطلقا بالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، ويتشككون بنوايا حزب الدعوة. كان بين أصدقائي الصدريين فضلا عن الشيخ عباس، اسماعيل مصبّح « شقيق محمد مصبّح الوائلي محافظ البصرة الأسبق الذي اغتيل في أيلول 2012، والشيخ كريم المنفي. وحين وصلت لهم كان أبو سيف قد خرج قبل أشهر قليلة من السجن، فقد تولّى تهريب السيد جعفر نجل السيد محمد باقر الصدر الى إيران ليفتح مكتبا للسيد محمد الصدر، استأجروا بيتا وسط قم ودعوا العديد من الشخصيات للاحتفال بافتتاحه لكن الحكومة الإيرانية أغلقتة بعد أيام قليلة، وألقت بأبي سيف في السجن، ليقضى فيه أكثر من عام. وقد عذب داخل دهاليز السجون الإيرانية، كما تحدّث هو في تقديمه لكتاب (السفير الخامس)، ثم طلبت منه الاطلاعات الإيرانية الخروج من إيران، وحين التقيت بهم كان أبو سيف في طور الاستعداد لتنفيذ طلبهم، لكن شيئا من ذلك لم يحصل.

يستأجر أبو سيف وشيخ عباس بيتا مشتركا، وبحكم وجود أبي سيف وحده في إيران كان يشغل سرداب البيت ويسكن الشيخ أعلاه، شرحوا لي في أول لحظات لقائهم بهم وضعهم الأمني المتدهور خصوصا بعد نشر الشيخ عباس كتابه (السفير الخامس) الذي تهجّم فيه على مراجع دين إيرانيين لهم دورهم المؤثر في دعم السلطة والولي الفقيه علي خامنئي، وتهجّم بشدّة على المرجع السيستاني ورجال دين كبار في العراق. كان وضعهم غير آمن وخطير، وطالما ضحكت على هذه المفارقة المؤلمة، فأنا هربت من وضع غير آمن مع أجهزة أمن صدام، لأجد نفسي في إيران بوضع لا يقل سوءا وخطورة.

كنّا مجموعة من الأصدقاء جالسين في سرداب أبي سيف عصر أحد الأيام، عندما سمعنا طرقا شديدا على الباب تبعه وقع أقدام سريعة على سلّم السرداب، دخل شابان وأغلقا الباب خلفهم، تحدّثوا بعصبيّة وبلغّة فارسية مع أبي سيف الذي بدت عليه علائم الخوف والقلق، مدّ يده لجيب قميصه المعلق بالجدران واستخرج لهم الكارت الأخضر وهو الوثيقة الرسمية التي تمنح للاجئين العراقيين في إيران، وتكرّر الأمر

مع بقية الحاضرين، وأثناء تفتيشهم همس في أذني أحد الحاضرين قائلاً بين لغة الإشارة ولغة اللسان:

— هذولة اطلاعات يفتشون على الكارت الأخضر.

— لا بشرفك؟ لك هاي شلون مصيبة؟ قلت ذلك لصديقي وأنا أكاد أموت خوفاً، لأنني الوحيد من دونهم لا أحمل الكارت الأخضر وهو الوثيقة التي تمنحها الحكومة الإيرانية للاجئين العراقيين لديها.

التفت الى كرسي أسفل شبك مرتفع أعلى السرداب، يفضي الى الشارع، فكرت أن اقترب بهدوء من الكرسي لأقفز نحو الشباك، مرّت بي هذه الخاطرة بعد أن شاهدت خلو أحزمة رجال الأمن من السلاح، وحين تحرّكت صوب الكرسي، انطلقت ضحكات هستيرية من الجميع، عرفت أن رجال الأمن هؤلاء كانوا مزيّفين وأنهم أصدقاء لأبي سيف، اتفقوا على صنع هذا المقلب بي قبل وصولي لهم، سحبت نفساً ربّما كان الأطول في حياتي، وجلست على الأرض بعد أن فقدت نصف قوّتي، لعنتهم على فعلتهم، وقلت لأبي سيف:

— بيني وبين الموت شعرة، لعنة الله عليكم.

كانت المعارك الحزبية ذات الطابع الشخصي الضيق هي التي تسود مشهد المعارضة، الثقة المفقودة فتحت الباب أمام ألوان من اللّعن والظعن، كلّ طائفة تلعن الأخرى، ساحة السياسة غدت ساحة تصفية حسابات تتبادل فيها كرة الاتهامات بالاثراء من المال السياسي والظعن بالولاء الوطني وربما تصل الى حدود التشهير الأخلاقي.

في تلك المعارك كان نشر البيانات في الأسواق أو عبر وسائل الإعلام الحزبية، هو الطريقة الأكثر تداولاً. ومن بين المعارك التي جرت كنت شاهداً على معركتين، الأولى هي معركة حزب الدعوة مع الشيخ علي الكوراني، وهي التي شغلت مساحة كبيرة من اهتمام العراقيين في قم، والثانية كانت بيان الشيخ عباس الزيدي وأبي سيف الوائلي ضدّ محمد باقر الحكيم، كلا الواقعتين حدثت في نفس الشهر، أيلول 2002.

في قصة الشيخ الكوراني مع حزب الدعوة دارت المعركة حول تشييع السيد محمد باقر

الصدر، فقد كتب الشيخ مقدمة لكتاب بعنوان (الحقّ المبين في معرفة المعصومين) أصدره أحد مراجع الدين في قم، قدح في مقدمته ببقاء تشييع السيد، مؤكداً أنه أدخل الفهم السنّي للائمة في أفكاره، وبأن معرفته بالمعصومين لم تكن محصورة بروايات الائمة عن أنفسهم بل شابها تصوّر خصومهم أيضاً. ووصف الشيخ الكوراني السيد في تلك المعرفة بأنه «التقاطي» أو «تركيبى» متّهما إياه بالتضحية بروح التشييع. فانبرى حزب الدعوة في الرد على «فرية» الشيخ حسب وصفهم، وحاولوا جهدهم إثبات تشييعه وتبرئته من تلك التهمة المشينة. فأصدر أنصار الدعوة من مثقفين وكتاب بياناً وقّع باسم الأمانة العامة لرابطة الكتاب والمثقفين العراقيين قالوا فيه:

«سيبقى النقد العلمي والموضوعي واضح المعالم، مميّزاً بوضوح عن النقد الذي تختفي وراءه دوافع أخرى، من قبيل المواقف الشخصية، وتصفية الحسابات القديمة، والانطلاق من عقد دفينية، الأمر الذي يجعل النقد طعنا واستهدافا شخصياً ينقلب على صاحبه سيئة تدفع به الى الورا».

لم يخلُ الجدل من الـ«بوكسات» فقد هجم شاب متحمس للسيد الصدر أو ربّما مدفوع بغضب حزب الدعوة، ليوجه لكلمة لعين الشيخ الكوراني بعد أن اقتحم عليه عمله في مركز دراسات دينية كان يديره، خرج الشيخ من معركة الجدل الفكري أزرق العين.. مرتعباً، وخرج حزب الدعوة فرحاً بالنتائج، فقد ردّ على الشيخ بكلّ الأسلحة.

كان خوف حزب الدعوة من أن تطول السيد تهمة الشكّ ببقاء تشييعه هو بالحقيقة خوف على نقاء تشييع الحزب نفسه، إذ يعتقد الدعاة أن الشكّ بتشيعهم سبّة لا خلاص من سوئها، ويمكن أن تفقدهم جمهورهم وأنصارهم الذين كادوا يتلاشون حينها. ورغم قصر عمر مفاهيم الإيراني إلا أن الصديين بما يحملون من روح متمرّدة ومشاكسة استطاعوا ان يزاحموا الأحزاب الأخرى على مساحة الاهتمام الذي تحظى به ومساحة الحراك الذي تشغله، برغم افتقارهم لوسيلة إعلام خاصة أو تنظيم سياسي محدّد، أو مسجد أو حتى بناية يمكن أن تجمعهم فضلاً عن فقرهم المالي.

من كلّ الجدل الذي خاضه الصدرىون في إيران، كان بيان الشيخ عباس الزيدى وأبى سيف الوائلى ضدّ السيد محمد باقر الحكيم، هو الأكثر إثارة للدهشة. كانت المناسبة الفعلية التي صدر بسببها البيان هي ظهور محمد باقر الحكيم في برنامج بثه التلفزيون الإيراني بعنوان (المرجعية الصالحة) قال فيه إن محمد صادق الصدر ليس مرجعا، ولا مجتهدا، وله ذنوب، وعيوب، وأخطاء. فجاء بيان وكيلي الصدر، الذي وُزِعَ في مدينة قم في أيلول 2002، شديدا في لهجته فقد تضمّن سبّا مقذعا بحق الحكيم. حاول البيان الإبتعاد ولو قليلا عن قضية التّهجّم على السيد الصدر، واعتبر قضيته الأساسية هي نقد حراك المجلس الأعلى للثورة الإسلامية الذي تقرّب يومها من الولايات المتحدة ودخل في حوار مع إدارتها قام به السيد عبد العزيز الحكيم في آب 2002 لمعرفة نوايا الإدارة الاميركية تجاه العراق. وصف البيان مرتكزات الحكيم بالقدرة، وأنه عميل لأميركا ويتلقّى أموالا منها عبر الكويت، وأطلقوا على شقيقه عبد العزيز الحكيم وصف الجاسوس، وصعدوا من لهجة بيانهم قائلين «الحكيم عنّين يبارز بقضيب أبيه».

كانت العبارة صادمة بالفعل وربما لم يصل كلّ الجدل والخلاف بين الأحزاب الشيعية طيلة وجودها في إيران الى حدّ استخدام عبارة مثل هذه ونشرها في بيان يوزّع بين الناس.

في أواسط تشرين الثاني 2002، كنت في حسينية الإمام الرضا «النجفية» حين اعتلى محمد باقر الحكيم منبرها، ذهبت الى المكان مفترضا أنه سيتطرق لبيان الصدرين، جلست لاستمع لكلماته، فتحت ورقة لأكتب ما سيقول في كلمته، لم يسبق لي أن قمت بذلك، لكنني أردت أن أعرف موقف الحكيم وطريقة ردّه على البيان فيما لو رغب فعلا في الردّ. هو من جانبه لم يسبق له أن قام بهذا الفعل، حيث يكتفي في حالات مشابهة بإصدار بيان أو تصريح لوسائل إعلامه، لكن لغة البيان نجحت في استفزازه وإخراجه عن طوره، كان منفعلا حين قال:

«عندما لا يتصدّى العلماء الحقيقيّون لهذا الأمر (أي إصدار بيانات تؤيد تحركاته

السياسية) فإنهم سوف يتكون الأمر للأدعياء في نشر بيانات سبّ، وشتّم، وتفريق كلمة، لتأخذ الأمور هذا المجرى أو ذاك، أرجو من الحوزة العلمية العراقية صاحبة التاريخ الجهادي الطويل، أن لا تترك أمر التصدي لبيانات تصدر على يد من لا خلاق لهم ولا هم من الحوزة العلمية، وليس لهم وجود حقيقي على الساحة العراقية، الذين لا ينشرون غير الأكاذيب، والسباب، والشتّم، ويبثون التفرقة» .

وحين انتهى من كلمته قلت مع نفسي ربّما لن تترك المخابرات الإيرانية للغة التّشهير والسبّ هذه أن تمرّ مرور الكرام، فالحكيم يحظى بدعم كبير وعلاقات واسعة مع قادة إيران بدءا من الولي الفقيه علي خامنئي نزولا للقادة الآخرين، ووسط هذه التّصوّرات كنت اعتقد أن اعتقال أصدقائي سيكون مسألة وقت فقط، مضت الأيام ووسط ترقبنا، لكن الأمر مرّ بسلام، وعزونا عدم إقدام أجهزة الأمن الإيرانية على أي خطوة تجاههم الى أنها مشغولة بما سيجري في العراق وليس من مصلحة إيران أن تفتح جبهة مع أي طرف وربّما سينعكس الأمر بطريقة سلبية على الحكومة الإيرانية لو أقدمت على خطوة الاعتقال.

صورتان

أنا الفيترجي، وأنت بائع اللبن وغيرنا من (العوام) لماذا لا يسمحون لنا بأن نتدخل من خلال الانتخابات لاختيار قيادات حركتنا التحررية في وقت يتدخل أي إيراني من (العوام). العامل، والفلاح، والكتاس في اختيار أعلى المناصب في الدولة من خلال الانتخابات؟ وقد انزعج بائع اللبن المذكور من تصريحاتي هذه، وقال: ما لك وهذه المواضيع القديمة؟

عدنان الحسناوي 13

جريدة «الجمعة» العدد 16 آب 2000

مقالة بعنوان «حوار حول الانتخابات»

كَمَا تَأَمَّلْتِ فِي كَلِمَاتِي وَأَفْكَارِي وَأَنَا اتَحَدَّثُ عَنْ حَيَاتِي فِي الْعِرَاقِ إِبَانِ حَكْمِ صِدَامِ

١٣ . عدنان الحسناوي، مهندس عراقي لاجئ يعيش في محافظة يزد الإيرانية ويعمل «فيترجي» كما شرح ذلك في مقاله، وجريدة «الجمعة» أسبوعية أصدرها عدد من الشباب العراقيين في تم عام ٢٠٠٠ وتوقفت بعد بضعة أعداد.

حسين أجدها أكثر صدقا وحرارة من كلماتي في إيران. في الأولى تحدّثت عن نفسي وأنا أحياء في مجتمع مقموع، ومستلب، العدو واحد، والمأساة واحدة، والحلم واحد. وفي إيران كلّما تأملت في ما أريد كتابته أجد نفسي حائرا، ومشتتا، وباردا. في الأولى تحدّثت وفي الثانية تردّدت، في الأولى كنت واثقا، وفي الثانية كنت خائفا. العراق مأساة، ونيران، وكشف، ووضوح، وهذه تكفي لأن اتحدّث وأبكي، وأسخر، واتألم، أما في إيران فقد عشت الملهاة، والحيرة، والشك، والكذب، والزيف.

كان من حسن حظّي أن أصل الى إيران قبل سقوط نظام صدام حسين بسنتين، يومها وصلت أوضاع العراقيين، أفرادا وأحزابا الى أقصى حدود اليأس من العودة للبلد. عاشوا المنفى كحقيقة أبدية، شاهدت خلال السنتين، لحظتين أو صورتين مختلفتين، اللحظة الأولى «المأساة»، كانت في رؤية ما تركه اليأس على حياة العراقيين، أما الثانية «الملهاة»، فكانت لحظة اقتراب الأمل ونهاية اليأس. لقد كنت شاهدا على آخر فصول المأساة وأول فصول الأمل.

المأساة كانت تتجسّد حقيقة أمامي وأنا أشاهد الخلافات العميقة، والمخجلة، بين الدعوية، والحكيمة، والصدريّة، والتوابين (وهم الأسرى الذين قبلوا الخروج من الأسر مقابل الدخول في تشكيلات المجلس الأعلى للثورة الاسلاميّة)، والمنتفضين (الهاربين بعد انتفاضة 1991)، والشيرازية (أتباع المرجع محمد الشيرازي وجناحهم السياسي منظمة العمل الإسلامي)، وأشاهد أيضا الفراغ الروحي والعقلي والوهن الذي أصاب الجميع، المشهد يثير الشفقة مثلما يثير الأسئلة، وكلتا الإثارتين لا حدّ لها. أما الملهاة، فبعثت من التصديق والوثوق بان نهاية صدام أصبحت حقيقة ملء اليدين، وفيها تبدّلت الأدوار، الموتى أصبحوا أحياء، وارثي الجبناء ثياب الفرسان، وأبرز للصوص شهادات نزاهتهم، وبكى أصحاب القلوب الصخرية، وتحدّث أصحاب اللكنة بلسان فصيح، وجسّد البخلاء دور الكرم والجود. انقلب كلّ شيء في قوافل العائدين الى العراق.

كان من أوائل الأشخاص الذين عرفتهم في إيران، رجل تركماني اقترّب من عمر

الستين، يعيش مع مجموعة من الشباب من أهل بلده في سرداب بمنطقة «نبروكاه» الشعبية وهي الأكثر اكتظاظا بالسكان والأكبر مساحة في مدينة قم، وقع في الأسر مطلع الثمانينيات، وكان يومها شابًا ممتلئًا بالحيوية والنشاط، واضطر بعد سنة أو أكثر على أسره الى الانتساب لفيلق بدر. شاهدت صورته وهو في معسكرات التدريب وفي جبهات القتال ضدّ الجيش العراقي، ولكنّي عرفته وهو متقاعد، لا يعرف عن أهله، زوجته وأولاده سوى أخبار يصل عمرها الى سنوات، لا يعرف أي جوع مرّوا به، وأي رعب وحزن عاشوه طيلة غيابه وبسببه، كيف تألّوا؟ وكيف عاشوا صعوبات الحياة بدونه؟ انقطعت عنه أخبار عائلته فعاش على الذكرى والصور، يومياته لا تتعدّى الطبخ، والتبضع في سوق العراقيين، وزيارة مرآقد دينية، أو حضور مناسبات اجتماعية، والسهر مع الأصدقاء، حياته تنتظر أشياء أخرى، ربما الموت أو الهجرة الى بلد آخر، رتابة الحياة دفعته الى الاستسلام والانتظار، صورة هذا الرجل تشبه ما جرى مع الأحزاب، لا فرق بين الاثنين، فكلاهما تقاعد عن الحلم، والأمل الأكبر بسقوط صدام حسين. يوميات صديقي التركماني تشبه يوميات الأحزاب، يقضي التركماني يومه في شجار مع شركائه في السكن، وتقضي الأحزاب أيامها في إيران بالشجار حول أفضليتها، ومصداقيتها، ووطنيتها، وإخلاصها.

وحيث بدأ عزم أميركا على إسقاط نظام صدام حسين مؤكّدا هذه المرّة، انتهت رتابة الأيام وتغيّرت البرامج، فدبّ النشاط في جسد المعارضة العراقية الميت، كانوا مثل أصحاب الكهف، منقطعين عن الحياة والنشاط، ولكنهم خرجوا فجأة الى الضوء، فكانت إيران هي أولى محطات النشاط السياسي للمعارضة. بدأنا نقرأ ملصقات في أماكن تواجد العراقيين، يعلن فيها عن محاضرة أو ندوة تقيمها شخصية عراقية معارضة.

ضمّ مشهد الساسة المتبضعين في سوق إيران الكثير من الأسماء، مدنيين وعسكريين، علمانيين وإسلاميين، أكرادا وعربا، جماعات بريطانیا وسوريا وأميركا، وجماعة الولي الفقيه. وكلّما اقترب موعد الإطاحة بنظام صدام كلّما ازدادت المحاضرات واللقاءات

عددا وحرارة، أحدهم يبحث عن 200 شاب ليزجهم بـ «جيش» جرى تأسيسه على عجل، وبت آخرون الحياة في جسد سياسي جديد تدعمه الحكومة الإيرانية. العمل السريع يوحي أن فراغا سياسيا يعقب الإطاحة بصدام لن يسمح به، وسوف «تتضافر الجهود» لملء مفصل السلطة بدم جديد.

بين كل هذا الحراك كان ما لاقاه عبد المجيد الخوئي هو الأكثر دلالة والأعمق معنى، وفيه اجتمعت المأساة والمهابة معا. جاء الى قم وهو يحمل معه اسم والده «ابو القاسم الخوئي»، الزعيم الروحي الكبير والقامة التي لا يدانيها أحد. أعلن أصحابه عن موعد الجلسة أو اللقاء الذي يرغب ابن الخوئي بعقدته مع العراقيين، المكان هو حسينية الإمام الرضا «النجفية» التي تتوسط سوق العراقيين في «الكرز خان»، والزمان هو الثامن من كانون الثاني 2003، والمناسبة هي الحديث عن ما بعد السقوط.

دخل ابن الخوئي بثيابه الأنيقة والبراقة، كان وجهه يوحى بنعيم الملوك، كل شيء فيه مرسوم بألوان الخير والرفاه. نقاء بشرته، عطره، بياض أسنانه، قماش جبته وعباءته الأنيقة، عيونه التي تشتعل جمالا وترفا، كلها جاءت من عالم آخر أكثر حبورا. أما الجالسون في الحسينية فكانوا من نسيج آخر، وجوههم الكالحة تكشف عن تاريخ طويل في مقارعة الجوع والفقر، خلّف حفرا في جلودهم وخطوطا داكنة على خارطة الوجوه. تبحث أرواحهم عن منفذ للهرب من غرفهم المؤجرة الصغيرة، وغربتهم الطويلة والمريرة، ومألهم الشحيح. لم يسبق لعبد المجيد أن التقى بهذا الكمّ من الفقراء المعدمين، من ضحايا تطول قائمة معذبهم، هو لم يزر إيران إلا مرة أو مرتين قبل يومه هذا وكانتا خاطفتين، دخل وهو يراهن على وقع اسم أبيه على النفوس، لا يعرف أي شرخ أصاب العلاقة بين الطرفين، ولا يمكن له حتى وهو في أعلى درجات التشاؤم أو بعد النظر أن يتصور أن المحاضرة ستصطدم بضراوة الواقع لتكشف صورة أخرى من صور الرفض والشك بكل ما يقول.

بدأ الخوئي الابن محاضرتة بفكرة خاطئة، فبدأ المشهد أشبه بخطأ ارتكبه مروّض أسود، تحدّث عن ضرورة التعاون مع أميركا وبريطانيا في إنقاذ العراق وإعادة بنائه

بعد سقوط صدام، وعرض فكرته بتأسيس ما أسماه بـ (الجلس الشيعي العراقي) وهي مؤسسة قال إنها تهتم بشؤون شيعة العراق، وتدافع عنهم وتؤدّد مواقفهم وكلمتهم، ثم ضرب على وتر الجوع الحساس ليفرش وثائق خدمته لعراقي المهجر وخاصة في إيران. تحدّث عن دعمه لسكان معسكرات اللجوء، أو ما يسمّى بالمخيمات، وعن أدوية أهداها لهم، وعن «صوبات» تقيهم شرّ برد إيران الخبيث، وعن طعام وأموال، هبات الخوئي كانت هباءً منثوراً في عقول الجالسين مثلما هي على الأرض فعلاً، وكلّما أوغل الخوئي في تيهه كلّما رفعت الأسود من حدّة صوتها، تحدّث عن القادم الذي ينتظر العراقيين بعد السقوط.

وقبل أن يسترسل في وعوده، نهض أحد الشباب واقترّب من المنصّة التي يجلس عليها الخوئي ومدير الجلسة، مدّ يده نحو عباءة الخوئي، لمسها وكأنّه يمسّد جسد أميرة نائمة، كانت عيونه تشتعل جوعاً وبأساً، ارتبك المحاضر، حدقات عيونه نمت عن خوف وشكّ بالنوايا، لفّ الشابّ العباءة حول يده وعيونه المصوّبة نحو ثياب الخوئي تتطاير شرراً، قال له اجب عن سؤالي، كان يريد محاكمته، وقبل أن يسأل، صرخ أحدهم: كذاب، رفع الآخر صوته صارخاً: ملعون. صرخت مجموعة «عاش، عاش، عاش الصدر» قاصدين محمد صادق الصدر، دخلت سايكولوجيا الجماهير الى المسجد، نهض الحاضرون من مكانهم، بدا الصراخ غير مفهوم لكنّه واضح المقاصد، يريدون الثأر منه ومعاقبته على ما يمرّون به من ألم، وجوع، وتهديد. أحاطه أصحابه وقادوه الى غرفة تقع فوق المصلّى وأمام عيون الحاضرين، ضرب الجمهور حوله حصاراً مروّعاً، وبعد دقائق كانت قوى الأمن تحيط بالمكان، قادها حسّها العالي بخطورة الأزمة نحو الطريق الأكثر أمناً، الهدوء والتهدئة، لم ترفع عصاً أو صوت، هدأت الأسود وخرجت من القفص الى الشارع ووقفت تنتظر الضحية، فرقتها مرّة أخرى حنكة عناصر الأمن وخبرتهم.

في صباح اليوم الثاني كانت الملتصقات تملأ سوق العراقيين «الگزر خان» معلنة عن موعد لقاء آخر للخوئي مع العراقيين، وهذه المرّة سيكون في مبنى رابطة الكتّاب

والمثقفين مساء اليوم نفسه، وهو سرداب واسع، يبدو أن الخوئي يريد من لقائه الثاني الحديث لأناس يعرفون أهميته وأهميته ما يقول، أناس بعيدين عن لغة الصراخ، والتهديد، والإهانة، ولا تخرج أفكارهم وكلماتهم بل من عقولهم، يريد أن يمحو ذكرى الأمس، ويكتب صفحة جديدة، يسجل فيها أولى خطى العودة الى العراق من خلال مأساة العراقيين في إيران، كان عجولا في مسعاه.

وصلنا الى مبنى رابطة المثقفين، رأينا قوى الأمن تحيط بالمكان، ملأت الشارع بسياراتها، وعلى منضّة الرابطة، بدأ الخوئي لقاءه السياسي، لم تحمل أجدته هذه المرّة قائمة هداياه وهباته للعراقيين في إيران، فقد جرّبها أمس وجاءت بنتائج وخيمة عليه وعلى مشروعه السياسي للعراق الجديد، كان هادئا ومبتسما، قدمه أحد الأشخاص وأكّال عليه المدح والثناء، وبدأ على بركة الله. لم تمض سوى دقائق حتى ارتفع كرسي فوق رؤوس الحاضرين وطار الى حيث يجلس الخوئي، وقبل أن يسقط لحق به آخر الى نفس المكان، عمّ الهرج ونزلت قوى الأمن الى السرداب، وأخرجت الخوئي من بين الكراسي، فعل المثقفون في رابطتهم ما فعل المصلّون في مسجدهم، بفارق وحيد هو أن أصحاب الكراسي كانوا أكثر استعجالا وعنفا في مطاردة الغنيمة من أصحاب الحسينية.

ما جرى مع الخوئي بعد عودته للعراق كان أكثر إبلاما وفضاعة مما تعرّض له في قم، ففي النجف معقل التقوى والدين مزّق جسده، وأزهقت روحه، غدر به دون رحمة وبلا ضمير ولأسباب أكثر غموضا من أن تعقل. تناثرت أشلائه على تراب «وادي السلام» حيث رقد فيها بسلام لتنتهي حربه مع المجد والتاريخ.

كشفت مشاهد ما جرى مع قادة المعارضة ورجالها عن حجم الهوة التي تفصل بينهم وبين جمهورهم من عراقيي المهجر، وهي للأسف، الهوة التي كبرت أكثر وهم على سدة الحكم. كانوا في غربتهم بعيدين تماما عن معاناة الناس، بعيدين عن الأرض التي يعيش عليها جمهورهم، وهو في جزء كبير منه خرج من عباءتهم ثم من تنظيماتهم، لقد حوّل اليأس من سقوط صدام القوى المعارضة له الى مأساة، فقد

إعلان شيعة العراق

إن التيارات التي كانت تتطوّر بخصوص وعي شيعي منفصل قد وجدت طريقها الى الإفصاح التام عما تريد التعبير عنه وذلك بصدور بيان في تموز 2002 وهو المعنون بـ «بيان شيعة العراق» ... وقد شدد البيان على أن دولة العراق هي في حقيقتها دولة ذات طبيعة طائفية.

علي عبد الامير علاوي
كتابه (احتلال العراق: ربح الحرب وخسارة السلام)

في أيلول 2002 دخل سوق السياسة في قم مضارب آخر، جاء باحثا عن تصفيق وتأييد لبضاعته المزجاة من روايات الأئم الشيعي والسجون والمقابر، دخل موفق الربيعي قم حاملا معه ورقة دار بها في مساجد ومجالس العراقيين فيها. أسماها (إعلان شيعة العراق). ما يميّز هذه الورقة ليس صراحتها فقط ولغتها الواضحة

عن السياسة الطائفية التي تقوم عليها الدولة العراقية منذ تأسيسها، والتي أقصى سببها الشيعة عن السلطة، وتعرضوا بسببها الى ألوان من التنكيل والتعذيب والقتل، وليس فقط التغيب عن مراكز القرار السياسي، بل حدّد الإعلان خطوات عملية لحلّ المشكلة الطائفية. لإعلان الشيعي بدءاً من العنوان، يوحي بأن شيعة العراق سيضعون عن أيديهم قيود التاريخ والسياسة التي ألقتهم في خانة التغيب وسجون الشكّ والاتهام، سيتحدّثون صراحة ويعلنون موقفهم من السلطة والقرار ويأخذون حصّتهم منهمما، ضرب الإعلان على الوتر الحساس لأناس يعتقدون أن حكومتهم قتلتهم وعذبّتهم وسرقت أموالهم وشرّدتهم بسبب هويتهم المذهبية. عرض الربيعي في حسينية الشهيد الصدر العائدة لحزب الدعوة فكرته بصراحة ملفتة دون أن ينسى استخدام لغة الاستنكار لما جرى في العراق الحديث، الى متى يبقى حال الشيعة كما هو اليوم؟ هل سنفوّت الفرصة مرّة أخرى؟ هل سنظلّ نبكي ونلطم؟

موفّق كان «موفّقاً» في إقناعه أو هكذا افترضت، فهو يتحدّث لضحايا تتجلى فيهم كلّ صور التنكيل والبطش التي وقعت على الشيعة في أسوأ عهود الدولة العراقية الحديثة، عهد صدام حسين وريث السلطة الطائفية، وخصوصاً بطشها وسوئها. الجالسون كانوا بين مسجون، ومعذب، ومطارد، وفقيد الأب، أو الابن، أو الزوجة، أو الأم، أو الأطفال، أو كلّ هؤلاء. جمهور نكلّ به بسبب طائفته سيكون الأرض العطشى لمن يحكي صراحة عن عذابه ومصيره المؤلم.

حين انتهى موفّق من طرح إعلانه طلب منا أن نوقع على ورقة تأييده، قائلاً: إن قادة سياسيين ورجال دين ومثقفين من الشيعة وقعوا عليها ذاكرا أسماء مهمّة، فكان هذا وحده كافياً لإقناع الحاضرين بصدق إدعائه بالتأييد الواسع لإعلانه. وبالطبع لم ينس أن يقدم لنا وجبة طعام دسمة من أفخاذ الدجاج والرز الرشتي البديع، أشبع جوعنا ودموعنا فالتهمنا الطعام وهضمنا فكرة موفّق وشددنا على يده، مشيت صوب المنضدة التي وضعت عليها ورقة التواقيع، مرّ بجانبني عضو في حزب الدعوة همس باذني همسا شيطانياً، قائلاً:

— لا تَوَقِّع.

التفت له مستنكرا طلبه في داخلي، واعتبرته غريبا بل ربّما غير أخلاقي، فالرجل لم يقل سوى الحقّ ولم ينطق غير الحقيقة فضلا عن تواقع الرجال المهمّين التي تزين الإعلان، فمن أكون أنا حتى أرفض التوقيع على إعلان يمكن أن يصحّح مصير بلدي، همس مرّة أخرى:

— الرجل غير صادق النوايا وإن كانت الفكرة صادقة، وأشكّ بالكثير من الأسماء التي قال إنها وقّعت على الإعلان.

لم أعبأ بهذيان الرجل فأنا أعرف أن «الدعاة» لا يحبّون موقفا، ويشكّكون بأقواله وأفعاله كثيرا وهو كان قد ترك حزب الدعوة منذ سنين طويلة، مسكت القلم وبالغت في دعمي للإعلان فلم أتردّد بكتابة اسمي الثلاثي ولقبني. خرجت من الحسينية وفي داخلي تتردّد كلمات «الداعية»، أصابني الملعون في مقتل، مثلما أصابتنني صراحة موفّق بالدهشة والاستغراب، سألت نفسي، لماذا لم أقرأ نصّ الإعلان؟ هل يمكن أن يكون الرجل كاذبا حين ذكر أسماء الموقّعين على البيان؟ تمنّيت أن أعود للورقة وأمحو منها اسمي. لم استنكر ما طرحه موفّق من أفكار، أو بالأحرى لم أشغل نفسي بنقد الفكرة، مفترضا صدق الرجل وصدق فكرة الإعلان أيضا، كنت معجبا بصراحة الكلمات، فهي قالت في العلن ما نقوله في السرّ، وأخرجت ما في القلب على القلم، الشّيعَة اضطهدوا، ونكّل بهم، ولم ينصفهم الحكام، وهل يمكن أن يقال غير ذلك؟ في الصباح كنت وجها لوجه مع موفّق في مكتبة وسط سوق العراقيين، دخل طالبا كتاب «مقتل أبي مخنف» وهو الكتاب الذي تناول قصة مقتل الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه في كربلاء، سألته:

— أستاذ موفّق صار الكم بالمعارضة الإسلامية أربعين سنة، أشو هسّة تقرون مقتل الحسين؟

ابتسم ورد عليّ:

— طلبه مني صديق في لندن حين عرف أنني ذاهب الى إيران.

تشابهت في داخلي صورة الإعلان وتوقيته مع بحث موفّق عن مقتل أبي مخنف، فقد عرف قادتنا بقصة «مقتلنا» فقط حين اقتربت حرب إسقاط صدام.

لم تمض سوى أيام قليلة حتى اعتلى الشيخ محمد باقر الناصري منبر مسجد الشهيد الصدر وهو نفسه الذي طرح فيه موفّق فكرة إعلانه وذكر الناصري كأحد الموقعين على البيان، كان الناصري صريحا حين قال إنه لم يوقع على أي ورقة برغم مساندته للمشروع كفكرة وإرساله رسالة للقائمين عليه يشرح فيها وجهة نظره.

بعد أيام قليلة نشرت وسائل إعلام قريبة من المجلس الأعلى للثورة الإسلامية تكذيبا لما قيل عن توقيع السيد محمد باقر الحكيم على إعلان موفّق، وبدأت الأخبار تتوالى من خارج إيران وداخلها، تنقل نفي أسماء كثيرة من التي قيل إنها وقّعت على الإعلان المثير للجدل، لم تكن أخبار النفي هي وحدها سيّدة مشهد إعلان شيعة العراق بل انقسمت صفحات الرأي حول جدوى الإعلان ومخاطر توقيته ومضمونه.

العودة

لقد انقضى زمن الثورة، لقد انتهت الإعلانات وانتهى الضجيج والهيّاج، هناك الآن شيء آخر ينمو، شيء جديد، إنه ينمو غير منظور وفي هدوء مثلما ينمو العشب، إن حرية جديدة تولد .

باسترنالك

عصر التاسع من نيسان 2003، وصلت قم قادما من مشهد، المسافة بين المدينتين 1100 كيلومتر، انقطعَتْ خلالها عن أخبار الحرب، كنت ضمّانا لمعرفة ما يجري. دخلت ضريح فاطمة بنت الإمام الكاظم، التي يسميها الإيرانيون «معصومة»، وضعت حقيبتي لدى موظف الأمانات في الضريح وتوجهت لسوق العراقيين المجاورة للمرقد، لأعرف أين وصلت الحرب، أخذ الموظف الحقيبة وأعطاني وصلا بتسلّمها، كان يقف خلفه معممّ بدين وكبير بالعمر، يبدو أنه مسؤول عن العمل، سألتني:

— هل أنت عراقي؟ قلت له نعم، فبادرني:

— أتتكم الحرية فتمسكوا بها.

صدمتني صراحته فقلت له على سبيل الجدل الخبيث:

— أميركا هي الشيطان الأكبر وهي من سيحكم بعد الطاغية، فما تقول؟

هزّ يده وقال مستنكرا سؤالي:

— هذه أميركا، إنها الحرية.

وأعاد كلمة الحرية بشغف غريب أكثر من مرة، استغربت من حديثه العلني، فكيف يجرؤ معمم إيراني على الاستهزاء من مقولة «الشيطان الأكبر» ومرشدهم الأعلى هو من سماها بهذه التسمية؟ أليسوا هم من حملوا راية مقاتلتها ولواء حربها؟ لماذا يبدو هذا المعمم البدين كأنه متعطش للحرية أكثر من نيتشه نفسه؟ يكرهون أميركا في العلن ويتمنون في السرّ لو إنها أسقطت نظام حكمهم، في أي ضفة تستقرّ حقيقتهم؟ لا أدري.

أسرعت صوب سوق العراقيين، علمت أن دبابة أميركية أسقطت تمثال صدام وسط بغداد، هرب الدكتاتور تاركاً كرسيه، وعائلته، وسلطته، وجرائمه، ولا أحد يعرف مصيره. هدأت روحي، لقد انتهت أعنف الديكتاتوريات الشرقية وانتهى معها الكابوس العراقي، وسنعود الى نفوسنا، نعيد ترتيب حياتنا مرة أخرى. في تلك اللحظة توقفت رياح أحزان الغربية في نفسي، ألقيت بخيالي صوب يومياتي في بغداد، لا أكاد أصدق أن كابوس صدام والبعث انتهى الى الأبد، العالم الآن لم يعد غريباً عني، ولست بحاجة الى الهرب أو التوغل في دروب أخرى من ألم الاغتراب. لن أنام بعد اليوم في الشوارع ولن أكذب على أصدقائي حين يسألوني عن سبب جلوسي لهذا الوقت المتأخر من الليل على مصطبة في شارع كثيب وخال من البشر، لن أثقل عليهم، وستكفّ أحماض معدتي وقرحتي عن سدّ منافذ الهواء عليّ، ساتنفس مثل الناس وسأنام على فراش دافئ مثلهم.

مضى شهراً واحداً على واقعة ساحة الفردوس حيث سقط التمثال المخيف حتى

استطعت أن أنفذ للعراق، وكنت قد جرّبت قبل ذلك الدخول الى العراق عقب أيام قليلة على «السقوط»، إلا أن المحاولة فشلت على بعد كيلومترات قليلة من الحدود. ففي آخر نقطة أوقفنا سيطرة عسكرية ل تمنعنا من الوصول، قال لنا ضابط، إن قرارا بمنع دخول العراقيين من منفذ «قصر شيرين — المنذرية» صدر من أعلى سلطة في البلد، من مكتب الولي الفقيه، بعد تعرّض رجل دين عراقي وهو مرجع لجهة سياسية تنشط في إيران الى التسليب من قطاع طرق إثر اجتيازه منفذ المنذرية الحدودي، تكلم معنا الضابط الإيراني بلهجة عراقية نقيّة تماما، بارك لنا سقوط صدام وأبدى فرحه بما جرى، قال إنه ولد في العراق وعاش فيه، وأنه هجر من قبل صدام حسين بسبب أصوله الإيرانية وهو الآن ينتظر أن تنتهي مهمته بسرعة ليزور النجف، تصوّرت قصص عودة المغتربين وشكل العراق الجديد، حيث لا إبعاد ولا إسقاط جنسية ولا تسفير. من ألوان الفرح والبهجة تشكّلت في خيالي صورة عراق ما بعد صدام. كانت الرحلة الى الحدود متعبة لي أشدّ التعب فقد أجريت قبلها بأيام عملية «الناصور»، وكانت أقرب الى النصب والاحتيال منها لعملية جراحية حقيقية، كنت مرهقا ولم أتمكن من الجلوس في الرحلة التي استغرقت 10 ساعات، إلا لوقت قليل موزّع بين ساعات الوقوف، أرهقني الطريق الطويل ووجدت نفسي أعيده مرّة أخرى مباشرة، لكنني رغم ذلك كان فرحي بالعودة يخفّف عني الآلام وينسيني تعبي.

قبل أن تتحرّك السيارة لتعود بنا الى قم، مدّ الضابط الإيراني يده الى جيبه وأخرج عددا من الهويات المدنية وطلب منا تعريفه بالمزوّرة منها والصحيحة، قال إنه ترك العراق وفيه جنسية تشبه الدفتر وليس ورقة واحدة كما هي الآن، وإنهم يسكنون بشباب إيرانيين متوجهين الى العراق، وهم يحملون هذه الهويات فقط، كنا خمسة أشخاص، اثنان منهم صديقان مقرّبان لي هما رفيقاي في الرحلة، أشار له أحدهما بأني هربت لإيران من وقت قريب، وأعرف شكل الختم الأخير وشكل الوثيقة أيضا. من جانبي كنت قد شاهدت حركة تزوير لوثيقة الجنسية العراقية رائجة في سوق العراقيين بعد أيام على السقوط، تباع فيها لشبان إيرانيين هويات عراقية يطلّبونها

لزيارة المراقدة الدينية في النجف وكربلاء والكاظمية، وكنت شاهداً على نكت صنعها الشبان العراقيون المزورون، فقد وقفت على عربة بيع خضار يملئ على سطحها بائع الهويات لشبان إيرانيين وثائق مختومة بمختلف أشكال الختم، دائري بنفسجي، وذهبي، ومثلث، كان الخبيث يملأ الهوية بأسماء تثير الضحك فقد كتب لأحدهم.

الاسم: علي حسن المجيد

اللقب : ناصري

اسم الام :صبيحة طلفاح

محل الولادة : العوجة.

كان الشبان المشترين لا يعرفون ما يصنع بهم من مقال، وملك أحدهم هوية لشاب آخر، كتب له. الاسم، سعدي الحلي، واختار زهور حسين، اسماً للأُم، وهكذا تحولت الأسماء المزورة الى نكت تثير الضحك.

في السابع من أيار، وعن طريق أحد مقرات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق (الذي سيتحوّل اسمه الى المجلس الأعلى الإسلامي) في قم، حصلنا على إذن بالعودة الى بغداد، وهو إجراء اتبعته السلطات الإيرانية للسماح للعراقيين بالعودة لبلدهم للحدّ من ظاهرة إقبال الشباب الإيرانيين لزيارة العراق، وصلت الى الأهواز ومعى صديقاى المقربان ذاتهما اللذان كانا معى في محاولتنا الأولى لدخول العراق، ولكل منهما ستكون قصة في عراق الديمقراطية، أحدهما سيلتحق بجيش المهدي ويطارد من قبل الأميركيين فترات طويلة وسيفقد أخاه غدرًا في البيت، ويفقد الآخر في حادث سير بعد أن جاء لزيارة العراق من منفاه في هولندا، وكان قد فقد قبلهم اثنين من أشقائه أعدموا في عهد صدام حسين. ورفيق السفر الآخر سيفتح دكانا بعد أن أنهى جولة طويلة ومرهقة مع الأحزاب استمرت أكثر من عشرين عاما وسيودع الحياة بسكته قلبية.

استأجرنا سيارة تاكسي يقودها رجل أهوازي عربي في الخمسينيات من العمر ليوصلنا الى عبادان، وهي النقطة التي سننطلق منها الى العراق، وحين سعدنا

السيارة اشترط علينا ألا نمنعه من سماع الأغاني فهو يفترض أن كل العراقيين في إيران هم من المعارضة الإسلامية وأنهم يحرمون أنفسهم من سماع الأغاني، وحين انطلقت السيارة كان صوت يونس العبودي يقطع صمت الطريق مثلما يقطع القلب بشجنه ومواويله الشجيّة، تحدّث معنا السائق قائلاً:

— أرجوكم من ترجعون للعراق لا تفكرون بدولة إسلامية، أتركوا الناس تعيش بحرية.

تحدّث عن ثوريته الإسلامية وكيف أنه كان من الثائرين من أجل إقامة حكم إسلامي في إيران، وعن تعرّضه للسجن أيام الشاه بسبب عقيدته، كان نادماً على ما فعل، ترك عقيدته السياسية وتفرّغ لمعيشته كمدرس وسائق تكسي في أوقات الفراغ، قال إن الحكم الإسلامي يقتل الإسلام في أرواح الناس.

وصلنا لعبادان لتقلنا سيارة حمل تعود للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية الى منفذ الشلامجة الحدودي المقابل للتنومة في البصرة، جلسنا في حوضها ومعنا بضعة رجال من عناصر المجلس، شاهدت في الحوض عدداً من اللعب الكارتونية الكبيرة الحجم، وحين تحرّكت بنا السيارة سألت أحدهم، عن ما تحويه اللعب، قال ببرود وكأنّه يتحدّث إليّ من خلال الزجاج، إنها صور للمرجع الديني آية الله السيد محسن الحكيم وولده السيد محمد باقر، التفت الى صديقي وقلت له :

— هم رجعنا للصور؟ ما خلصنا؟

الفهرست

الصفحة	المادة
٥	المقدمة
١١	مساقط الرؤوس
١٨	الصبا وطبول الحرب
٣٠	ملمس الحرب
٤٠	عبيد
٤٦	الداخل والخارج
٥٣	صناعة المهانة
٦٢	رزاق
٧١	فاضل راضي
٧٧	جيل الثورة
٨٢	أحزان الحرب

٨٦	قرب الحدود
٩٥	الكمالية
١٠١	الفجر "الجبر" و "الجبائش"
١١٥	حرب الكويت
١٢٦	بيت الأسرى
١٢٩	قاسم
١٤١	"الأمن" على الأبواب
١٥٠	الهروب من الخاكي
١٧٤	الحصار الاقتصادي
١٨٠	بين يدي العجم
١٩٠	عراق في إيران
١٩٥	معمل الترب
١٩٩	كريم
٢٠٣	صالح
٢٠٨	الصدريون
٢١٨	صورتان
٢٢٥	إعلان شيعة العراق
٢٢٩	العودة

إنه كتاب أمين بدرجة فوق العادة على الواقع، على سيرة المؤلف، وحياة أهله وأصدقائه ومحلته، ثم غربته القصيرة في إيران. كتاب فيه أشياء من أمانة الأب المسؤول الحادب على أولاده، ومن شفقة الطبيب على مرضاه، ومن دقة العالم المدفوع الى المعرفة المجردة من الأهواء. وقد تناوبت المسؤولية والشفقة والمعرفة على نسج وثيقة ضارية في مواجهتها للواقع، وصياغة سيرة خالية من الحقد لعالم مقاد بقاطرة هائلة من الكراهية. وثيقة خطتها يد إنسان طبيعى عن حياة غير طبيعية، أو إنسان سليم عن بلاد فقدت كل أسباب السلامة.

أحمد المهنا

